برتراند رسل



في التربية..

ترجمة

سمير عبده



منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان

في التربية ..

برتراند رسل



ترجمة
سمير عبده

*

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

هذه ترجمة

لكتاب

ON EDUCATION

BY

Bertrand Russell

Unwin Books

George Allen & Unwin Ltd.

Ruskin House, Museum Street

London W. C. I.



مؤلفات
برترانـد رسـل

١ – ا. ب. ج. النسبية
٢ – تحليل الجوهري
٣ – المجتمع الانساني في الاخلاقيات والسياسة
٤ – أثــر العلم في المجتمع
٥ – آمال جديدة لعالم متغير
٦ – السلطة والفرد
٧ – المعرفة الانسانية مرماهـا وحدودها
٨ – تاريخ الفلسفة الغربية
٩ – قواعد الرياضيات
١٠ – مدخل الى فلسفة الرياضيات
١١ – تحليل العقل
١٢ – معرفتنا للعالم الخارجي
١٣ – في مختصر الفلسفة
١٤ – فلسفة ليبنز
١٥ – البحث العلمي في المعنى والحقيقة
١٦ – المنطق والمعرفة
١٧ – المسائل الفلسفية
١٨ – الأصول الرياضية

١٩ — فلسفتي في النشوء والارتقاء
٢٠ — الادراك السليم والحرب النووية
٢١ — لم لست مسيحياً
٢٢ — صور من الذاكرة
٢٣ — مقالات غير شعبية
٢٤ — القوة
٢٥ — في مدح الكسل
٢٦ — مقالات الشك
٢٧ — الصوفية والمنطق
٢٨ — النظرة العلمية
٢٩ — الزواج والاخلاق
٣٠ — التربية والنظام الاجتماعي
٣١ — في التربية
٣٢ — الحرية والنظام ١٨١٤ — ١٩١٤
٣٣ — اعادة البناء الاجتماعي
٣٤ — سبل الحرية
٣٥ — التمرس والنظرية البلشفية
٣٦ — أفاق الحضارة الصناعية (مع دورا رسل)
٣٧ — قاعدة الكتابة عند برتراند رسل (تحرير ليستر.ي.دينون وروبرت.ي.اي
٣٨ — مختارات برتراند رسل(تحرير روبرت . ي. اينير)
٣٩ — الشيطان بجوار المدينة
٤٠ — كابوس الافراد الأماجد

مقدمة

يحتل برتراند رسل الفيلسوف الانكليزي المعاصر مكانة مرموقة لدى الرأي العام العالمي، وهو عضو لجنة المئة، وهي اللجنة التي تكونت في بريطانيا لمقاومة التسلح الذري . وقد اخذت آراء رسل في المدة الاخيرة تنحو منحى انسانياً عاماً شاملاً ، واتخذ من السلاح الذري موضوعاً له وطفق يناشد رؤساء دول العالم للعمل يداً بيد لافناء هذا السلاح الرهيب .

ومنذ جاز رسل الثمانين من عمره أصبح علماً من أعلام الفكر الحديث ولا زال نشاطه العقلي والفكري ملء أسماع العالم . وقد أعار في السنوات الاخيرة بعد الحرب العالمية الثانية دراسة تبيان أثر التقدم العلمي على مستقبل البشرية واتصل في ذلك بأئمة الفكر والعلم في العالم وشهد في صيف سنة ١٩٥٥ مؤتمراً عالمياً في لندن دعا فيه الى نبذ الأسلحة النووية وحذر من خطرها المادي والمعنوي على الانسانية ، واشترك مع اينشتين وغيره من كبار مفكري العالم في كتابة نداء بهذا المعنى بشأن القنابل الذرية والهيدروجينية. وكم من مرة تظاهر هو ولجنة المئة امام وزارة الدفاع البريطانية مطالباً بوقف التسلح الذري والعمل على تحريم اجراء التجارب النووية، ولهذا سجن وشرد وهو في التسعين من العمر.

وليست هذه اول مرة يدخل فيها السجن أو يلاحق . فان حياته مليئة بهذه المظاهر (الانسانية) . فبعيد نشوب الحرب العالمية الاولى كان له نشاط ظاهر في حركة مقاومة التجنيد الاجباري ، وحكم عليه بغرامة قدرها (١٠٠) جنيه لأنه أصدر نشرة ينتقد فيها الحكم على أحد معارضي التجنيد بالسجن سنتين ، وقد بيعت مكتبته للوفاء بهذه الغرامة ، وفصلته كليته من وظيفته كمدرس . وحكم عليه ايضاً في عام ١٩١٨ بالسجن ستة أشهر لنشره مقالاً يحبذ السلم ، وفي فترة سجنه هذه ألف أحد كتبه الهامة .

*

تتسم كتابات برتراند رسل بعمق الموضوع وبالمنحى الانساني العام ، وقد طرق اكثر المواضيع المتصلة بعصرنا ، وأعار الناحية العلمية في كتاباته الشيء الكثير ، وتكفي قراءة قائمة المواضيع التي طرقها في كتبه ومقالاته لتعطي فكرة عما يجول في رأس هذا المفكر الكبير .

ورث في عام ١٩٣١ لقب أيرل ، وهو من الالقاب المرموقة في بريطانيا ، ومنح سنة ١٩٥٠ جائزة نوبل في الادب ، كذلك منح عدة جوائز أدبية من بلاد مختلفة .

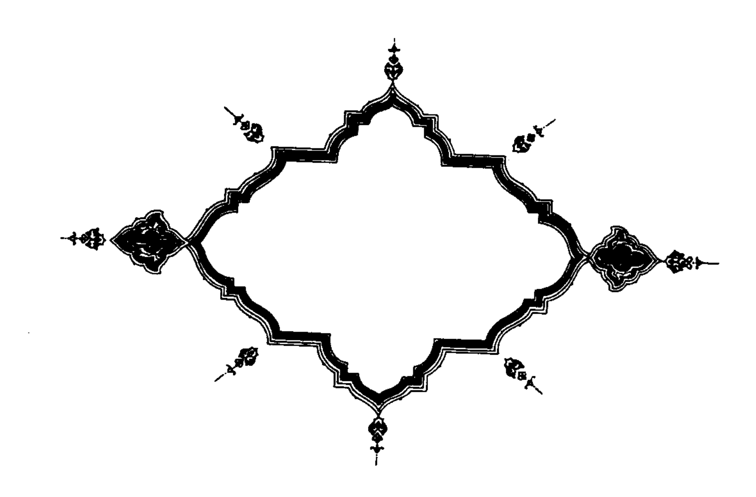
وقد عالج رسل في كتابه (في التربية) الذي بين ايدي القارىء جملة مواضيع تتصل بالتربية، وجاء كتابه جامعاً شاملاً لموضوع من أخطر المواضيع التي تتصل بحياة الفرد ، حتى أن بعض الجامعات فرضت على طلابها دراسة هذا الكتاب .

وقد حرصت أن أنقله الى قراء العربية بترجمة قريبة الى نفس المؤلف ، كما

اني حاولت ما أمكنني ذلك على ان تكون ترجمتي كاملة لموضوع الكتاب دون حذف منه .

وأرجو أن يكون عملي هذا خدمة متواضعة لطلاب المعرفة ولرجال الفكر والمثقفين .

سمير عبده





مقدمة المؤلف

هناك الكثير من الآباء في الدنيا أمثالي ، لهم أولاد صغار يجاهدون لتربيتهم التربية الحسنة ، لكنهم ينفرون من تعريضهم الى سيئات معظم المعاهد التربوية القائمة . والصعوبات التي يلقاها هؤلاء الآباء لا يحلها اي مجهود فردي . فمن الممكن طبعاً ان ينشأ الاطفال في المنزل على أيدي المؤدبات والمؤدبين ، لكن هذا يحرمهم من المخالطة التي يشتهونها بفطرتهم ، مخالطة الأقران التي بدونها لا بد وان تعوز تربيتهم بعض عناصرها الأساسية . بالاضافة الى ذلك ان من شر الامور للولد او البنت ان يشعر انه « غريب » يختلف عن غيره من الاولاد او البنات ، ولو نسبنا هذا الشعور في سببه الى الوالدين كاد يكون من المؤكد ان يثير في النفس حقداً عليهما يؤدي الى كل ما يكرهان ، وهذه الاعتبارات قد تدفع الوالد ذا الضمير الى ان يرسل أولاده وبناته الى مدارس يرى فيها عيوباً خطيرة ، لمجرد انه لا يجد مدارس يرضاها ، او لأن المدارس التي يرضاها ليست على مقربة منه . ومن ثم يضطر بعض ذوي الضمائر من الآباء ان يطالبوا بالاصلاح التربوي لا لمصلحة الجماعة فقط ، بل ايضاً لمصلحة اطفالهم انفسهم . واذا كان الآباء من ذوي الدخل الميسور فليس من الضروري لحل مشكلاتهم الخاصة ان تكون جميع المدارس صالحة ، ولكن من الضروري ان تقوم بعض المدارس الصالحة في مناطق يسهل وصولهم اليها . اما الآباء الذين يكسبون عيشهم بالكد وعرق

الجبين فلا يكفي لحلّ مشكلتهم الا اصلاح المدارس الأولية . ولما كان من المتوقع ان يعترض والد على الاصلاحات التي ينشدها والد آخر فليس هنـــاك ما يؤدي المهمة الا القيام بدعاية تربوية نشيطة، وهذه قد لا تثمر الا بعد ان يكون اطفال طالب الاصلاح قد شبوا وكبروا . وبهذا ننتقل خطوة فخطوة من ميدان محبة اطفالنا الى ميدان أوسع هو ميدان السياسة والفلسفة .

سأحاول في الصفحات التالية ان أبرز هذه النواحي الواسعة قدر المستطاع، ولن يتوقف الجزء الاكبر ممـا أريد ان أقوله على ما قد يكون لدي من رأي في كبريات المسائل الجدلية في عصرنا الحالي . لكن يكاد يكون من المستحيل ايجاد استقلال تام في هذا الصدد ، فالتربية التي ننشدها لأطفالنا لا بد ان تتوقف على مثلنا العليا للخلق الانساني، وعلى الدور الذي نرجو ان يكون لأطفالنا في المجتمع اذا كبروا . فالمؤمن بالسلم لن يبتغي لأولاده نفس التربية التي يستجيدهـا المؤمن بالحرب ، والافكار التربوية للشيوعي لن تكون نفس نظرة القائل بحقوق الفرد . على أن هنالك من الخلاف ما هو أعمق وأشد من هذا: خلاف ما بين الذين يتخذون التربية وسيلة لتلقين عقائد محددة معينة بالذات ، وبين الذين يرون ان التربيـة يجب ان تغرس في المتعلم القدرة على الاستقلال في الحكم . ففي مسائل كهذه مما يتصل بهذه الامور يكون من العته ان يتجنب المرء الخوض فيها . وهنـاك الى جانب هذا طائفة كبيرة من المعلومات الجديدة في علم النفس وفن التربية مستقلة عن تلك المسائل الأساسية ، وذات علاقة وثيقة بالتربية ، وكان لها بالفعل بعض نتائج غاية في الأهمية ، الا انه لا يزال علينا ان نقوم بأمور كثيرة قبل ان نهضم تلك المعلومات ويقدرها النـــاس تقديراً كاملاً . وينطبق هذا بصفة خاصة على السنوات الخمس الاولى من حياة الطفل ، فقد تبين ان لها اهمية تزيد كثيراً على ما كان مقدراً لها فيما مضى ، وهذا يعني زيادة في اهمية الوالدين من الناحية التربوية. ان ما أقصد اليه هو تجنب المشاكل الجدلية ما أمكن ذلك ، والكتـابة الجدلية ضرورية في بعض المجالات ، لكن المرء حين يوجه الخطاب الى الآباء يستطيع ان

يفترض فيهم رغبة صادقة في اسعاد ذريتهم، وهذه وحدها اذا اقترنت بالمعلومات الحديثة التي أشرنا اليها من قبل ، تكفي لأن تجلي عدداً كبيراً من المسائل التربوية. ان ما سأقوله في هذا الكتاب هو نتاج ما ألم بي من حيرة تتلوها حيرة بشأن أولادي، ومن ثم لن يكون كلاماً غريباً او حديثاً نظريا . ولذا أرجو ان يساعد على تنوير الآراء وتوضيح الفكر لدى أمثالي من الآباء الذين واجهوا حيرة شبيهة بحيرتي ، سواء اتفقوا معي فيما وصلت اليه من النتائج او خالفوني . ان آراء الوالدين لعلى جانب عظيم من الأهمية، لأنهم كثيراً ما يكونون ـ لجهلهم بالمعلومات الفنية ـ عبئاً ثقيلاً على خبرة المربين، فاذا رغب الآباء حقاً في تربية أبنائهم تربية جيدة فاني موقن بأننا لن نعدم المعلمين القادرين على تحقيق هذه المهمة عن رغبة.

والخطة التي أنوي السير عليها فيما يلي هي ان أنظر اولاً في اغراض التربية من حيث نوع الفرد ونوع المجتمع اللذين يصح ان نتطلع بحق الى ان تصوغهما لنا التربية من المادة الخام الموجودة في الوقت الحاضر . وسأتجاهل مسألة تحسين السلالة عن طريق علم اصلاح النسل او أية عملية اخرى طبيعية كانت او صناعية، لأن هذا في صميمه لا يدخل في المسائل التربوية .

لكنني أعلق آمالاً كبيرة على الاكتشافات الحديثة في علم النفس التي ترمز في جملتها الى ان خلق الانسان يتكون ويتحدد بالتربية المبكرة الى حد أعظم بكثير مما كان يدور بخلد اكثر المربين تحمساً في الأجيال الماضية . اني أميز بين التربية لتهذيب الخلق والتربية لتحصيل المعرفة التي يصح تسميتها تعليماً بالمعنى الضيق ، وهذا التفريق وان لم يكن نهائياً له فائدته ، فبعض الفضائل مطلوب في الطالب الذي يراد تعليمه ، كما ان كثيراً من المعرفة مطلوب في الشخص الذي يرجى له الفلاح في ممارسة كثير من أمهات الفضائل. ومع ذلك ففي سبيل تحديد المناقشة يصح ان نجعل التعليم منفصلاً تماماً عن تربية الخلق . وسأبدأ بمعالجة التربية الخلقية لما لها من الاهمية الخاصة في السنوات الاولى ، لكني سأتابعها حتى دور المراهقة ، وأعالج المشكلة الهامة مشكلة التربية الجنسية ، وسأبحث في

النهاية التربية العقلية وأناقش أهدافها ومناهجها واحتمالاتها ابتداء من الدروس الاولى في المطالعة والكتابة حتى السنوات النهائية من الدراسة الجامعية . اما التعليم الذي يناله الرجال والنساء في كبرهم من الحياة ومن الدنيا المحيطة بهم فسأعده خارج نطاق بحثي ، لكني مع ذلك أرى من الملائم ان توضع الاهداف نصب العين في بواكير التربية بحيث تجعل الرجال والنساء قادرين على التعلم من تجارب الحياة .



المُثُلُ العُلْيَا التَّرْبَوِيَّة



– ١ –

مُسَلّمات نظريّة التربية الحديثة

عندما يطالع احدنا ما كتب في العصور الماضية عن التربية يشعر ، حتى في خير المؤلفات ، بتغييرات جذرية خاصة قد اعتورت نظرية التربية . كان لوك وروسو الرائدين العظيمين في ميدان التربية النظرية قبل القرن التاسع عشر ، وقد استحق كلاهما الشهرة التي نالاها، لأنهما كليهما نبذا اخطاء كثيرة كانت شائعة حين كتبا ، لكن لم يذهب ايهما في اتجاهه الخاص الى المدى الذي ذهبت اليه الاكثرية العظمى من رجال التربية الحديثة . فكلاهما مثلاً من اهل النزعة التي أدّت الى الحرية والديمقراطية ، ومع ذلك فكلاهما لم يبحث الا في تربية الابن الارستقراطي التي يتفرغ لها مربٍّ يخصها بكل وقته . ومهما يمكن ان يكون لنظام كهذا من نتائج باهرة فلن يعيره احد ممن لهم وجهة نظر حديثة اهتمامه الجدي لأن من العسير حسابياً ان يستأثر كل طفل بوقت معلم خاص ، فهو نظام لا يمكن ان تتبعه الا طبقة محظوظة، ويستحيل وجوده في دنيا يسودها العدل . والرجل الحديث ، وان جاز ان يطلب عملياً ميزات خاصة لأطفاله ، لا تعد المشكلة النظرية محلولة الا اذا وجدت طريقة في التربية يمكن ان تكون ميسورة للجميع ، أو على الأقل لجميع الذين تؤهلهم استعداداتهم للانتفاع بها . ولا اقصد بذلك ان على من هم في بحبوحة ان يتخلوا من الآن عن كل فرص التربية التي لا

تتيسر للجميع في الدنيا الحاضرة ، فلو فعلوا لضحوا بالحضارة في سبيل العدل . انما الذي أعنيه ان نظام التربية الذي يتحتم أن نرمي الى اقامته في المستقبل هو نظام يمنح كل ولد وبنت فرصة لنيل أفضل ما هو موجود . ان النظام المثالي للتربية يجب ان يكون ديمقراطياً وان لم يكن تحقيقه ممكناً في الحال . ويخيل إلي ان الاجماع يكاد ينعقد على التسليم بهذا في الوقت الحاضر ، وبهذا المعنى سأجعل الديمقراطية نصب عيني . فكل ما سأدعو اليه سيكون مما يستطاع تعميمه ، وان كان على الفرد اثناء ذلك ألا يترك أطفاله ضحية للفوضى الشائعة اذا كان عنده من الذكاء ومن الفرصة ما يحصل به على ما هو خير وليس في مؤلفات لوك وروسو حتى هذا الشكل المخفف الرقيق من المبدأ الديمقراطي ، فان روسو وان نبذ الارستقراطيــة لم يكن يدرك ما يترتب على نبذه اياها فيما يتعلق بالتربية .

ومن الأهمية بمكان ان نكون على بيّنة من هذا الامر ، امر الديمقراطية والتربية . ان الاصرار على المساواة التامة التي لا عوج فيها يكون وبالاً ، ذلك لأن بعض الأولاد والبنات أذكى من بعض ، ومن ثم يكونون أقدر على الانتفاع من التعليم العالي ، كذلك بعض المدرسين أفضل من بعض من حيث الاعداد الفني أو الاستعداد الفطري . لكن من المستحيل أن يتعلم كل انسان على يد القلة من صفوة المدرسين حتى على فرض أن حصول جميع الناس على أعلى مراتب التربية أمر مستحب ، وهو ما أشك فيه ، اذ من المستحيل ان يتيسر ذلك للجميع في الوقت الحاضر ، واذاً فقد يؤدي تطبيق قواعد الديمقراطية تطبيقاً غاشماً الى الحكم بحرمان الجميع من تلك التربية الراقية . والأخذ بوجهة نظر كهذه يكون ضربة قاضية على التقدم العلمي ، ويؤدي الى ان يصير مستوى التربية العام بعد مائة سنة منحطاً من غير داع ، وليس ينبغي ان يضحى بالتقدم في الوقت الحاضر في سبيل مساواة عشواء ، وانما الواجب علينا ان نقترب من الديمقراطية في التربية بحذر بقدر الامكان دون القضاء خلال ذلك على ما يكون قد اقترن بالظلم الاجتماعي من نتائج قيمة .

على اننا لا نستطيع ان نركن الى راحة البال في أية طريقة من طرق التربية اذا لم يكن تعميمها مستطاعاً ، فأطفال الاغنياء لهم غالباً بجانب أمهم مربية وخادمة ، ولهم بعد ذلك نصيب من بقية خدم المنزل ، وهذا يضمن مقداراً من العناية لا يمكن قط أن يؤتاه جميع الأطفال في أي نظام اجتماعي .

وبعد ، فهل الأطفال الذين يعنى بهم تلك العناية البالغة ينتفعون حقاً من جعلهم عالة على غيرهم من غير ضرورة ؟ ذلك موضع شك كبير ، وعلى أي حال فليس هناك منصف يستطيع أن ينصح بأن يمنح نفر قليل ميزات خاصة الا لأسباب خاصة، كضعف عقل أو عبقرية . والمتوقع في أيامنا هذه من الوالد العاقل، اذا استطاع أن يختار ليتعلم أولاده طريقة ليست عامة . ومن المستحب – من باب التجربة – أن تتاح للآباء فرصة تجريب طرق جديدة على شرط أن تكون هذه الطرق مما يمكن تعميمه اذا حسنت نتائجها ، لا أن تكون بطبيعتها مقصورة لا محالة على قليلين متميزين . ومن دواعي الغبطة أن بعضاً من خيرة عناصر التربية الحديثة ، النظرية والعملية ، قد جاء من مصدر عريق في الديمقراطية ، فأعمال مدام منتسوري مثلاً بدأت في مدارس الحضانة بأحياء الفقراء المدقع . وفي التعليم العالي لا مناص من اعطاء فرصة استثنائية لكل ذي قدرة استثنائية . أما فيما عدا ذلك فلا سبب يدعو لأن يكون في تطبيق النظم التي يصح تعميمها بين الجميع ضرر بأي طفل .

ويوجد في التربية اتجاه آخر حديث مرتبط بالديمقراطية لكن لعله أكثر مثاراً للجدل ، واعني به الميل الى حقل التربية الذي هو أقرب الى النفعية منه الى الزخرفية . وقد استقصى فبلن كتابه (نظرية أهل الفراغ)[1] من علاقة ما بين الزخرفي وبين الارستقراطية ، لكن الذي يعنينا من هذه العلاقة هو ناحيتها التربوية . أما في تربية الذكور فالأمر مرتبط بالمفاضلة الجدلية بين التربية القديمة

---

(١) لندن : جورج آلن وانوين ليمتد .

والتربية الحديثة ، وأما في تربية البنات فهو جزء من المشادة بين تربية البنت لتكون (سيدة) وبين الرغبة في اعدادها لكسب عيشها . لكن شكل التربية كلها قد التوى فيما يتعلق بالنساء واعوج بسبب الرغبة في المساواة بالرجال ، فقد كانت منهن محاولة لتحصل البنات على نفس التربية التي يتلقاها البنون حتى ما لم يكن منها طيباً في حد ذاته ، وكانت نتيجة ذلك أن قصد المشتغلات بالتربية الى اعطاء تلميذاتهن معلومات (عديمة النفع) كالتي تعطى لنظرائهن من البنين ، وخاصمن الرأي القائل بأن جزءاً من تربية الأنثى ينبغي أن يكون اعدادها فنياً للامومة . هذه التيارات المتعارضة تجعل النزعة التي أنا بصدد بحثها أقل تحديداً من بعض النواحي فيما يختص بالنساء ، وان كان من أظهر الأمثلة لتلك النزعة تداعي نموذج (السيدة الأنيقة) كمثل أعلى لتربية البنات . ولكي أتجنب اللبس سأقصر بحثي الآن على تربية الذكور .

كثير من الموضوعات الجدلية المنفصلة التي يؤدي كل منها الى غيره متوقف في بعض نواحيه على مسألة النفعي والزخرفي : هل ينبغي أن يكون ما يتعلمه الطلاب عماده الآداب القديمة أو عماده العلوم ؟ في هـــذا اعتبارات مختلفة ، أحدها أن الآداب القديمة زخرفية والعلوم نفعية . هل ينبغي أن تصبح التربية بأسرع ما يمكن تعليماً فنياً يعد لتجارة أو حرفة ؟ هل ينبغي أن يتعلم الأولاد كيف ينطقون ويفصحون وكيف يتحلون بالآداب المستظرفة ، أم هذه مجرد آثار تخلفت عن الارستقراطية ؟ هل تقدير الفن أمر له قيمة لغير الفنان ؟ هـل ينبغي أن يكون التهجي تابعاً للمنطق ؟ كل هذه الجدليات وكثير غيرها تستمد بعض الحجج فيها من الحوار الأصلي بين أنصار النفعية وأنصار الزخرفية .

إني اعتقد ان الجدل بأسره صوري يتلاشى بمجرد تعريف الألفاظ ، فاذا توسعنا في تفسير (النافع) وضيقنا من تفسير (الزخرفي) كسب فريق ، واذا عكسنا الأمر كسب الفريق الآخر . فبأوسع معاني النفع وأصحها يكون العمل (نافعاً) اذا أعقبته نتائج حسنة — وهذه النتائج يجب أن تكون (حسنة) بمعنى

آخر غير مجرد (النفع) والا لم نحصل على تعريف صحيح . فنحن لا نستطيع أن نقول ان العمل النافع هو ما كانت له نتائج نافعة . ان لب ما هو (نافع)هو أن يوصل الى نتيجة لا تقف عند حد النفع ، فأحياناً نحتاج الى سلسلة طويلة من النتائج قبل الوصول الى النتيجة النهائية التي يصح أن تسمى حسنة . فالمحراث نافع يشق الأرض ، لكن شق الأرض في ذاته ليس حسناً ، وانما هو نافع بدوره لأنه يمكن من بذر الحب ، وهذا نافع لأنه ينتج القمح ، وانتاج القمح نافع لأنه ينتج الخبز ، وهذا نافع لأنه ينتج الخبز ، وهذا نافع لأنه يحفظ الحياة ، لكن الحياة يجب ان تكون لها قيمة ذاتية . فالحياة تكون تارة حسنة وتارة سيئة تبعاً للظروف ، ولذا قد تكون أيضاً نافعة اذا كانت وسيلة الى حياة طيبة . فلا بد لنا أن نتجاوز سلسلة المنافع المتعاقبة ، الى حيث نجد مرتكزاً نعلق منه السلسلة ، والا لما كان لأية حلقة من حلقاتها نفع حقيقي . فاذا عرف (النافع) على هذا الوجه فلن يكون هناك محل للتساؤل : هل ينبغي أن تكون التربية نافعة ؟ طبعاً ينبغي ، لأن عملية التربية وسيلة الى غاية لا غاية في ذاتها ، لكن هذا ليس بالضبط الذي في بال المدافعين عن النفعية في التربية فان ما يحتجون عليه هو أن تكون نتيجة التربية نافعة . وبغير تلطف في التعبير انهم يريدون ان يقولوا ان الرجل المربي هو الذي يعرف كيف يصنع الآلات ، فاذا سألنا عن فائدة الآلات كان الجواب في النهاية أنها تنتج حاجات الجسم ووسائل راحته - الغذاء والكساء والبيوت الخ . وهكذا نجد ان المدافع عن النفعية بمعناها المعترض عليه هو رجل لا يجعل قيمة ذاتية الا لما يرضي الحس ، (فالنافع) عنده هو الذي يعين على سد حاجات البدن وارضاء رغائبه . فعندما يكون هذا هو المقصود يكون المدافع عن النفعية غير مصيب بلا ريب .اذا كان جاعلاً من مذهبه فلسفة غائية ، وان جاز ان يكون على صواب كسياسي في دنيا تزخر بالجائعين لأن سد حاجات البدن ربما كان عندئذ ألزم من كل ما عداه .

ومثل هذا التصوير ضروري عند النظر في الجانب الآخر من هذا الجدل . وتسمية الجانب الآخر (زخرفياً) هو بالطبع تسليم للمدافع عن النفعية ببعض

دعواه ، اذ المفهوم ان (الزخرف) تافه الى حد ما ، لكن الوصف (زخرفي) في محله تماماً اذا أطلق على الصورة التقليدية (للسيدالمحترم) او (السيدة) فسيد القرن الثامن عشر كان يتكلم بنبرات منتقاة ويتمثل بالأدبالقديم في المناسبات، ويلبس على الطراز ، ويفهم قواعد السلوك ، ويعرف متى تكون المبارزة مما يزيده شهرة ، وهناك يكون الإنسان في اغتصاب المغلق الذي كان :

لا جدوى من علبـة السعوط الكهرمان
والقيادة الدقيقـــة بين ضباب القصب

فالمثل الأعلى للتربية الزخرفية بالمعنى القديم أرستقراطي يفترض طبقـة من الناس عندها مال كثير ولا حاجة بها الى العمل. ان السادة الأنيقين او السيدات الأنيقات مما يلذ تأمله في التاريخ ، فمذكراتهم وبيوتهم الريفية تثير فينا نوعاً من السرور لم نعد نهيئه نحن لذريتنا ، لكن محاسنهم حتى عند صدقها لم تكن بالغـة الذروة ، وقد كانوا نتاجاً غالياً غلواً فاحشاً . فليس هناك في عصرنا هـذا من يدعو الى تربية زخرفية بهذا المعنى الضيق

على ان هذا ليس بيت المراد اذ موضوع الخلاف الحقيقي هو : هـل علينا في التربية ان نرمي الى حشو العقل بمعرفة لها فائدة عملية مباشرة ، او علينا أن نحاول تزويدتلاميذنا بهبات عقليةصالحة في ذاتها ؟ ان من الخير ان يعرفالانسان ان في القدم اثنتي عشرة بوصة وفي الياردة ثلاثة اقدام ، لكن هذه المعرفة ليس لها قيمة ذاتية ولا نفع لها قط عندالذين يعيشون حيث تستخدم المقاييسالمترية، ومن الناحية الاخرى نجـــد ان تذوق هملت لن يكون له كبير فائدة فيالحياة العملية ، لكنه يهب الرجل هبة عقلية يؤسفه ان يحرم منها ، ويجعله في بعض النواحي انساناً أكمل . فهذا النوع الأخير من المعرفة هو ما يؤثره الرجل الذي يحتج بأن النفعية ليست المرمى الوحيد من التربية .

ان هناك على ما يبدو ثلاثة خلافات اساسية داخلة في المناظرة بين المدافعين

عن التربية النفعية وخصومهم . فهناك أولا مناظرة بـــين الارستقراطيين والديمقراطيـــين ، اذ يقول الأولون بأن الطبقة الممتازة ينبغي أن تعلم كيف تستخدم فراغها فيما ترتاح اليه ، وان الطبقة المسودة ينبغي ان تعلم كيف تستخدم كدها فيما ينفع الآخرين . ومعارضة الديمقراطيين لوجهة النظر هذه يشوبها شيء من الاضطراب ، فانهم يكرهون ان يتعلم الارستقراطيون ما ليس بنافـــع ، ويحتجون في نفس الوقت بأن تربية الراكض وراء لقمة العيش يجب ألا تقتصر على ما هو نافع ، وبذلك نجد معارضة ديمقراطية للتربية القديمة التقليدية بالمدارس العامة ، مع مطالبة ديمقراطية بأن العمال ينبغي ان تتاح لهم فرص لتعلم اللاتينية واليونانية . هذه الوجهة صحيحة عملياً في الجملة وان كان فيها بعض غموض من الناحيـة النظرية ، فالديمقراطي لا يود تقسيم المجتمع الى قسمين أحدهما نافـع والآخر زخرفي ، ولذا يستزيد من المعرفة النافعة الصرفة للطبقات الـتي كانت الى الآن زخرفية صرفة ، ومن المعرفة الممتعة الصرفة للطبقات التي كانت الى الآن نافعة صرفة ، لكن الديمقراطية لا تقرر بطبيعتها النسب الـتي بها ينبغي مزج هذه العناصر .

والنقطة الثانية من الخلاف واقعة بين الساعين وراء المنـــافع المادية وبين الراغبين في المتع العقلية . فأغلبية الموسرين المحدثين من الانجليز والامريكيين لو نقلوا بطريقة سحرية الى عصر اليصابات لتمنوا العودة الى العالم الحديث . ان الاجتماع بشكسبير ورالي والسير فيليب سيدني ، والموسيقى الممتازة وجمـــال العمارة ، كل ذلك لن يعزيهم عن الحرمان من الحمامات ، ومن الشاي والقهوة ، ومن السيارات وغيرها من اسباب الراحة التي كان يجهلها عصر اليصابات. فمثل هؤلاء ينزع رأيهم – الا الى الحد الذي يتأثرون فيه بالتقاليد المحافظة – الى ان الغرض الاساسي من التربية هو تكثير ما تنتجه الصناعة وتنويعه. قد يدرجون في ذلك الطب وعلم الصحة ، لكنهم لن يشعروا بأي تحمس للأدب او الفن او الفلسفة ، ولا نزاع في ان امثال هؤلاء كان لهم ضلع كبير في القوة المحركة للحملة التي ثارت ضد منهج الآداب القديمة الذي أسس في عصر النهضة .

ولا أخال من الانصاف معارضة هذه الوجهة بمجرد قولنا ان العقلي من الطيبات أعظم قيمة من الحسي الصرف . اني اعتقد ان هذا القول حق لكنه ليس كل الحق، فانه وان لم تكن للطيبات الحسية قيمة رفيعة فان السيئات الحسية قد تكون من السوء بحيث ترجح كفتها على كثير من التفوق العقلي . ان الجوع والمرض والخوف المستمر منها قد خيم على حياة الاغلبية الساحقة من البشر منذ صار في امكانهم توقع العواقب ، فمعظم الطيور تموت من الجوع ، لكنها تكون سعيدة حين تجد وفرة من الطعام لأنها لا تفكر في المستقبل ، لكن الفلاحين الذين ينجون من القحط يظلون على الدوام تساورهم الذكرى والوجل.

ان الشعب يرضى بالكد ساعات طويلة من أجل أجر تافه اتقاء للموت، بينا تفضل الحيوانات اقتناص السرور كلما تيسر حتى ولو كان عاقبته الموت ، وهكذا انتهى الامر الى ان معظم الناس صاروا يحتملون الحياة ولو كادت تخلو من السرور ، لأن الحياة بغير ذلك تكون قصيرة . ولأول مرة في التاريخ اصبح في الاستطاعة الآن بفضل الثورة الصناعية ومنتجاتها ان تخلق دنيا يجد كل فرد فيها فرصة معقولة للسعادة ، فمن الممكن اذا أردنا ان نقلل الشرور الحسية الى نسبة ضئيلة . من الممكن بالتنظيم والعلم ان نؤوي سكان الدنيا كلهم ونطعمهم ، لا اترافاً ولكن كفافاً يحول دون البؤس ، ومن الممكن مكافحة المرض وجعل السقم المزمن نادراً جداً ، ومن الممكن منع تكاثر السكان من ان يطغى على التحسينات في التموين . ان المخاوف العظيمة التي أظلم بها العقل الباطن للجنس البشري وجرت في أذيالها القسوة والظلم والحرب ، اصبح من المستطاع تخفيفها الى حد يفقدها أهميتها . وكل هذا قد عظمت قيمته للحياة البشرية عظماً لا نجرؤ معه ان نعارض التربية التي من شأنها تحقيقه . ولا مناص من ان تكون العلوم التطبيقية العنصر الاساسي في مثل هذه التربية ، فبدون الطبيعة وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس لا نستطيع بناء العالم الجديد ، لكننا نستطيع بناءه بدون اللاتينية واليونانية، وبدون دانتي وشكسبير، وبدون باخ وموزارت. تلك هي الحجة العظمى للتربية النفعية ، قد عبرت عنها بقوة لأني أحسها بقوة.

ومع ذلك فللمسألة جانب آخر : اذ ما فائدة الظفر بالفراغ والصحة اذا غفل الناس عن احسان استخدامها ؟ ان الحرب التي تثار على الشرور الحسية يجب ككل حرب اخرى ألا تدار بعنف يجعل الناس عاجزين عن ممارسة فنون السلم. ان ما تملكه الدنيا من خير مطلق يجب ان يصان عن ان يندثر ابان الجهاد ضد الموبقات .

وهذا ما يفضي الى النقطة الثالثة في الخلاف الداخل في هذا الجدل : هل صحيح ان المعرفة العديمة النفع هي وحدها ذات القيمة الذاتية ؟ هل صحيح ان أية معرفة ذات قيمة ذاتية عديمة النفع ؟ اما عن نفسي فقد قضيت في درس اللاتينية واليونانية في شبابي جزءاً كبيراً من وقتي أعتبره الآن وقتاً ضاع كله تقريباً سدى ، فمعرفة الآداب القديمة لم تساعدني أقل مساعدة في حل مشكلة من المشاكل التي جابهتني فيما استقبلت من حياتي ، ولم أستطع ان أحذق الآداب القديمة الى الحد الذي يمكنني من مطالعتها للمتعة والسرور. وشأني في ذلك شأن ٩٩٪ من الذين يدرسونها . وقد تعلمت منها أشياء لم أستطع ان أنساها لا تربو قيمتها الذاتية على قيمة معرفة ان الياردة ثلاثة أقدام. اما ما تعلمته من الرياضيات والعلوم فلم يكن ذا نفع كبير فحسب ، بل كان ايضاً ذا قيمة ذاتية عظيمة اذ أمدني بموضوعات للتفكير والتأمل ، وبدليل أميز به الحق في دنيا خداعة . وهذا بالطبع يتعلق بمزاجي الى حد ما ، لكني على يقين من أن المقدرة على الانتفاع بالآداب القديمة أمر مزاجي وهو أندر وجوداً بين الحديثين من الرجال . ان لفرنسا وألمانيا أدبهما القديم ، ولغتاهما سهلتا التعلم نافعتان في نواح عملية كثيرة ، فقضية تعليم الالمانية والفرنسية هي غاية الرجحان على قضية اللاتينية واليونانية . فبغير تقليل من أهمية المعرفة التي ليس لها نفع عملي مباشر نستطيع اذاً فيما أرى أن نطالب بأن مثل هذه المعرفة يجب أن تعطى بطرق لا تتطلب انفاق وقت طويل وطاقة عظيمة في تعلم جانبها الآلي مثل النحو ، اللهم الا للمتخصصين . ان مجموع المعارف الانسانية وتعقد المشاكل البشرية في ازدياد مستمر ، ومن ثم يتحتم على كل جيل أن ينقح طرائقه في التربية اذا شاء أن يدبر

الوقت لما هو جديد. يجب ان نحافظ على التوازن بالتوفيق الممكن بين المتناقضات. ان العناصر الادبية في التربية يجب أن تبقى ، لكنها يجب أن تبسط الى الحـد الذي يفسح مجالا للعناصر الاخرى التي بدونها لا يمكن ابداً ايجاد العالم الحديث الذي أصبح ايجاده ممكناً بفضل العلم .

ولا أريد أن ألقي في روع القارىء ان عناصر الفن والادب في التربية أقل أهمية من العناصر النفعية ، ان معرفة شيء من الادب الراقي وشيء من الموسيقى والتصوير وفن العمارة لا غنى عنها اذا أردنا أن ننمي حياة الخيال الى أقصى حد ، وعن طريق الخيال وحده يستطيع الانسان ان يتصور ما يمكن ان تكون عليه الدنيا ، وبدونه يصبح (التقدم) آلياً تافهاً . لكن العلم أيضاً يستطيع أن ينبه الخيال ، فالفلك وعلم طبقات الارض قد نفعاني من هذه الناحية حين كنت صبياً اكثر من الآداب الانجليزية والفرنسية والالمانية التي قرأت معظم روائعها مرغماً وبغير أدنى اهتمام . على ان هذه مسألة شخصية ، فمن الاولاد او البنات من ينبه خياله بعض مصادر المعرفة ومنهم من ينبهه بعض آخر . ان الذي أريد ان أبديه هو أن المادة التي لا بد الحذق فيها من اسلوب خاص صعب يحسن ان تكون مادة نافعة ، الا عند اعداد الاخصائيين . وفي عصر النهضـة كان أدب اللغات الحديثة العالي قليلا ، اما الآن فهو كثير ، وان من المستطاع ان نطلـع الناس الذين لا يعرفون اليونانية على قيمة كثير من التقاليد اليونانية ، أما التقاليد اللاتينية فليست في الحقيقة عظيمة القيمة . لذلك أرى أنه ، ما لم توجد عنـد الاولاد او البنات ميول خـاصة ، ينبغي ان نسلك الى امدادهم بعناصر الفن والادب في التربية طرقاً لا تستلزم جهازاً تعليمياً كبيراً . أما الجزء الصعب من التعليم في السنوات الاخيرة فينبغي على الاجمال ان نقصره على الرياضيات والعلوم ، لكن ينبغي أن يستثنى من ذلك كل من له ميل قوي أو موهبة في اتجاه آخر . ان القواعد الحديدية يجب إزالتها قبل كل شيء .

استعرضنا لهذه النقطة في أي نوع من المعرفة ينبغي تعليمه ، والآن أنتقـل

الى مجموعة اخرى من المشاكل يتصل بعضهابطرق التعليم وبعضها بالتربية الخلقية، وهنا ننتقل عن السياسيات الى علم النفس وعلم الأخلاق . كان علم النفس الى عهد قريب مجرد دراسة نظرية تطبيقاتها في الحياة العملية قليلة جداً ، لكن هذا كله تغير الآن . فعندنا مثلاً علم النفس المتصل بالصناعة ، وعلم النفس المتصل بالعلاج ، وعلم النفس المتصل بالتربية ، وجميعها على عظم أهمية من الناحية العملية . ولنا أن نرجو ونتوقع في المستقبل القريب ان يزداد سريعاً أثر علم النفس في مؤسساتنا وقد بدأت بالفعل آثاره تزداد عظماً ونفعاً في التربية على أي حال .

ولنتناول أولاً مسألة (التأديب) . كانت فكرة التأديب القديمة بسيطة. كان الطفل او الصبي يؤمر بتأدية شيء يكرهه او بالامتناع عن شيء يحبه ، فاذا عصى عوقب في بدنه أو كان في الاحوال الخطيرة يحبس وحيداً على الخبز والماء . اقرأ مثلاً في كتاب (أسرة فيرتشايلد) الفصل الذي يشرح كيف تعلم هنري الصغير اللاتينية ، اذ قيل له ان لا أمل في أن يصير قسيساً الا اذا تعلم تلك اللغة ، وعلى الرغم من هذه الحجة لم ُيقبل هنري الصغير على كتابه الاقبال الذي كان يبتغيه أبوه ، فسجن ولم يعط إلا الخبز والماء ، ومنع من مخاطبة شقيقاته اللائي أُفهمن انه قد ارتكب ما يشينه ، وان عليهن ان يقطعن كل صلة به ، ومع ذلك حملت اليه احداهن بعض الطعام فنمّ بها أحد الخدم فنالها الاذى ايضاً . ويحدثنا الكتاب ان الصبي بعد ان قضى في السجن فترة من الزمن أخذ يحب اللاتينية وأكب بعد ذلك على دراستها . قارن هذه القصة بقصة تشيهوف عن عمه الذي حاول ان يعلم قطة صغيرة صيد الفيران فأحضر فأراً صغيراً الى الغرفة التي بها القطة ، ولم تكن غريزة الصيد قد نمت بعد فيها فلم تلتفت اليه ، فضربها عمه ، وكرر العملية في اليوم التالي ثم كررها وكررها ، وأخيراً اقتنع الاستاذ بأنها قطة بليدة غير قابلة للتعلم ، وظلت هذه القطة في كبرها ترتاع وتفر كلما رأت فأراً على الرغم من انها كانت عادية فيما عدا ذلك . وختم تشيهوف قصته هذه بقوله :

ولقد كان لي كالقطة شرف تعلم اللاتينية على يد عمي .

فهاتان القصتان توضحان التأديب القديم والثورة ضده .

على أن المربي الحديث لا ينفر من التأديب ولا يتجنبه وإنما يسعى لتحقيقه بطرق جديدة، والذين لم يدرسوا هذه الطرق عرضة لتكوين آراء خاطئة عنها. لقد كنت دائماً أعتقد أن مدام منتسوري استغنت عن التأديب، وكنت أعجب في نفسي كيف تسيطر على ملء غرفة من الاطفال ، ولكني عندما طالعت ما كتبته هي بنفسها عن طريقتها تبينت أن التأديب لا يزال ذا مكانة عندها ، وأنها لم تحاول الاستغناء عنه ، وعندما بعثت بابني الصغير الذي عمره ثلاث سنوات ليقضي نهاراً كاملاً في مدرسة من المدارس المنتسورية لم ألبث أن وجدته قد صار بسرعة أكثر تأدباً من قبل،وانه كان ينصاع في غبطة للقواعد المدرسية دون أقل شعور منه بقسر . كانت القواعد المدرسية عنده كقواعد اللعب : تطاع كوسيلة للاستمتاع . كانت الفكرة القديمة : ان الاطفال لا يمكن ان يرغبوا في التعلم ، وانهم إنما يُحملون عليه بالتخويف ، وقد تبين ان ذلك مرجعه الى انعدام المهارة في سياسة الاطفال ليس غير . فاذا قسم ما يجب تعلمه كالقراءة والكتابة مثلا الى مراحل ملائمة أمكن ان نجعل كل مرحلة محببة الى الطفل المتوسط ، وعندما يكون الاطفال يفعلون ما يحبون لا يكون هناك بالطبع داع الى فرض نظام عليهم . ان قواعد بسيطة قليلة مثل : ممنوع تدخل طفل في عمل طفل آخر – ممنوع ان يأخذ طفل اكثر من جهاز واحد . وبهذه الطريقة يكتسب الطفل تأديب النفس الذي يتكون بعضه من تكوين العادات الصالحة وبعضه من ادراك الطفل عن طريق الامثلة المحسوسة انه قد يكون أجدى عليه، في بعض الاحيان ان يقاوم احدى نزعاته كي ينال ربحاً ما في النهاية. وكل انسان يعرف من قديم ان من السهل الوصول الى تأديب النفس في الالعاب ، لكن لم يخطر ببال احد ان تحصيل المعرفة يمكن ان يجعل ذا جاذبية كافية لتحريك نفس البواعث في الانسان .

اننا الآن نعرف ان هذا ممكن وانه سيتحقق ، لا في تربية صغار الاطفال وحسب ولكن في جميع المراحل . ولست أدّعي ان ذلك سهل، فالاكتشافات في فن التربية المنتفع بها في ذلك احتاجت في كشفها الى عبقرية ، لكن المعلمين الذين يعهد اليهم تطبيقها لا يحتاجون في ذلك الى عبقرية ، فكل ما يحتاجون اليه هو الاعداد الملائم مع حظ من العطف والصبر ميسور ، والفكرة الاساسية بسيطة ، ان التأديب الصحيح يقوم لا على القسر الخارجي ولكن على عادات عقلية تؤدي من نفسها الى المستحب، لا الى غير المستحب من النشاط. والمدهش هو النجاح الباهر في ايجاد طرق فنية في التربية تمثل هذه الفكرة ، ومن اجل هذا تستحق مدام منتسوري اعظم الثناء والتقدير .

لقد كان لفكرة اضمحلال عقيدة (الخطيئة الأصلية) اثر عظيم في التغيير الذي طرأ على طرق التربية . كانت الفكرة التقليدية التي يكاد يعفي عليها الدهر اننا جميعاً نولد (سيئين) مفطورين على الشر ، وان علينا قبل ان نصلح لأي خير أن نتحول الى (اطفال الرحمة والعفو) وهو تحول يساعد على التعجيل به الضرب المتكرر . ولا يكاد معظم المحدثين يصدق الى اي حد أثرت هذه النظرية في تعليم آبائنا وأجدادنا ، ولكن خطأهم يتبين من اقتباسين نقتبسهما من حياة (الدكتور أرنولد) للقس ستانلي. والقس ستانلي كان أحب تلاميذ الدكتور أرنولد اليه ، وهو الولد الطيب أرثر في كتاب (ايام توم براون المدرسية) وكان ايضاً ابن عم مؤلف هذا الكتاب زار معه كنيسة وستمنستر وهو صبي. والدكتور ارنولد هو المصلح العظيم لمدارسنا العامة التي تعتبر بحق احدى مفاخر انكلترا ، والتي لا تزال تدار الى حد كبير طبقاً لتعاليمه ومبادئه . فنحن حين نتحدث عن الدكتور ارنولد لسنا نتكلم عن شيء يتصل بالماضي البعيد ، ولكن عن شخصية لها الى يومنا هذا اثر فعال في صوغ الطبقة الراقية من الانكليز . وقد قلل الدكتور ارنولد من عقوبة الضرب ، واحتفظ بها للأولاد الصغار وحدهم ، وقصرها كما يروي لنا كاتب تاريخ حياته على (الذنوب الخلقية كالكذب

وشرب الخمر واعتياد الكسل) لكن حين قالت احدى صحف الأحرار ان الضرب عقوبة مزرية يجب إلغاؤها تماماً ، غضب مندهشاً ونشر البيان التالي :

> اني على يقين تام من هذا الشعور الذي يعبر عنه القول ، فهو شعور ينشأ عن تلك الفكرة المستكبرة فكرة الاستقلال الشخصي ، التي هي لا معقولة ولا مسيحية ، وانما هي في صميمها همجية جلبت على اوربا جميع مصائب عصر الفروسية ، وهي تهددنا الآن بمصائب اليعقوبية . ففي العصر الذي يكاد يستحيل فيه العثور على ما تقتضيه الرجولة من شعور بأن الاجرام يزري والعيوب تزري ، اين هي الحكمة في إيهام الناس ان من المزري تصحيح الأخطاء بالعقاب المدني ؟ اي شيء أدخل في الباطل والكذب من هذا وأشد مضادة للبساطة والاستقامة والتواضع العقلي ، التي هي لعمري خير ما يزين الشباب ، وخير ما يبشر برجولة طاهرة ؟

فليس بمستغرب أن يؤمن التلاميذ اتباع الدكتور ارنولد بصواب ضرب الأهلين في الهند حين ينقصهم التكامل العقلي .

وتوجد قطعة اخرى اقتبسها بالفعل السيد ستراخي في (الأعلام الفكتوريون) لكنها من المناسبة لما نحن بصدده بحيث لا أستطيع الكف عن الاستشهاد بها . كان الدكتور أرنولد يقضي احدى اجازاته بعيداً يتمتع بجمال بحيرة كومو ، وتتجلى الصورة التي اتخذها هذا التمتع في رسالة بعث بها الى زوجته يقول فيها :

> اني أكاد اشعر بالرعب يتولاني عندما أجول ببصري في الجمال الأخاذ الباهر الذي يحيط بي ثم فكرت في الشر الخلقي ، فكأنما الجنة والنار متجاورتان تماماً بدلاً من ان تفصلهما هوة عظيمة ، بل كأنهما غير بعيدتين من كل واحد منا ، فليت حاسة الشر

الخلقي قوية عندي قوة ابتهاجي بالجمال المشهود ، ففي الشعور العميق بالشر الخلقي ، اكثر من أي شيء آخر ، تكمن معرفة بالله تنجي الانسان ، وليست العبرة الاعجاب بالخير الخلقي ، فاننا قد نفعل ذلك ولا نعمل بمقتضاه ، لكننا اذا كنا حقيقة نمقت الشر لا الأشرار ، نمقت عن يقين وعلم الشر المستقر في الناس. فهذا هو الشعور بالله والمسيح ، وهذا هو تجاوب روحنا مع روح الله . واأسفاه ! ما أبسط ان نرى هذا ونقوله ، وما أصعب ان نفعله ونشعر به ! من ذا الذي هو كفؤ لهذا كله ؟ لا أحد غير الذي يشعر بعجزه عنه ويحزن لذلك حقاً .

ان من المؤسف حقاً أن نرى هذا السيد المهذب الرحيم بطبعه يلهب نفسه الى حال من الحزن والأسف يستطيع معها أن يضرب الصبية الصغار من غير ندم وهو يظن انه يتبع ديانة المحبة. ذلك أمر يرثى له اذا نظرنا اليه من ناحية انخداع أرنولد ، لكنه أمر مؤسف اذا فكرنا فيه من ناحية أجيال القسوة التي أوجدها في الدنيا بخلقه جواً من مقت (الشر الخلقي) الذي يشمل عنده ، كما تتذكر ، اعتبار الكسل في الأطفال . واني لأرتجف حين افكر في الحروب والتعذيبات والمظالم التي جناها اناس وهم يظنون أنهم يحاربون (الشر الخلقي) عن صلاح وتقوى ! ومن رحمة الله أن المربين لم يعودوا يحسبون الأطفال الصغار سواعد الشيطان . نعم لا يزال هناك كثير من هذه النظرة قائماً في معاملة الكبار، لاسيما في عقاب الجرائم ، لكن هذه النظرة قد اختفت تقريباً من دور الحضانة ومن المدرسة .

وهناك غلطة هي عكس غلطة الدكتور ارنولد . وان كانت اقل ضرراً منها بكثير ، لكنها مع ذلك غلطة من الناحية العلمية ، وهي الاعتقاد بأن الأطفال اهل فضيلة بفطرتهم ، وانهم انما يفسدون بمشاهدة رذائل من يكبرونهم سناً . وقد جرى العرف بنسبة هذا الرأي الى روسو ، ولعله كان رأيه نظرياً ، لكن

من يقرأ اميل يجد انه كان بحاجة الى كثير من التربية الخلقيةقبل ان يصير الفرد الفذ الذي كان تخريجه مقصوداً من نظام روسو . الواقع ان الأطفال ليسوا (أخياراً) ولا (أشراراً) بالفطرة ، فهم يولدون وليس فيهم الا بعض غرائز وانعكاسات ، ومن هـــذه تنتج العادات بتأثير البيئة والوسط . والعادات اما صحيحة واما سقيمة ، وايها تكون يتوقف على حكمة الأمهات او المربيات ، ان طبيعة الطفل في اول الامر مطاوعة الى حد لا يكاد يصدق، فالجمهرة العظمى من الأطفال مادة لتكوين المواطن الصالح او لتخريج مجرم ، وقـد اثبت علم النفس ان ضرب الأطفال اثنـاء الاسبوع ووعظهم في ايام الآحاد ليس الوسيلة الفنية المثـــلى لتكوين الفضيلة ، لكن لا يصح ان يستنتج ان لا وسيلة فنية الى تكوينها . ان من الصعب مخالفة صمويل بتلر فيما يراه من ان المربين في الأزمان الخالية كانوا يتلذذون بتعذيب الأطفال ، والا فان من العسير ان نفهم كيف طوعت لهم نفوسهم ان يستمروا طوال ذلك الزمن ينزلون بالأطفال تعاسة لا فائدة فيها . ليس من الصعب ان نجعل الطفل الصحيح سعيداً . ومعظم الأطفال يكونون اصحاء اذا عني بعقولهم واجسامهم كما ينبغي . والسعادة في الطفولة ضرورية لا غنى عنها لتكوين خير انسان ، فاعتياد الكسل الذي يعده الدكتور ارنولد نوعاً من (الشر الخلقي) لن يكون له وجود اذا اشعر الطفل بأن تربيته هي تعليمه شيئاً يستحق ان يعرف [1] . اما اذا كانت المعرفة المراد تعليمها عديمة النفع ، وكان الذين يعلمونها يبدون للطفل ظلمـة قساة ، فمن الطبيعي ان يسلك الطفل مسلك قطة تشيهوف. يجب ان تكون القوة الدافعة في التربية هي الرغبة الذاتية الموجودة عند كل طفل طبيعي كما تدل جهوده في سبيل المشي والكلام . واحلال هـــذه القوة الدافعة محل العصا من أعظم خطوات التقدم التي خطاها عصرنا .

---

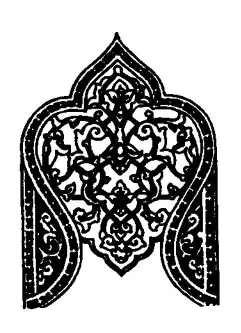
(١) يرجع الدكتور أرنولد عدة احتمالات للقاصرين الذين يعانون من الغداني ، وهناك الانسان غير الانساني الذي يوعز بالضرب والتعذيب ايضاً الذي يسبب التبطل المألوف .

وهذا يؤدي بي الى آخر نقطة أود ان اعرض لها في هذا العرض التمهيدي للاتجاهات الحديثة، أعني تزايد الاهتمام بفترة الرضاعة ، وهذا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتغير الذي طرأ على افكارنا عن تربية الاخلاق ، ان الفكرة القديمة هي ان الفضيلة اساسها الارادة . كان المفروض ان الرغبات السيئة تملؤنا ، واننا نكبحها بملكة مجردة هي الارادة ، وكانوا فيما يظهر يعدون اقتلاع تلك الرغبات السيئة مستحيلاً ، وان كل ما نستطيع عمله هو كبحها . فكان الموقف يشبه تماماً موقف المجرم والشرطة . ولم يزعم احد امكان وجود مجتمع خال من القابلين للاجرام ، وخير ما كان يمكن عمله هو ايجاد شرطة هي من الكفاية بحيث يخشى معظم الناس الوقوع في الجرائم ، اما الشواذ القليلون فيقبض عليهم ويعاقبون . لكن عالم النفس الجنائي الحديث لا يقنع بهذا الرأي، فهو يعتقد بأن النزوع الى الجريمة يمكن في اكثر الاحوال كبحه بواسطة التربية الملائمة. وما ينطبق على المجتمع ينطبق ايضاً على الفرد. فالاطفال على الاخص يودون ان يحبهم رفاقهم ومن هم اكبر منهم على العموم، وتكون فيهم عادة نزعات يمكن ان تنمو في اتجاهات حسنة او سيئة حسب المواقف التي يجدون انفسهم فيها ، وهم فوق ذلك في سن لا يزال تكوين العادات الجديدة فيها سهلاً ، والعادات الطيبة تستطيع ان تجعل جزءاً كبيراً من الفضيلة لا يكاد يكلف مجهوداً . اما نموذج الفضيلة القديم الذي كان يترك الرغبات السيئة تُرعى ويكتفي بكبح مظاهرها باستخدام قوة الارادة فقد وجد انها طريقة غير ناجعة لقهر الخلق السيء . والرغبات السيئة كمياه نهر أقيم عليه سد : تجد مخرجاً آخر فات عين الارادة اليقظى . ان الرجل الذي كان في صباه يود لو قتل أباه يجد راحة وهو كبير في ضرب ابنه تحت ستار انه انما يعاقب فيه (الشر الخلقي) . والنظريات التي تبرر القسوة أصلها في الغالب رغبة ما حولتها الارادة عن مجراها الطبيعي ، وطردتها الى السريرة لتظهر في النهاية متنكرة في زي كره للرذيلة أو شيء محترم مثله. فضبط الرغبات

السيئة عن طريق الارادة ، وان كان ضرورياً في بعض المناسبات ، ليس اذن كافياً من حيث هو لتكوين الفضيلة .

وتدفعنا هذه الاعتبارات الى ميدان التحليل النفسي . اني أجد كثيراً من تفاصيله وهما لا تؤيده أدلة كافية ، لكن يبدو لي ان طريقته العامة مهمة جداً ولا غنى عنها لابتكار الطرق الصحيحة للتربية الخلقية ، كما يبدو لي أيضاً ان الأهمية التي يعلقها كثير من المحللين النفسيين على بواكير عهد الرضاعة مبالغ فيها ، فانهم يتكلمون احياناً كما لو كانت اخلاق الطفل تحددت ورسخت عند بلوغه الثالثة من عمره اني على ثقة من ان هذا لا ينطبق على الواقع ، لكنها غلطة في جانب الحق ، ذلك ان نفسانية عهد الرضاعة كانت فيما مضى مهملة ، بل الواقع ان الطرق التي كانت شائعة بين المفكرين جعلت دراستها مستحيلة . خذ مسألة كالنوم : كل الامهات يرغبنه لأطفالهن لأنه صحي لهم ومريح لهن ، وقد انشأ الامهات لاحداثه فناً خاصاً من هز المهد والاغاني المهدهدة . وكان من نصيب الذكور الذين بحثوا هذه المسألة علمياً ان يكشفوا خطأ اسلوبهن الفني اذا قيس بالمثل الكامل ، لانه وان كان حرياً ان ينجح في اي يوم يجرب فيه ، يخلق في الاطفال عادات سيئة . كل طفل يحب ان يهتم به الجميع ، فذلك يرضي احساسه بأهمية نفسه ، فاذا وجد ان امتناعه عن النوم يضمن الاهتمام به فسرعان ما يتعلم سلوك هذا الطريق ، وتكون النتيجة اضراراً بالصحة والاخلاق على حد سواء. ان الشيء المهم هنا هو تكوين العادة أي الربط والقران بين فراش الطفل وبين نومه ، فاذا تكون قدر كاف من هذا الارتباط والاقتران فان الطفل لن يرقد مستيقظاً الا اذا كان مريضاً او متألماً . لكن ايجاد هذا الارتباط يحتاج الى تدريب ، فلا يمكن تحقيقه بمجرد تدليل الطفل لأن ذلك يقرن بين السرور والسهر في ذهنه . وتنطبق مثل هذه الاعتبارات على تكوين العادات الاخرى ، الحسن منها والسيء . هذه الدراسة كلها لا تزال في مهدها ، لكن اهميتها العظمى قد تبينت بالفعل ، ويكاد يكون محققاً أنها ستزداد . لقد وضح ان تربية الخلق

يجب أن تبدأ منذ الولادة ، وانهـــا تحتاج الى قلب كثير من أساليب المربيات والامهات الجاهلات، كذلك من الواضح أن التعليم المحدد يمكن ان يبدأ في وقت أسبق مما كان يعتقد فيما مضى ، لأن من الممكن أن نجعله سائغاً لا يجهد انتباه الطفل . وقد تعدلت نظريات التربية من هاتين الناحيتين كلتيهما تعديلاً أساسياً في السنوات الاخيرة أدى الى نتائج نافعة ينتظر ان تزداد ظهوراً واتضاحاً على مر السنين . لذلك سأبدأ فـــيما يلي ببحث شبه تفصيلي لتربية الأخلاق في عهد الرضاع قبل أن أتناول بالشرح التعليم المناسب للمراحل التالية .



\- ٢ -

غاية التربية

قبل البحث في كيفية التربية يحسن بنا ان نكون على بينة من نوع النتيجة التي نرمي اليها . كان هدف الدكتور ارنولد (التواضع العقلي) وهو صفة لا تتوفر في (الرجل الكريم) هدف ارسطو . والمثل الاعلى عند نيتشه غيره في المسيحية وغيره عند كانت ، اذ بينما يوصي المسيح بالحب ويأمر به ، يقرر كانت انه ما من فعل مبعثه الحب يمكن ان يكون فاضلاً حقاً . بل ان من لا خلاف بينهم على عناصر الخلق القويم قد يختلفون في اهميتها النسبية ، فمنهم من يؤثر الشجاعة ، ومنهم من يؤثر المعرفة ، وآخر يفضل الرحمة ، وآخر يشيد بالاستقامة ، ومنهم من يضع الواجب نحو الدولة فوق محبة اولي الارحام مثل بروتس الاكبر ، ومنهم من يقدم محبة اولي الارحام مثل كنفوشيوس . وكل هذه الخلافات تنتج عنها اختلافات في التربية . فلا غنى لنا عن ان يكون لدينا تصور ما لنوع الشخص الذي نرمي الى تخريجه قبل ان نستطيع تكوين رأي واضح عن التربية التي نعدها خيراً من غيرها .

طبعاً قد يكون المربي احمق بمعنى انه يصل الى نتائج غير التي كان يرمي اليها ، ان (يوريا هيب) كانت نتاج دروس في التواضع اختلف أثرها تماماً عن

المقصود ، لكن أقدر المربين صادفوا نجاحاً مقبولاً في معظم ما قصدوا . وتجد أمثلة لذلك في الصيني الأديب ، والياباني الحديث ، واليسوعيين ، والدكتور ارنولد ، والذين بيدهم سياسة المدارس العامة بأمريكا ، هؤلاء جميعاً قد نجحوا نجاحاً باهراً في طرائقهم المختلفة . كانت النتـــائج المقصودة في مختلف هذه الحالات متباينة كل التباين ، لكنها تحققت في صميمها . وقد يكون من الخير ان نقضي بضع لحظات في التحدث عن هذه النظم المختلفة قبل ان نحـــاول الوصول الى تحديد الاهداف التي نرى نحن ضرورة جعلها غرضاً للتربية .

كانت التربية الصينية التقليدية كبيرة الشبه من بعض النواحي بنظيرتها في أثينا في أعز ايامها . كان الصبيـــة الأثينيون يحملون على حفظ هومر عن ظهر قلب من أوله الى آخره ، وكذلك كان الصبية الصينيون يحمـــلون على حفظ المأثورات الكونفوشية بنفس العناية والدقة ، وكان الأثينيون يعلمون نوعاً من احترام الآلهة يقوم على المحافظة على المظاهر ولا يضع حاجزاً في طريق النظر الفكري الحر ، وكذلك كان الصينيون يعلمون طقوساً خاصة تتصـل بتقديس الاسلاف من غير ان يجبروا بحال على اعتقاد ما كان منطوياً في تلك الطقوس في الظاهر . وكان التشكك السهل اللبق هو ما كان ينتظر ان يظهر به الصيني المتربي . كان له ان يناقش اي شيء ، لكن الوصول الى نتائج قاطعة كان يعتبر على شيء من الابتـــذال ، وكان من المستحب ان تكون الآراء بحيث تصلح موضوعاً لمناقشة طريفه على الطعام لا موضوع مخاصمة بـين الرجال . وكارليل يسمي أفلاطون (أثينياً مهذباً رفيعاً يبدو في بيت العبادة كأنه في بيته) ، وهذه الصفة المميزة الاخيرة كانت أيضاً عند الحكماء الصينيين ولم يكن لها على العموم وجود عند الحكماء الذين خرجتهم الحضارات المسيحية ، الا اذا كانوا مثل غوتيه قد أشربوا الروح اليونانية . ان الاثينيين والصينيين على السواء كانوا يرغبون في الاستمتاع بالحياة ، وكانت لهم فكرة عن الاستمتاع خلاصتها احساسهم الفائق بالجمال .

على أنه قد كانت هناك فروق عظيمة بين الحضارتين اليونانية والصينية ترجع

الى ان اليونانيين كانوا في الجملة نشيطين ، وان الصينيين كانوا في الجملة كسالى. وقد وقف اليونانيون قدرتهم ونشاطهم على الفـــن والعلوم وابادة بعضهم بعضاً ، واحرزوا في جميع ذلك نجاحاً غـير مسبوق. وقد وجدوا في السياسة والوطنية مصرفاً لطاقتهم . كان السياسي منهم اذا عزل آوى الى التــلال وكتب القصائد في مسرات الحياة الريفية . ومن هذا يتبين ان الحضارة اليونانية دمرت نفسها ، اما الحضارة الصينية فتدميرها لم يكن مستطاعاً الا من الخارج . ويبدو معذلك ان هذه الفروق لا يمكن ان تعزى الى التربية جملة ، لان الكنفوشية في اليابان لم تنتج قط ذلك الشك المثقف الكسول الذي عرف به ادباء الصين ، اللهم الا عند اشراف كيوتا .

ان التربية الصينية انتجت الاستقرار والفن ، وفشلت في انتاج التقدم او العلم . ولعل هذا هو النتيجة المتوقعة لمذهب الشك ، فالمعتقدات عن عقيدة تنتج اما تقدماً واما وبالاً ، ولا تنتج استقراراً . والعلم حتى حين يهاجم المعتقدات التقليدية له معتقداته الخاصة فلا يكاد يزدهر في جـو من ادب الشك ، فالأمم في حاجة الى طاقة تحافظ بها على نفسها في دنيا ميالة الى الخصام قد قربت المخترعات الحديثة بـين اجزائها فوحدتها . وبدون العلم تكون الديمقراطية مستحيلة . فالحضارة الصينية كانت محصورة في النسبة الضئيلة من المتعلمـين ، والحضارة اليونانية قامت على الاستعباد، ولهذه الاسباب كانت التربية الصينية التقليدية غير صالحة للعالم الحديث وقـد استنكف عنها الصينيون انفسهم ، وللأسباب نفسها اصبح من المستحيل وجود طراز القرن الثامن عشر من السادة المثقفين الذين كانوا يشبهون من بعض النواحي ادباء الصين .

واليابان الحديثة اظهر مثل يوضح النزعة التي تغلب على جميع الدول العظمى ، نزعة جعل العظمة الوطنية الهدف الأسمى للتربية . فالتربية اليابانية هدفها تخريج مواطنين مخلصين للدولة عن طريق تربية عواطفهم ، ونافعين لهـــا عن طريق المعارف التي تعلموها . ولا استطيع ان اثني الثناء الكافي على المهارة التي بها سعى

اليـــابانيون وراء هذا الهدف المزدوج ، فمنذ استطاع أسطول الكومادور پري ان يجد طريقاً الى اليابان قد اصبح اليابانيون في مركز صعب عليهم جداً حمـاية انفسهم فيه . وإنا لنجد في نجاحهم مبرراً لطرائقهم الا اذا قلنا بأن حماية النفس قد تكون جريمة . ووجودهم في مركز المستيئس هو وحده الذي يبرر أساليبهم في التربية ، تلك الاساليب لو اتبعتها أية أمة ليست في خطر داهم لعدّ ذلك منها جريمة . ان ديانة الشنتو التي لا يصح ان يتشكك فيها حتى الأساتذة الجامعيون في اليابان لها تاريخ يشك فيه بقدر ما يشك في سفر التكوين، وان محاكمة (ديتن) لتتضاءل حتى تنمحي بجانب التحكم اللاهوتي في اليابان . وهناك في الاخلاق تحكم مثله ، فالوطنية واحترام الآباء وعبادة الميكادو الخ. كلها يجب ألا يشك فيها ياباني، ومن ثم كاد كثير من أنواع التقدم يستحيل هناك. والخطر العظيم في نظام حديدي من هذا النوع هو أنه قد يؤدي الى الثورة باعتبـارها الوسيلة الوحيدة للتقدم ، هذا الخطر حقيقي وان كان غير عاجل ، وهو ناشيء الى حد كبير عن نظام التربية هناك .

ففي اليابان الحديثة اذا عيب هو نقيض عيب الصين القديمة. كان أدباء الصين يسرفون في الشك والكسل ، وحري بخريجي التربية اليـــابانية ان يسرفوا في العقائد والتحمس . وما ينبغي ان تنتج التربية اعتقاداً بأن المعرفة يمكن تحصيلها الى حد ما وان بصعوبة، وان كثيراً مما يعتبره الناس معرفة في عصر قد يكون فيه خطأ قليل او كثير. غير ان هذه الأخطاء يمكن اصلاحها بالعناية والاجتهاد. وفي العمل بمعتقداتنا يجب ان نكون على حذر شديد في المواطن التي تجر فيها الغلطة البسيطة الى كارثة ، ومع كل ذلك فلا مناص من ان تكون معتقداتنا هي أساس أعمالنا ، وهذه حالة للعقل محفوفة بالصعوبة لأنها تتطلب درجة عالية من الثقافة الفكرية خالية من ضمور العاطفة ، لكنها على صعوبتها ليست مستحيلة لأنهـا في الواقع المزاج العلمي . والمعرفة كغيرها من الطيبات صعبة لكنها غير مستحيلة ، فالمسرف في التصديق ينسى صعوبتها ، والمتشكك ينكر امكانها ، فكلاهما على

خطأ وأخطاؤهما حين تذيع وتنتشر تؤدي الى كارثة اجتماعية .

واليسوعيون كاليابانيين الحديثين وقعوا في غلطة اخضاع التربية لمصلحة هيئة هي في هذه الحالة الكنيسة الكاثوليكية ، فلم يكن همهم الاول هو صالح التلميذ ذاته ، ولكن جعله وسيلة الى صالح الكنيسة . واذا قبلنا نظريتهم اللاهوتية فانا لا نستطيع لومهم ، لأن انقاذ الارواح من عذاب جهنم أهم من اي شيء دنيوي صرف ، ولا يحققه عندهم الا الكنيسة الكاثوليكية . اما الذين لا يقبلون نظريتهم فسيحكمون على التربية اليسوعية بنتائجها . نعم كانت هذه النتائج في بعض الاحيان مكروهة مثل يوريا هيب ، وقد كان فولتير من نتائج الأساليب اليسوعية ، لكن النتائج التي قصدوا اليها كانت في الجملة تتحقق بالفعل الى أمد طويل . ولكي يحققوا أغراضهم أخضعوا الفن للعاطفة ، وجعلوا الفكر سطحياً والخلق منحلا ، واحتاجت فرنسا آخر الامر الى الثورة الفرنسية لتتخلص البلاد وتطهرها من شر ما عملوا . اما في التربية فكانت جريمتهم أنهم لم يكونوا يصدرون عن حب لتلاميذهم ولكن عن غايات لهم بعيدة .

اما طريقة الدكتور ارنولد التي ظلت متسلطة على المدارس العامة الانكليزية الى اليوم فقد كان لها عيب آخر هو ارستقراطيتها ، كان هدفها اعداد رجال للوظائف ذات النفوذ والسلطان سواء في انجلترا او في النائي من أجزاء الامبراطورية . ان الارستقراطية اذا أريد لها البقاء تحتاج فضائل معينة وهذه كان على المدرسة ان تغرسها في التلميذ . كان المقصود ان يكون المتخرج فيها نشطاً جلداً صحيح البدن ، تتملكه معتقدات معينة ثابتة راسخة ، معايير الاستقامة عنده عالية ، قد اقتنع بأن له في الدنيا رسالة هامة . وقد تحققت تلك النتائج الى حد مدهش ، من أجلها كان يضحي بتقوية الذهن لأن الذهن الناضج قد يحدث الشك ، وكان يضحي بالعطف لأنه قد يتعارض مع حكم الاجناس او الطبقات (المنحطة) وكانت الرحمة تضحى من اجل الصلابة ، والخيال من اجل العزم . ولو كانت الدنيا غير متغيرة لأمكن ان تكون النتيجة ارستقراطية

دائمة لها من المحاسن والمساوىء ما كان لأهل اسبارطا ، لكن الارستقراطية صارت لا تتفق مع العصر ، ولن تطيع الشعوب المغلوبة الحكام بعد الآن مهما أوتوا من الحكمة والفضيلة ، وهذا يدفع الحكام الى القسوة ، والقسوة تشجع الثورة . ان الدنيا الحديثة بمشاكلها المعقدة تزداد على الزمن حاجة الى الذكاء ، وقد ضحى الدكتور ارنولد بالذكاء في سبيل (الفضيلة) . وقد تكون معركة واترلو كسبت في ملاعب ايتن الرياضية ، لكن الامبراطورية البريطانية يخسرها اهلها هناك . ان الدنيا الحديثة تحتاج طراز آخر من الرجال اكثر عطفاً عن خيال ، وأشد مرونة عن فهم ، وأقل اعتقاداً في الشجاعة الغاشمة ، واكثر اعتقاداً في المعرفة الفنية . يجب ان يكون رجل الارادة في المستقبل خادماً لمواطنين أحرار لا حاكماً محسناً الى رعايا معجبين به . فالتقاليد الارستقراطية المتغلغلة في التربية البريطانية الراقية هي آفتها ، وربما كان من المستطاع تخليصها من هذه التقاليد بالتدرج ، وربما تبين ان معاهد التربية العريقة عاجزة عن تكييف نفسها لتتمشى مع العصر ، اما أيها سيكون فلست أجازف فيه برأي.

واذا اخذنا بعين الاعتبار المدارس العامة الامريكية فانها تؤدي بنجاح مهمة لم يحاولها احد قط من قبل على نطاق واسع ، هي تحويل مجموعة من البشر متباينة الى امة متجانسة ، وهذه المهمة يظهر القائمون بها كثيراً من المقدرة ، ثم هي في الجملة من الخير بحيث يستحقون عليها عند الحساب ثناء عظيماً . لكن امريكا كاليابان في مركز خاص ، وما تبرره الظروف الخاصة لا يلزم ان يكون مثلاً أعلى يحتذى في كل مكان وزمان. ان لأمريكا ميزات خاصة ، وصعوبات خاصة ، فمن الميزات مستوى اعلى من الثروة ، وسلامة من خطر الهزيمة في الحرب ، وخلو نسبي من التقاليد المعطلة الموروثة عن العصور الوسطى ، ولقد وجد فيها المهاجرون شعوراً ديمقراطياً شائعاً ، ومرحلة راقية من الفن الصناعي ، وهذان في رأيي هما السببان الرئيسيان اللذان من اجلهما صار جميع المهاجرين تقريباً اكثر اعجاباً بأمريكا منهم بأوطانهم الاصلية . لكن المهاجرين انفسهم يحتفظون عادة بوطنية مزدوجة ، واذا ما قام نزاع اوربي ظلوا ينتصرون بحماسة ، كل

للامة التي جاء منها ، اما ذريتهم فعلى عكس ذلك يفقدون كل ولاء للممالك التي قدم منها آباؤهم، ويصيرون امريكيين وحسب . ويعزى موقف الآباء ذاك الى ما في امريكا من محاسن عامة ، اما موقف الابناء فأكبر واكثر ما يقرره هو التربية المدرسية ، وعمل المدرسة في هذا الصدد هو وحده الذي يهمنا .

وطالما المدرسة تستطيع ان تعتمد على المحاسن الاصلية لأمريكا فهي في غير حاجة الى ان تقرن تعليم الوطنية الامريكية بتلقين معايير زائفة ، لكن المدرسة الامريكية تضطر الى ان تغرس في نفوس التلاميذ احتقاراً لصنوف من التفوق الحقيقي حيثما تجد العالم القديم متفوقاً على العالم الجديد . ان المستوى الفكري في غرب اوربا والمستوى الفني في شرقها هما في الجملة أعلى منهما في امريكا ، والخرافات الدينية في غرب اوربا كله الا اسبانيا والبرتغال اقل منها في امريكا، وفي جميع الممالك الاوربية تقريباً نجد الفرد أقل عرضة منه في امريكا للجري مع القطيع ، فحريته النفسية اعظم حتى عندما تكون حريته السياسية اقل ، فمن هذه الوجوه تأتي المدارس الامريكية العامة بضرر ، وهو ضرر لا مناص منه لتعليم وطنية امريكية بحتة ، ومنشأ الضرر هنا كما في حالة اليابان واليسوعيين هو اعتبار التلاميذ وسيلة الى غاية لا انهم غاية في انفسهم . ان المعلم يجب ان يحب اطفاله اكثر من دولته او من كنيسته والا لم يكن مثلاً اعلى للمعلم .

وفي هذا عندما اصرح ان التلاميذ يجب ان يعتبروا غايات لا وسائل قد يعترض عليَّ بأن كل انسان هو اهم كوسيلة منه كغاية ، فما يكونه الرجل كغاية يندثر عندما يموت ، أما ما ينتجه كوسيلة فيبقى على الدهر . ونحن لا نستطيع ان ننكر هذا ، لكننا نستطيع ان ننكر ما يراد استنتاجه منه . ان أهمية الانسان كوسيلة قد تكون للخير او للشر ، والآثار البعيدة للأعمال الانسانية هي من الشك بحيث ينزع العاقل الى ان يسقطها من حسابه . فاذا تكلمنا بوجه عام قلنا ان الطيبين لهم آثار طيبة والاشرار لهم آثار سيئة، وليس هذا بطبيعة الحال قانوناً ثابتاً من قوانين الفطرة ، فقد يقتل الرجل الشرير طاغية لعلمه ان

هذا الطاغية ينوي معاقبته على جرائم ارتكبها ، وآثار هذا العمل قد تكون طيبة وان كان الفاعل وفعله سيئين . ومع ذلك فالقاعدة الاجمالية العامة هي ان الجماعة من الرجال والنساء الخيرين في ذاتهم ستكون آثارها أفضل من آثار الجماعة المكونة من قوم جهلاء أشرار . وبغض النظر عن مثل هذه الاعتبارات فالأطفال والناشئون يحسون بغريزتهم الفرق بين الذين يودون لهم الخير حقاً والذين يعتبرونهم مجرد خامات تستخدم في تنفيذ خطة ما،فلا الخلق ولا الذكاء يبلغان مبلغهما من النمو الطيب الحر اذا كان العلم ناقص الحب ، والحب الذي من هذا النوع يتكون في صميمه من الشعور بالطفل كغاية في ذاته . ونحن جميعاً عندنا هذا الشعور نحو انفسنا ، فنحن نشتهي الطيبات لأنفسنا من غير ان نطالب اولاً بدليل على ان حصولنا على تلك الطيبات سيكون من ورائه عون على تحقيق غرض عظيم . وكل والد عادي في عطفه يشعر بشيء كهذا نحو أطفاله، فالوالدان يبغيان لأطفالهما النمو والقوة والصحة والنجاح في المدرسة وهلم جرا بنفس الطريقة التي يبغيان بها الخير لنفسيهما . والاهتمام بمثل هذه المسائل لا يقتضي اية محاولة لانكار الذات ، او اي تطبيق لقاعدة من قواعد العدل المجرد . وليست هذه الغريزة الوالدية دائماً مقصورة على اطفال الانسان نفسه لا تعدوهم ، بل انها في صورتها غير المركزة يجب ان توجد في اي انسان يريد ان يكون معلماً جيداً للأولاد والبنات والصغار . وكلما كبر التلاميذ اخذت اهمية هذه الغريزة تقل، لكن الذين يملكونها هم وحدهم الذين يمكن ان يؤمنوا على وضع برامج التربية . اما الذين يعتبرون احد اغراض تربية الذكور تخريج رجال راغبين في ان يقتلوا ويُقتلوا للتافه من الأسباب ، فهؤلاء ينقصهم بداهة ذلك الشعور الوالدي المخفف ، ومع ذلك فهم يسيطرون على التعليم في جميع الاقطار المتمدنة الا الدانمرك والصين .

لكن لا يكفي في المربي ان يحب الصغار اذ من الضروري ايضاً ان يكون عنده ادراك صحيح للسمو في الانسان . ان القطط تعلم صغارها صيد الفيران واللعب بها ، والحربيون يفعلون مثل ذلك بالصغار من بني البشر، فالقطة تحب

صغيرها ولكنها لا تحب الفأر الصغير ، والحربي قد يحب ابنه هو لكنه لا يحب ابناء اعداء بلاده ، حتى اولئك الذين يحبون الناس جميعاً قد يخطئون عن تصور خاطىء للحياة الطيبة ، لذلك سأحاول قبل الاستمرار فيما انا بصدده ان اعطي فكرة عما اعتبره سمواً في الرجال والنساء بقطع النظر عن كونه عملياً او غير عملي ، وعن طريق التربية التي بها يمكن ابرازه للوجود . ان صورة كهذه ستساعدنا فيما بعد حينما نشرع ننظر في تفاصيل التربية ، فسنعرف عندئذ الاتجاه الذي نود ان نسير فيه .

وعلينا ان نميز من اول الامر بين بعض الصفات التي يستحب وجودها في فريق من الناس وبين الصفات التي يستحب وجودها فيهم جميعاً ، فنحن نحتاج رجال فن ولكننا نحتاج ايضاً رجال علم ، ونحن نحتاج اداريين عظماء ، ولكننا نحتاج ايضاً حراثين وطحانين وخبازين . ان الصفات التي تنتج رجلاً سامياً ممتازاً في ناحية خاصة يغلب ان تكون مما قد لا يستحب تعميمه فالعادات التي امتدحها شيلي الشاعر في الابيات التي وصف بها عمله اليومي والتي يقول فيها :

فيراقب من الفجر الى المساء
انعكاس اشعة الشمس على البحيرة
النحل الاصفر يتغلغل في العليق المزهر
بلا مبالاة او نظر لماهية الأشياء .

هذه الابيات قد لا تكون مستحبة في ساعي البريد مثلاً ، فلسنا نستطيع اذن صوغ تربيتنا لنؤتي بها كل انسان مزاج شاعر . لكن هناك مميزات خاصة يستحب وجودها في الناس اجمالاً وتلك وحدها هي التي سأنظر فيها في هذه المرحلة .

اني لا أميز فرقاً البتة بين ما يسمونه الذكر وما يسمونه الانثى . نعم يستحسن في المرأة التي سيعهد اليها بالعناية بالاطفال الصغار ان تتلقى قدراً معيناً من الاعداد المهني ، لكن هذا لا يستلزم من الفروق الا شبه ما بين الزارع

والطحان، وهذا ليس أساسياً بأية حال من الاحوال ولا يتطلب منا اعتباراً ونحن في مستوانا الحاضر .

اني سأتناول اربع مميزات يبدو لي انها تكون مجتمعة أساس الخلق المثالي : الحيوية ، والشجاعة ، والحساسية ، والذكاء . ولست أزعم ان هذه القائمة كاملة، ولكني أراها تحملنا شوطاً حسناً في الطريق المرجو، وفضلاً عن هذا فاني اعتقد اعتقاداً راسخاً ان هذه الصفات يمكن اشاعتها واذاعتها بواسطة العنـــاية الحقة بالنشء من النواحي البدنية والعاطفية والذهنية، وسأتكلم عن كل منها بالدور .

الحيوية صفة فسيولوجية اكثر منها عقلية ، والمفروض انها دائماً تكون حيث تكون الصحة التامة ، لكنها تنزع الى التناقض مع التقدم في السن وتتضــاءل بالتدريج الى ان تنعدم في الشيخوخة ، اما في الاطفـــال الأصحاء فانها تتزايد بسرعة الى حدها الاعلى قبل ان يصل الطفل الى سن دخول المدرسة ، ثم تنزع الى النقصان بالتربية . وأينما توجد الحيوية يوجد اغتباط الانسان بأنه حي، بغض النظر عن اي ظروف سارة معينة . انها تزيد المسرات متعة ، وتنقص الآلام . انها تسهل على الانسان الاهتمام بما يدور حوله ، وبذلك تساعد على الانشغال عن النفس اللازم لاتزان العقل . ان الآدميين نزاعون الى الاشتغال بأنفسهم عما سواها ممـا يبصرون ويسمعون ، نزاعون الى العجز عن الاهتمام بشيء خارج جلودهم ، وهذا عليهم نكبة لأنه يؤدي بهم الى العجز عن الاهتمام بشيء خـارج جلودهم ، وهذا عليهم نكبة لأنه يؤدي بهم على احسن تقدير الى الملل والسأم ، وعلى أسوأ تقدير الى الهم والانقباض ، وهو ايضاً مانع مهلك يمنع المرء ان يكون نافعاً الا في احوال نادرة جداً . والحيوية تنمي الاهتمام بالعـالم الخارجي كما تنمي المقدرة على العمل الشاق، وهي فوق هذا أمان من الحسد لأنها تشع البهجة في حياة الانسان، وهذا من اكبر حسناتها ، لأن الحسد من اكبر مصادر شقاء الانسان. نعم ان كثيراً من الصفات السيئة يأتلف بطبيعة الحال مع الحيوية كما تأتلف صفات النمر وحيويته ، كما ان كثيراً من خير الصفات يأتلف مع فقدانها . فنيوتن ولوك مثلاً

كان حظهما من الحيوية ضئيلا ، ولو انهما كانا احسن صحة لنجوا مما كان بهما من ضيق صدر وحسد . فالجدال الذي قام بين نيوتن وليبنز ، والذي دمر الرياضيات الانجليزية اكثر من قرن ، كان يمكن تجنبه كله على الراجح لو ان نيوتن كان قوي البدن قادراً على الاستمتاع بالمسرات العادية . فعلى الرغم مما للحيوية من قيود فاني أضعها بين الصفات التي يجب ان يحوزها كل انسان .

والشجاعة — ثانية الصفات في قائمتنا - لها صور متعددة كلها معقدة . فالتجرد من الخوف شيء ، والمقدرة على ضبط الخوف شيء آخر ، والتجرد من الخوف بدوره شيء حين يكون الخوف معقولاً ، وشيء آخر حين يكون الخوف غير معقول . ومن الواضح ان التجرد من الخوف غير المعقول محمود ، ومثله المقدرة على ضبط الخوف . أما تجرد الخوف المعقول فأمر فيه نظر ، على أني سأؤجل هذه المسألة الى أن أقول شيئاً عن الصور الأخرى للشجاعة .

يلعب الخوف غير المعقول دوراً كبيراً في الحياة العاطفية الغريزية لأكثر الناس ، وهو في صوره المرضية ، كتوهم الاضطهاد أو القلق المربك او ما الى ذلك ، يعالجه أطباء الأمراض العقلية ، لكنه في صوره الخفيفة شائع بين المعدودين في العقلاء . قد يكون شعوراً مبهماً بأن هناك أخطاراً محيطة بنا وعندئذ يكون الأصوب تسميته (قلقاً) ، او قد يكون خوفاً معيناً من أشياء لا خطر فيها كالفيران أو العناكب[1] وكان المظنون فيما مضى أن كثيراً من المخاوف غريزي ، لكن معظم الباحثين في الوقت الحاضر يشكون في ذلك . ان هناك فيما يظهر مخاوف قليلة غريزية — كالخوف مثلاً من الاصوات العالية — لكن أكثرها وأغلبها ينشأ مما يقع للانسان أو من الايحاء ، فالخوف من الظلام مثلاً راجع كله الى الايحاء فيما يبدو . وهناك ما يحمل على الظن أن الفقريات لا تستشعر

---

(١) للمراجعة عن الخوف والقلق في الطفولة اقرأ ما كتبه وليم اشتيرن مثلا في الفصل الخامس والثلاثين من (نفسانية بواكير الطفولة) — طبعة جورج آلن وأنوين ليمتد سنة ١٩٢٤

خوفاً غريزياً من اعدائها بالفطرة ولكن تأخذ هذا الخوف من كبارها ، لان الناس عندما يربون بأيديهم هذه الحيوانات لا يجدون فيها صنوفاً من الخوف شائعة في نوعها من الحيوان . لكن الخوف معد الى غير حد، يأخذه الأطفال من الكبار حتى حين لا يشعر الكبار أنهم أظهروه . والفرق في الأمهات أو الحاضنات سرعان ما يقلده الأطفال بالايحاء ، وقد رأى الرجال الى اليوم من الجاذبية في النساء أن يكن ذوات خوف غير معقول ورعب ، لأن ذلك كان يعطي الرجال فرصة لان يظهروا بمظهر الحماة من غير تعرض لأي خطر حقيقي ، لكن أبناء هؤلاء الرجال كانوا يأخذون الفزع والرعب عن امهاتهم ، فكان ذلك يدعو الى تدربهم فيما بعد على استعادة الشجاعة التي ما كانوا ليفقدوها لو أن آباءهم لم يؤثروا تحقير أمهاتهم. ان الضرر الذي نشأ عن استخضاع النساء يفوق كل تقدير، وأمر الخوف هذا ان هو الا مثل واحد عرضي يوضح ما نحن بصدده .

إنني لا أعير الآن البحث في الطريق التي بها يمكن تقليل الخوف والقلق الى أقصى حد، فهذا موضوع سأنظر فيه بعد ، ومع ذلك فهناك سؤال ينشأ في هذه المرحلة الا وهو : هل نستطيع في علاج الخوف أن نقنع باستخدام القمع ، أو علينا ان نلتمس علاجاً أشفى وأبقى ؟ ان الارستقراطيات كانت تدرب بحكم التقاليد على عدم اظهار الخوف ، بينما تشجع الأمم والطبقات والنساء المحكومة على ان تبقى في جنبها . وكان محك الشجاعة سلوكياً غاشماً : فالرجل يجب ألا يفر من الزحف ، ويجب ان يكون خبيراً بألعاب (الرجولة) ، ويجب أن يحتفظ برباطة جأشه في الحرائق وعند انكسار السفن والزلازل الخ . يجب عليه ألا يقتصر على عمل ما هو صواب ، وانما عليه ان يتجنب اصفرار الوجه ، أو الارتجاف ، او البهر ، او اية علامة اخرى سهل ملاحظتها من علامات الخوف. كل ذلك أعده على جانب عظيم من الأهمية ، واني لأود ان أرى الشجاعة تغرس في كل الأمم، وفي كل الطبقات، وفي الجنسين على السواء، لكننا اذا اتخذنا لذلك وسيلة مبنية على القمع فانها تجر علينا الشرور التي تصحب القمع عادة. وقد كان

خوف العار والفضيحة دائماً سلاحاً فعالاً في احداث مظاهر الشجاعة ، لكنه في الواقع انما يسبب صراعاً بين صنوف من الخوف يرجى ان تكون الغلبة فيه للخوف من سخط الناس . لقد كان يقال لي في طفولتي : (قل الصدق دائماً الا اذا اخافك شيء) ، واني لا أستطيع ان اجيز هذا الاستثناء، فالخوف يجب ان يتغلب عليه لا في الفعل وحده ولكن في الشعور ايضاً ، ولا في الشعور الواعي فحسب ولكن في غير الواعي كذلك ، فالانتصار الظاهري المحض على الخوف وهو الذي يرضي العرف الارستقراطي يترك الخوف يعمل في السر ، فتنتج انفعالات سيئة ملتوية لا يدرك الناس انها وليدة الفزع . ولست اتكلم هنا عن (الصدمة القنبلية) فعلاقتها بالخوف واضحة ، وانما اتكلم عن النظام كله ، نظام الظلم والقسوة التي تلتمس به الفئات الحاكمة الاحتفاظ بسلطانها وسيادتها . فعندما امر احد الضباط البريطانيين في شنغهاي بضرب عدد من الطلبة الصينيين العزل بالرصاص في ظهورهم بغير انذار ، كان الحافز له بداهة هو الفزع ، شأنه في ذلك بالضبط شأن الجندي الذي يفر من المعركة، لكن الارستقراطيات الحربية ليس لديها من الذكاء ما يكفي لرد مثل تلك الأعمال الى اصولها النفسية ، فهم يعتبرونها من دلائل العزم والروح الصحيحة .

ان الخوف والغضب عاطفتان متشابهتان تماماً من وجهتي نظر علم النفس وعلم وظائف الأعضاء، فالرجل الذي يغضب ليس عنده أعلى انواع الشجاعة، والقسوة التي تتجلى باطراد في قمع الاضطرابات الزنجية او غيرها من الحركات التي تهدد الارستقراطية . هي وليدة الجبن وتستحق نفس الاحتقار الذي نخلعه عادة على هذه الرذيلة في صورها الأكثر ظهوراً . واني اعتقد ان في الامكان تربية الرجال والنساء العاديين بحيث يستطيعون ان يعيشوا بلا خوف ، وهذا ما لم يستطعه الى الآن غير عدد قليل من الابطال او القديسين ، لكن ما فعلوه يستطيع غيرهم أن يفعله اذا وجد من يرشده بأقلها شأناً .

وللحصول على شجاعة لا تقوم على القمع يجب أن نجمع بين عدة عوامل ،

ولنبدأ بأقلها شأناً . ان الصحة والحيوية تساعدان كثيراً على الشجاعة وان لم تكونا ضروريتين لها تماماً ، والمران والمهارة في المواقف الخطيرة مستحبان جداً . لكننا نحتاج الى ما هو أعظم شأناً من ذلك حين نشرع ننظر في الشجاعة الشاملة ، لا الشجاعة في نواح خاصة : نحتاج الى مزيج من احترام الذات ونظرة للحياة غير شخصية . ولنبدأ باحترام الذات . يعيش بعض الرجال بوحي من انفسهم ، بينما هناك آخرون ليسوا الا مرايا لما يحس جيرانهم ومـا يقولون ، فهؤلاء لا يمكن ان يكونوا قط ذوي شجاعة حقيقية . انهم لا يستغنون عن اعجاب غيرهم بهم ، ولا يفارقهم الخوف من أن يفقدوه . وتعليم (التواضع) الذي كان فيما مضى مستحباً ، كان الوسيلة لانتاج صورة ممسوخة لهذه الرذيلة نفسها ، كان (التواضع) يكبت احترام النفس ولا يقتل الرغبة في الحصول على احترام الآخرين ، فلم يعد ان يجعل التصاغر وسيلة الفوز بالتقدير ، ومن ثم كان ينتج الرياء ويفسد الطبع ، وكان الأطفال يعلمون الخضوع الأعمى ، فاذا مـا كبروا أخذوا يتقاضونه ، وكان يقال ان الذين تعلموا كيف يطيعون يعرفون وحدهم كيف يأمرون ، والذي أعرضه هو أن ليس لأحد أن يتعلم كيف يطيع وليس لأحد أن يحاول ان يأمر ، ولست أعني بالطبع أنه لا ينبغي ان يكون هنالك قادة حين تشترك الجماعات في عمل ، وإنما أعني أن سلطان هؤلاء القادة يجب ان يكون كسلطان رئيس فرقة كرة القدم الذي يخضع له الأفراد مختارين لتحقيق غرض مشترك . ينبغي ان تكون اغراضنا لنا ومنا ، لا مفروضة علينا من غيرنا ، وينبغي ألا نفرض اغراضنا قط على غيرنا بالقوة. هذا هو الذي اعنيه حين اقول انه ليس لأحد ان يأمر وليس لأحد ان يطيع .

وهناك شيء آخر ألزم للشجاعة العليا ، وهو ما سميته الآن (نظرة للحياة غير شخصية) . ان الرجل الذي تتركز كل آماله ومخاوفه حول نفسه لا يمكن ان ينظر الى الموت باطمئنان ، لأن الموت يطفيء عالم عواطفه كلها. وهنا نواجه مرة اخرى تقليداً يغرينا بطريقة القمع السهلة الرخيصة ، ألا وهو ان القديس

يجب ان يتعلم كيف يبرأ من النفس ويعذب البدن وينبذ المسرات الغريزية . ومن الممكن عمل هذا ، لكن نتائجه سيئة ، فالقديس الزاهد اذا ما حرم على نفسه المسرات فانه يحرمها ايضاً على الآخرين ، فذلك اسهل . لكن الحسد يستمر في السر ، وينتهي به الى اعتقاد ان تحمل الألم يسمو بالانسان الى النبـل ، ومن ثم يكون فرضه على الناس مشروعـاً ، وهذا يؤدي الى انعكاس تام لقيم الاشياء ، فالحسن يرى سيئاً والسيىء يرى حسناً . ومنشأ الضرر كله هو تلمسنا الحيـــاة الطيبة عن طريق إطاعة أوامر سلبية ، لا عن طريق توسيع الرغبات والغرائز الفطرية وانمائها .

وهناك اشياء معينة في الفطرة البشرية تقودنا بغير جهد الى ما وراء النفس . واكثرها شيوعاً هو الحب ، وعلى الأخص الحب الوالدي الذي نجده عند بعض الناس يعم حتى يشمل الجنس البشري بأسره . ومنها المعرفة ، فليس هناك من سبب يحملنا على الظن أن غاليليه كان شديد الحب للخير ، ومع ذلك فقد كان له في الحياة غرض لم يبطل بموته . وشيء آخر : الفن . لكن الواقع ان كل اهتمام يبديه الانسان بشيء خارج عن جسمه هو ، يجعل حياته الى ذلك الحد غـــير شخصية . لهذا ارى ، وإن بدا ذلك لبعض الناس تناقضاً ، ان الرجـل الذي تتسع وتتضح دائرة اهتمامه ، لا يصعب عليه ان يفارق الحياة كما يصعب ذلـك على البائس الخائر الذي تتحدد دائرة اهتمامه والذي يشعر بأن نفسه ان هي الا جزء صغير من الدنيا ، لا لاحتقاره نفسه ولكن لتقديره كثيراً سواها. وهذا لا يكاد يحدث الا حيث تكون الغريزة حرة والذكاء متوقداً ، ومن اتحـاد هذين العاملين معاً ينشأ شمول في النظر لا يعرفه المنغمس في شهواته ولا الزاهد. ولمثل هذه النظرة الشاملة يبدو الموت الشخصي أمراً تافهاً . فمثل هذه الشجاعة ايجابية غريزية ، لا سلبية قمعية . والشجاعة بهذا المعنى الايجابي هي التي أعتبرهـــا من العناصر الأساسية في الخلق الكامل .

والحساسية – ثالثة الصفات في قائمتنا – هي على وجه مصححة للشجاعـــة

المجردة . ان السلوك الجريء اسهل على الرجل الذي يعجز عن ادراك الأخطاء ، لكن مثل هذه الشجاعة قد تكون حمقاء في الغالب. فإنا لا نستطيع ان نرضى عن اي طريق للعمل متوقف على الجهل او النسيان ، لأن من اساس مـــا هو مستحب بلوغ اقصى مدى ممكن من المعرفة والادراك . على ان ناحية العرفـان يأتي الكلام عنها مع الذكاء، والحساسية بالمعنى الذي اقصده من هذا اللفظ نابعة من العواطف . واذا أردنا لها تعريفاً نظرياً بحتاً قلنا ان الشخص يكون حساساً من الناحية العاطفية عندما تتنبه عواطفه بمنبهات كثيرة ، لكنها على عمومها لا يتحتم ان تكون صفة حسنة . فلكي تكون الحساسية طيبة يجب ان يكون الانفعال العاطفي مما يليق . فمجرد الشدة في العاطفة ليس هو المطلوب . ان الصفة التي اقصدها هي تأثر الانسان ان سروراً او مساءة ، بأشياء كثـــيرة ، وبالأشياء الصالحة . وسأجتهد في تفسير ما هي الاشياء الصالحـة . ان الخطوة الاولى التي يخطوها معظم الاطفال في سن حوالي خمسة اشهر هي الانتقـال من مجرد مسرات الاحساس مثـــل الطعام والدفء ، الى المسرات الناشئة عن الاستحسان الاجتماعي . هذا السرور ينمو سريعاً جداً بمجرد نشوئه ، فكل طفل يحب الثناء ويكره اللوم. ورغبة الانسان في ان يظن الناس به خيراً تبقى في العادة احد الدوافع المتسلطة عليه مدى الحياة . وهي حقـاً عظيمة القيمة كحافز الى السلوك المستظرف ، وكابح لدوافع الجشع ، وكان يصح ان تكون انفع وانفس لو كنا أكثر حكمة في اعجابنا ، لكن ما دام اكثر الابطال نصيبا من اعجاب الناس اكثرهم تقتيلا للناس ، فان حب الاعجاب لا يمكن انيكفي وحده للحياة الصالحة .

وثانية المراحل في نشوء حساسية مستحبة هي العطف. هناك عطف طبيعي محض ، كبكاء الطفل الصغير جداً عندما يبكي اخوه او اخته ، وهـذا ما اظن هو الاساس الذي يقوم عليه ما بعده في هذا السبيل ، والتوسعان اللازمان في ذلك أولهما استشعار العطف حتى ولو لم يكن المصاب موضع محبـــة خاصة ،

وثانيهما استشعار العطف عند العلم بحدوث مصيبة وان كانت غير مشهودة . ويتوقف هذا التوسع الثاني على الذكاء الى حد كبير ، فقد لا يذهب الى ابعد من العطف على مصاب يصور مصابه تصويراً واضحاً مؤثراً كما يقع في رواية جيدة، وقد يذهب من ناحية اخرى الى الحد الذي يجعل الانسان تحرك عواطفه الاحصائيات . وهذه المقدرة على العطف المجرد هي في الندرة والأهمية سواء ، فكل انسان تقريباً يتأثر تأثراً عميقاً حين يجد شخصاً يحبه يصيبه السرطان ، ومعظم الناس يتأثرون عندما يبصرون في المستشفيات آلام مرضى لا يعرفونهم، ومع ذلك فانهم عندما يقرأون ان نسبة الوفيات من السرطان هي كذا وكذا فانهم في العادة لا يتأثرون الا بخوف وقتي شخصي ان يصابوا هم او من هو عزيز لديهم بهذا المرض . ويصدق مثل هذا على الحرب ، فالناس يرونها فظيعة حين يصاب ابنهم او اخوهم بتقطيع اوصاله ، لكنهم لا يرونها افظع مليون مرة حين تقطع اوصال مليون من الناس . والرجل المتلىء عطفاً ورفقاً فيمعاملاته الشخصية قد يكسب عيشه من الحض على الحرب ، او من تعذيب الاطفال في الامم (المتأخرة) . كل هذه الظواهر المألوفة راجعة الى ان العطف لا يثيره في معظم الناس باعث فكري مجرد ، واذا امكن علاج هـذه الحالة زالت نسبة كبيرة من الشرور الموجودة في الدنيا الحديثة . وقد زاد العلم كثيراً في مقدرتنا على التأثير في حياة الشعوب البعيدة عنا بغير ان يزيد في عطفنا عليهم . لنفرض انك مسهم في شركة لصنع القطن في شنغهاي . قد تكون رجلاً مشغولاً لم يزد على ان جرى في هذا الاستغلال وراء نصيحة مالية ، فلا شنغهاي ولا القطن يهمانك وإنما الذي يهمك هو أرباحك ، ومع ذلك فانك تصير جزءاً من القوةالتي تقود الى مذابح شعب بريء ، وستختفي ارباحك اذا لم يجبر الاطفال الصغار الصينيون على الكد الشاذ الخطر . انك لا تبالي لأنك لم تر اولئك الاطفال قط، والباعث الفكري لا يستطيع ان يحرك منك . هذا هو السبب الرئيسي في ان الاستثمار الصناعي الواسع هو على ما هو عليه من القسوة ، وان ظلم الاجناس

المغلوبة مستساغ . فتربية تنتج حساسية عن بواعث فكرية من شأنها ان تجعل مثل تلك الاشياء مستحيلة الوقوع .

والحساسية العرفانية التي ينبغي ان يشملها البحث هي تقريباً نفس عـــادة الملاحظة ، فبحثها مع الذكاء يكون اقرب وأوفق . اما حساسية الجمال فتثير عدة مسائل لا أبغي الخوض فيها في مرحلتنا هذه ، ولذلك سأنتقـل الى رابعة الصفات الأربع التي عددتها ، وهي الذكاء .

من اعظم عيوب الأخلاق التقليدية انها لم تقدر الذكاء قدره . ولم يقع اليونان في هذا الخطأ ، لكن الكنيسة حملت الناس على الاعتقاد بأنه لا شيء يهم سوى الفضيلة ، والفضيلة عندها عبارة عن تجنب قائمة خاصة من الأفعال اطلق عليها اعتباطاً لفظ (الاثم) . وما دامت هذه النظرية قائمة ، فمن المستحيل حمـــل الناس على ان يدركوا ان الذكاء أعوَد بالخير من فضيلة اصطناعية اصطلاحية . واذا ذكرت الذكاء فاني أدخـل فيه المعرفة وقابليتها كلتيهما ، والاثنتان بينهما صلة وثيقة في الواقع . ان جهلاء الكبار غير قابلين للتعلم ، فهم مثلاً عاجزون كل العجز عن تقبل ما يقوله العلم في تدبير الصحة وفي التغذية ، وكلما كان ما تعلمه المرء اكثر ، كانت الاستزادة من العلم عليه اسهل ، كل ذلك على فرض انه لم يتعلم بالروح التي تحمل على مجرد التصديق . والجهلاء من الناس لم يضطروا قط الى تغيير عاداتهم العقلية ، وقد جمدوا على نظرة ووجهة لا سبيل الى تغييرها . ولا يقتصر الامر على انهم يصدقون حيث ينبغي التشكك ، فذلك ليس شراً من انهم لا يصدقون حيث ينبغي التقبل . ولا شك في ان كلمة (الذكاء) أدل على قابلية تحصيل المعرفة منها على المعرفة التي حصلت بالفعل ، لكني لا اعتقـد ان هذا الاستعداد يكتسب الا بالتمرين ، شأنه في ذلك شأن قابلية ضارب البيانو والبهلوان . ومن الممكن بالطبع اعطاء المعلومات بطرق لا تربي الذكاء ، وهـذا ليس ممكناً فقط بل سهل شائع . لكني لا اعتقد ان من الممكن تربية الذكاء بغير اعطاء معلومات ، او على اي حال بغير تيسير تحصيل المعرفة . وبغير الذكاء لا

يمكن لدنيانا الحديثة المركبة ان تقوم ، ومن باب اولي ان تتقدم ، لذلك اعتبر تنمية الذكاء من اعظم اغراض التربية . وقد يبدو هذا كلاماً عادياً لكنه في الواقع غير ذلك ، فالرغبة في تلقين التلاميذ ما هو معتبر عقائد صحيحة قد جعلت المربين يسرفون في عدم الاهتمام بتربية الذكاء . ولتوضيح ذلك يلزم ان نعرّف الذكاء تعريفاً أدق حتى نكشف عن العادات العقلية اللازمة له . ولهذا الغرض سأنظر فقط في قابلية تحصيل المعرفة دون المعرفة المحصلة فعلاً التي يصح ان تدمج بحق في تعريف الذكاء .

ان من اهم الأسس الغريزية للحياة العقلية هو الاستطلاع الذي يوجد في صوره البدائية بين الحيوانات . ويتطلب الذكاء حباً للاطلاع متحفزاً لكنه يجب ان يكون من نوع معين . فالنوع الذي يحمل القرويين المتجاورين على محاولة النظر من خلال الستائر بعد ان يخيم الظلام ليس له قيمة يقيد بها ، وانتشار الغيبة ليس مبعثه حب المعرفة ولكن حب الأذى ، فانا لا نجد احداً يغتاب الناس بذكر فضائلهم الخفية ولكن بذكر رذائلهم المستترة ، ولذا كان معظم الغيبة باطلاً ، لكن الناس يحرصون على عدم الاستيثاق من صحته . أما الاستطلاع الذي يصدق عليه اسمه فمبعثه حب حقيقي للمعرفة ، وتستطيع ان ترى هذا الباعث في صورة شبه نقية في القطة يؤتى بها الى غرفة غريبة فتأخذ في تشمم كل ركن وكل قطعة من الاثاث ، وستراه أيضاً في الأطفال حين يفتح لهم درج أو ركن اعتادوا رؤيته مغلقاً فيهتمون بما فيه مستغرقين. والحيوانات والآلات وعواصف الرعد وكل انواع العمل اليدوي تثير الاستطلاع في الأطفال ، فان تعطشهم للمعرفة يوازي نظيره عند أذكى الكبار ، هذا الباعث يضمحل بتقدم العمر ، حتى نصل في نهاية الامر الى ألا يثير فينا غير المألوف الا الاشمئزاز بغير أدنى رغبة في التعرف به عن قرب . وهذه هي المرحلة التي فيها يتساءل الناس (أن شؤون المملكة سائرة الى الدمار) وان (الأمور ليست كما كانت في صباي) ، مع ان الأمر الذي ليس كما كان في ذلك العهد البعيد هو الاستطلاع والتشوف عند

المتكلم . وعندما يموت حب الاطلاع نستطيع ان نعد الذكاء الفعال قد مات أيضاً .

الا ان الاستطلاع وان تناقص بعد الطفولة في شدته وفي مداه قد يتحسن نوعه زمناً طويلاً ، فالاستطلاع المتعلق بالقضايا العامة يكشف عن مستوى الذكاء أرفع مما يكشف عنه الاستطلاع المتعلق بالوقائع المعينة . وبوجه عام كلما ارتفعت رتبة التعميم ازداد مقدار الذكاء الذي تستلزمه ، (على ان هذه القاعدة لا يصح ان يتشدد فيها) ويدل الاستطلاع حين يتجرد من المنافع الشخصية على ترق اكبر مما يدل عليه اذا اتصل بفرصة حصول على طعام مثلاً . فالقطة التي تتشمم في غرفة جديدة ليست كباحث علمي خال تماماً من الغرض ، لكنها على الراجح تريد لتعرف ما اذا كان في المكان فيران . ولعله ليس من تمام الصواب أن يقال ان الاستطلاع يكون على أحسنه عندما يخلو من الهوى ، بل الأقرب ان يكون على أحسنه عندما تكون علاقته بالأهواء الأخرى غير واضحة ولا مباشرة ، وانما تحتاج للكشف عنها الى درجة معينة من الذكاء . على انه ليس من الضروري ان نصل في هذه النقطة الى قرار .

واذا اريد ان يكون الاستطلاع مثمراً فلا بد من ان يقترن بأسلوب فني ما لتحصيل المعرفة ، لا بد مثلاً من عادات للملاحظة ، ومن اعتقاد في امكان المعرفة ومن صبر وجد . وتنمو هذه الأشياء من تلقاء نفسها متى وجد اصل من حب الاطلاع ووجدت التربية العقلية المناسبة ، لكن من حيث ان حياتنا الفكرية ليست الا جزءاً من نشاطنا وان حب الاطلاع يتصادم على الدوام بأهوائنا الشديدة الأخرى فنحن في حاجة الى فضائل فكرية معينة كانفتاح الذهن . ان العادة والشهوة كلتيهما تحولان دون تقبلنا الحقائق الجديدة ، فنجد من الصعب ان ننبذ ما ظللنا نؤمن به عدة سنوات وما يعد لنا في احترام الذات أو غيره من الأهواء الشديدة الأساسية . فانفتاح الذهن من الصفات التي ينبغي ان ترمي التربية الى ايجادها ولا يتحقق هذا في الوقت الحاضر الا الى مدى محدود جداً .

ان الشجاعة ضرورية للنزاهة كما هي ضرورية للبطولة البدنية . ان الدنيا الحقيقية أغمض مما نحب ان نقر به، ومن اول يوم في الحياة نقوم باستقراءات غير موثوق بها ، ونخلط بين عاداتنا العقلية وقوانين فطرة الاشياء وهناك حشد من النظم العقلية كالمسيحية والاشتراكية والوطنية مستعدة استعداد ملاجىء الأيتام لأن تهبنا الأمن في نظير استرقاقنا . فالحياة العقلية الحرة لا يمكن ان ينعم الانسان في كنفها بالراحة والرضا والأنس كما ينعم بحياة هي في كنف مذهب يعتقده . فالعقيدة وحدها تستطيع ان تهبنا شعور الجالس حول المدفأ الوثير وعواصف الشتاء ثائرة مضطربة خارج البيت .

وهذا يجرنا الى مسألة على شيء من الصعوبة وهي : الى اي حد يجب ان تتحرر الحياة الطيبة من القطيع ..؟

اني اتردد في استعمال عبارة (غريزة القطيع) لأن هناك جدليات قائمة حول صحتها ، لكن مهما كان تفسيرها فالظواهر التي تعبر عنها مألوفة . اننا نحب ان نكون على وفاق مع اولئك الذين نشعر انهم يكونون الجماعة التي نبتغي التعاون معها — اسرتنا، أو جيراننا، أو زملاءنا، أو حزبنا السياسي، او أمتنا — وهذا طبيعي لاننا لا نستطيع ان نظفر بشيء من مسرات الحياة بغير التعاون . وفضلاً عن ذلك فالعواطف معدية لا سيما حين يشعر بها كثير من الناس معاً، فقليل جداً من الناس يستطيعون حضور اجتماع هائج من غير ان يشعروا بشيء من التهيج ، واذا كانوا معارضين فان معارضتهم تثور . ومعظم الناس لا تثور فيهم تلك المعارضة الا اذا استمدوا عوناً من شعورهم بأن هناك جمعاً آخر سيظفرون منه بالتأييد والاستحسان . وهذا هو السبب في ان الصلة بالقديسين قد امدت المضطهدين بما امدتهم به من طمأنينة وسكينة . فهل نجاري هذه الرغبة في التعاون مع جمع ، او نتطلب من التربية ان تحاول اضعافها ؟ هناك حجج لكل من الجانبين ، والجواب الصحيح يجب ان يكون في ايجاد نسبة بين الاثنين عادلة ، لا في الانحياز بكليتنا الى احد الجانبين .

اني ارى من خلال نفسي ان رغبة الانسان في ان يرضى ويتعاون ينبغي ان تكون قوية وطبيعية ، لكن يجب ان يكون في الامكان تغليب رغبات اخرى عليها في مناسبات معينة مهمة. وقد سبق لنا ان نظرنا في استحباب رغبة ارضاء الغير عندما كنا نتكلم عن الحساسية ، فبدونها نصير أفظاظاً اجلافاً ، وتصبح كل الجماعات المدنية في الاسرة فصاعداً مستحيلة. وتربية الاطفال الصغار تصعب جداً اذا لم ينشدوا حسن رأي والديهم فيهم. وعدوى العواطف ايضاً لها منافعها عندما تكون العدوى من أحكم اثنين الى اجهلهما ، لكن في حالات ذعر الجمع او غضبه تكون العدوى بطبيعة الحال ضارة كل الضرر . فمسألة قابلية التأثر بالانفعالات العاطفية ليست بمجال من المسائل السهلة ، ووجه الحكم فيها غامض حتى في الشؤون الفكرية البحتة . وقد اضطر المستكشفون العظماء الى مقاومة القطيع والاستهداف لعدائه باستقلالهم ، لكن آراء الرجل العادي أقل حمقاً بكثير مما تكون عليه لو انه استقل بالتفكير لنفسه ، وفي العلم على الاقل نجد ان احترامه للعلماء الثقات مفيد في الجملة .

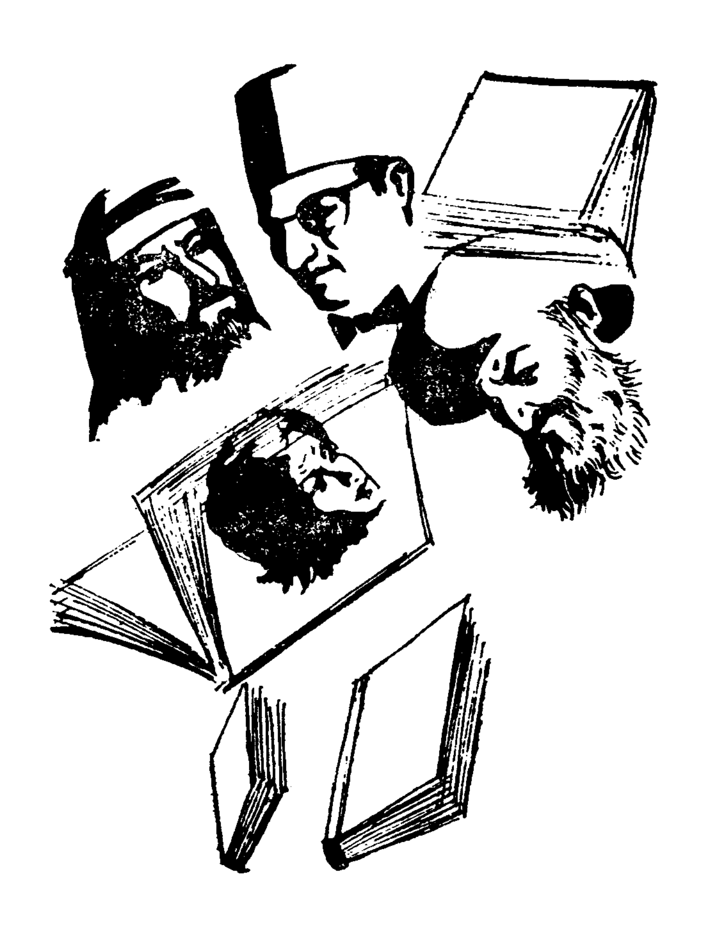
ورأيي الشخصي ان الرجل الذي ليس في ظروفه شذوذ خاص ينبغي ان تكون في حياته دائرة كبيرة يغلب عليها ما يطلق عليه الاسم المبهم (غريزة القطيع) ، ودائرة صغيرة لا تنفذ اليها تلك الغريزة . هذه الدائرة الصغيرة ينبغي ان تحوي منطقة ما تخصص فيه . فنحن نسيء الظن بالرجل الذي لا يستطيع ان يعجب بامرأة الا اذا أُعجب بها كذلك كل من عداه ، ونرى انه عند اختيار الزوجة ينبغي ألا يهتدي الرجل الا بمشاعره الخاصة المستقلة ، لا بمشاعر الجماعة التي يعيش فيها يعكسها كالمرآة . انه لا يهم ان تكون احكامه على الناس بوجه عام متفقة مع احكام جيرانه ، لكن عندما يقع في الحب ينبغي ان يهتدي بمشاعره هو الخاصة المستقلة . ومثل هذا ينطبق في النواحي الاخرى ، فالفلاح يجب ان يعمل بحكمه الشخصي على ما تصلح له الحقول التي يزرعها بنفسه ، وان كان ينبغي ان يكون حكمه بعد ان يلم بقدر صالح من الزراعة العلمية ،

والاقتصادي ينبغي ان يستقل في حكمه على مسائل العملة ، لكن خير الرجل العادي ان يتبع آراء الثقات . فحيثما توجد المقدرة الخاصة ينبغي ان يوجد استقلال الرأي ، لكن لا ينبغي للرجل ان يجعل من نفسه قنفذاً كله شوك يباعد بينه وبين الناس . ان معظم نشاطنا العادي يجب ان يكون تعاونياً ، والتعاون يجب ان يكون على اساس غريزي ، ومع ذلك ينبغي ان نتعلم كلنا كيف نفكر بأنفسنا في الشؤون التي نحيط بها علماً ، وينبغي ان نكون كلنا قد اكتسبنا الشجاعة التي تحملنا على الجهر بآرائنا المخالفة للجماعة عندما نعتقد انها آراء مهمة . وتطبيق هذه المبادىء العامة في حالات خاصة قد يكون بطبيعة الحال صعباً ، لكنه سيكون اقل صعوبة مما هو عليه الان في دنيا تشيع بين رجالها الفضائل التي كنا ننظر فيها في هذا الفصل . فالقديس المضطهد مثلاً لن يكون له وجود في دنيا كهذه ، والرجل الطيب لن يجد داعياً الى ان ينفش شوكه ويصير مرهف الاحساس بنفسه ، فطيبته ستكون ناتجة عن اتباعه بواعثه هو ، وستقترن فيه بسعادة غريزية ، فجيرانه لن يكرهوه لأنهم لن يخافوه . ان كراهية الناس للرواد العقليين راجعة الى ما يلقون في الناس من فزع ، وهذا الفزع لن يكون له وجود بين اناس اكتسبوا صفة الشجاعة . فالرجل الذي يتسلط عليه الخوف هو وحده الذي ينضم الى جماعة كالفاشيست ، وفي دنيا الشجعان لا يمكن ان تقوم هيئات الاضطهاد هذه وتكون الحياة الطيبة فيها أقل مقاومة للغريزة مما هي عليه الان. ان الدنيا الصالحة لا يمكن ان تخلق ولا أن تربو الا على أيدي من لا يهابون ، لكنهم كلما ازدادوا نجاحاً في مهمتهم قلت الظروف التي تستدعي منهم استخدام شجاعتهم .

وان في المجتمع الذي يتألف من رجال ونساء فيهم حيوية وشجاعة وحساسية وذكاء على ارفع ما تستطيع التربية ان تنتجه يكون مختلفاً جد الاختلاف عن كل ما وجد الى الآن . فيه يقل التعساء ، لان اسباب التعاسة الرئيسية في الحاضر هي : سوء الصحة والفقر وحياة جنسية غير مرضية ، وكل هذه ستصير نادرة

جداً في هذا المجتمع . فيه يمكن ان تصبح الصحة الجيدة شاملة، بل ان الشيخوخة يكون في الامكان تأجيلها. ان الفقر منذ قامت الثورة الصناعية راجع الى غباوة الجماعة ، فستحمل الحساسية الناس على الرغبـــة في محوه ، وسيدلهم الذكاء على الطريق ، وستدفعهم الشجاعة الى سلوكه ، (ان الشخص الهيوب يفضل ان يظل يائساً على ان يخرج على المألوف في شيء) . والحياة الجنسية لمعظم الناس في الوقت الحاضر غير مرضية على العموم ، وهذا يرجع من جهة الى سوء التربية ، ومن جهة اخرى الى اضطهاد ذوي السلطة . فلو ربي جيل من النساء بغير مخاوف جنسية غير معقولة فانهن سرعان ما يضعن حداً لهذا . كان يظن ان الخوف هو الطريق الوحيد لحمل النساء على الفضيلة ، فعلمن الجبن عن عمـــد من حيث الحس والعقل كليهما. ان النساء اللائي لم ينم الحب فيهن يبثثن الوحشية والرياء في ازواجهن ويشوهن غرائز اطفالهن . فجيل واحد من نساء لا أثر للخوف فيهن يستطيع ان يغير الدنيا ، بأن يأتي فيها بجيل من الاطفال لا أثر للخوف فيهم ، ولم يلووا الى اشكال غير طبيعية ، بل يكونون ذوي استقامة وصراحة ، وكرم وود وحرية ، حماستهم تكتسح القسوة والألم اللذين نرزح تحتهما لما فينا من كسل وجبن وغلظة وغباوة . ان التربية هي التي تمنحنا هذه الصفات الرديئة ، والتربية يجب ان تمنحنا اضدادها ، ان التربية هي مفتاح الدنيا الجديدة .

وها هو الوقت قد حان لأن ندع العموميـات ونأتي الى التفاصيل المحسوسة التي يجب ان تتمثل فيها مرامينا العليا .



تربية الخُلُق



- ٣ -

السنة الأولى

كان الأقدمون يعتبرون السنة الاولى من الحياة خارج نطاق التربية . فكان الرضيع يترك الى ان يتكلم، لعناية الامهات والمربيات بغير رقابة عليهن ، اذ كان المفروض فيهن انهن يعرفن بغريزتهن ما يصلح له . والواقع انهن لم يكن يعرفن ما يصلح ، ففي السنة الاولى كان يموت من الاطفال نسبة كبيرة وتسوء صحة كثير من الباقين ، وفيها كن يصفن اساس الوبيل من عادات العقل عند الطفل بسوء تناولهن له . وهذا كله لم يدرك الا حديثاً . ان تدخل العلم في محضن الطفل يتلقاه الناس غالباً بالنفور لانه يقلق من العاطفة السائدة بين الام وطفلها . لكن الحب وغلبة العاطفة لا يمكن ان يوجدا معاً ، فالوالد او الوالدة التي تحب طفلها ترغب ان يعيش ولو استدعى الامر استخدام الذكاء ومخالفة العاطفة ، لذلك نجد غلبة العاطفة اقوى ما يكون بين الناس الذين لا اطفال لهم ، وبين الذين يميلون مثل روسو الى ايداع اطفالهم ملاجىء اللقطاء . ومعظم الوالدات المتربيات متشوقات الى معرفة ما يصح به العلم اما غير المتربيات منهن فيتعلمن من مراكز رعاية الطفل . ونتيجة ذلك تتجلى في النقص البيّن في نسبة وفيات الاطفال

الرضع . ان هناك ما يحمل على الظن انه بالعناية والمهارة الكافيتين يقل جداً عدد الاطفال الذين يموتون في الرضاع ، ولا يقتصر الأمر على قلة من يموت ، بل الناجون يكونون اصح عقولاً وابداناً .

هذا وان المسائل الخاصة بالصحة البدنية خارجة عند التدقيق عن نطاق هذا الكتاب ، ويجب تركها للذين يمارسون الطب ، لذلك لن امسها الا حيثما تكون لها اهمية نفسانية . لكن التفريق بين البدني والعقلي في السنة الاولى من الحياة يتعذر ، وفضلاً عن ذلك فالمربي قد يجد نفسه فيما بعد مغلول اليد بسبب اخطاء فسيولوجية بحتة في تناول الرضيع ، لا نستطيع ان نتجنب كل الاجتناب التعرض لامور ليست في الحق من شأننا .

ومن المعلوم ان ليس للطفل الحديث الولادة عادات ولكن له انعكاسات وغرائز . فمهما يتعود في الرحم من عادة فانها لا تنفعه في وضعه الجديد بعد الولادة . حتى التنفس يحتاج احياناً الى تعليمه المولود ، وبعض الاطفال يموتون لانهم لا يتعلمونه بسرعة كافية . وهناك غريزة حسنة النمو فيه هي غريزة الرضاعة ، فالطفل حين يرضع يشعر في بيئته الجديدة انه حيث يألف . اما بقية اوقات استيقاظه فيقطعها في دهشة لا ينفسها عنه الا نومه معظم الأربع والعشرين ساعة . وفي نهاية اسبوعين يتغير كل هذا ، اذ يكون الطفل صار له توقعات يتوقعها اكتسبها من التجارب التي تكررت عليه بانتظام اثناء الاسبوعين . انه يصير بالفعل محافظاً ، بل لعله في محافظته اعظم واتم منه في اي وقت بعد ، فهو ينفر من كل تغيير فيما الف ، ولو استطاع الكلام لقال : (هل تحسبون انني سأغير عادات عمر كامل في هذا الوقت من عمري ؟) والسرعة التي يكتسب بها الرضيع عاداته مدهشة حقاً ، وكل عادة يكسبها تكون عادة في سبيل اكتسابه بعد ذلك عادات خير منها . وتلك هي العلة في ان التكوين الاول للعادات في بواكير عهد الرضاعة له اهمية ، فاذا احسنت العادات الاولى كفتنا في المستقبل تعباً لا آخر له . وفضلاً عن هذا فالعادات المكتسبة في بواكير العمر

تكون فيما بعد كالغرائز تماماً ، لها مثل ما لها من السلطان ، ولا يمكن ان يبلغ قوتها ما يكتسب بعد من عادات جديدة تضادها . لهذا السبب ايضاً ينبغي ان تكون العادات الاولى موضوع الاهتمام الخطير منا .

وحين ننظر في تكوين العادات في عهد الرضاع سنلاقي اعتبارين خطيرين : الاول والأهم هو الصحة ، والثاني هـو الخلق . اننا نبتغي في الطفل ان يصير انساناً يحبه الناس ، قادراً على مجاراة الحياة بنجاح . ومن حسن الحظ ان الصحة والخلق يشيران الى نفس الاتجاه ، يصلح لاحدهما ما يصلح للآخر . والخلق هو الذي يعنينا في هذا الكتاب ، لكن الصحة تحتاج الى ممارسة نفس ما يحتاج الخلق الى ممارسته فلسنا اذاً في الموقف الصعب الذي يكون علينا ان نختار فيه بين الفاجر السليم او الصالح السقيم .

وقد اصبحت كل ام متربية في ايامنا هذه تعرف الحقائق البسيطة مثل اهمية التزام تغذية الرضيع على فترات منظمة ، لا كلما ضج بالبكاء . ومنشأ هذا الالتزام انه انفع للهضم عند الطفل ، وهو سبب كاف تماماً ، لكنه ايضاً مستحب من ناحية التربية الخلقية . ان الرضّع امكر كثيراً مما يظن الكبار ، فاذا وجدوا ان البكاء يأتي بنتائج تريحهم فسيبكون ، واذا حدث في المستقبل ان تعودوا التشكي وجلب ذلك عليهم الكراهية بدلاً من التدليل شعروا بالدهشة والسخط وبدت الدنيا لهم معرضة جافية . اما اذا شب الأناث منهم نساء فاتنـات فانهن يظللن ينعمن بالتدليل اذا تبرمن ، وعندئذ يزداد ترتيبهن السيء الذي بدأ في الطفولة سوءاً على سوء ، ويصدق ذلك ايضاً على الاغنياء من الرجال . فلئن لم تتبع الطرق الصواب في عهد الرضاع فسيكون الناس في حياتهم بعد اما متبرمين واما جائرين ، تبعاً لما يكون لهم من قوة . فاللحظة الصائبة للبدء بالتربية الخلقية اللازمة هي لحظة الولادة ، اذ عندئذ يمكن ان تبدأ من غير توقعات قد يكون نصيبها الخيبة . اما اذا بدأت بعد ذلك فستضطر الى مجاهدة ما تكوّن من عادات مضادة ، وستلقى ممن يراد تربيته غيظاً ونفورا . فنحن اذا نحتاج في معاملة الطفل الرضيع الى ان

نصيب القصد ونقيم الوزن بين الاهمـــال والتدليل . كل ما هو ضروري للصحة يجب ان يعمل ، فاذا تألم الطفـل من المغص وجب ان يحمل ، كما يجب ان يبقى جافاً دافئـــاً . اما اذا لجأ الى العويل لغير سبب محسوس لنتركه لعويله ، والا فسيتحول بسرعة الى حاكم بأمره . وينبغي عندما نعنى به ألا نبـــدي اهتماماً زائداً ، بل نعمـل كل ما هو ضروري من غير افراط في التعبير عن عطفنـا . ويجب ألا يعتبر الطفل في أية فترة من حياته ألعوبة مسلية نهتم بها اكثر قليلاً من اهتمامنا بكلب نربيه ، بل يجب ان ننظر اليـه من اول الامر نظرة جد ملحوظاً فيها انه سيكون كبيراً غداً . والعـادات التي تكون غير محتملة في الكبير قد تكون مستلطفة في الطفل . طبعاً لا يمكن للطفل ان يكون له عادات الكبير ، لكن ينبغي ان نتجنب كل ما يضع العراقيل في سبيل اكتساب تلك العادات ، كما ينبغي ان نتجنب قبل كل شيء اشعار الطفل بأهمية له ذاتية ستنقضها وتؤلمه بنقضها تجاربه المستقبلة ، ثم هي على اي حال ليست متفقة مع الواقع .

ويرجع أغلب الصعوبة في تربية الرضع الى الاتزان الدقيق المطلوب في الوالدة او الوالد . المراقبـة الدائمة والجهد الكثير لازمان لتجنب الاضرار بالصحة ، وهما لا يكاد يتوفر منهما القدر الضروري الا حيث يوجد الحنان الوالدي القوي ، لكن هذا حين يتوفر يغلب جداً ان يكون غير حكيم ، فالطفل عظيم الأهميـة كبيرها عند الوالد المولع به او الوالدة ، ولئن لم يحترسا فسيشعر الطفـل بذلك ويحكم لنفسه بأهمية تكافىء ما يشعر به والداه . ولن تنظر اليه بيئته الاجتماعية في حياته المستقبلة بمثل ذلك الشغف ، وعندئذ يعـــاني خيبة أمل مصدرها ما غرس فيه من عادات تفترض انه مركز الكون عند غيره من الناس. لذلك كان من الضروري ، لا في السنة الاولى وحدها ولكن فيما بعدها ايضاً ، ان يظهر الوالدان شيئاً من البشر وعدم الاكتراث تلقاء ما قد يشعر به الطفل من آلام . وقد كان الاطفـــال الرضع في العصور الماضية يضيق عليهم ويدللون في وقت واحد . كانت اطرافهم غير طليقة ، وملابسهم أدفأ من اللازم ، ونشاطهم الذاتي

مقيداً محدوداً ، لكنهم كانوا يلاطفون ويهزون ويغنى لهم ويؤرجحون . وقد كان هذا خطأ بالغاً ، اذ كان يحولهم الى طفيليات عاجزة تطعم ما تشتهي .

ان القاعدة الصحيحة هي : شجع انواع النشاط الذاتي فى الطفل لكن ثبط مطالبه من الغير . وحذار ان يبصر الطفل كم تعمل من اجله وكم من العناء تتحمل . دعه كلما أمكن يتذوق فرح النجاح يحرزه بجهوده الشخصية ، لا النجاح يغتصبه بالتحكم في الكبار . ان الغاية التي نتوخاها في التربية الحديثة ان يختزل التأديب الخارجي الى حده الأدنى ، لكن ذلك يتطلب تأديباً نفسياً ذاتياً ، وهذا أسهل وأيسر تحقيقاً في السنة الاولى من حياة الطفل فلا تدفع به العربة ذاهباً آيباً ، ولا تحمله بين ذراعيك ، بل ولا تكن حيث يستطيع ان يراك . انك اذا فعلت ذلك مرة فسيتطلب الطفل منك ان تفعله اخرى . وفي وقت أقصر من ان يصدق يصبح تنويم الطفل من أشق الاعمال وأعسرها . وفر له الدفء والجفاف والراحة وضعه في فراشه بحزم ، وبعد ملاحظات قليلة توجهها اليه بهدوء كله لنفسه . وقد يصبح باكياً دقائق قليلة ، لكنه ان لم يكن مريضاً سيسكت سريعاً ، واذا ذهبت عندئذ لتنظره فستجده مستغرقاً في نومه . وسينام الطفل بهذه الطريقة اكثر وأطول مما اذا دللته وأعطيته ما يشتهي .

وكما لاحظنا من قبل ليس للرضيع الحديث الولادة عادات بل فيه انعكاسيات وغرائز ، ومن ثم ينتج أن دنياه ليست مكونة من (أشياء) فالتأثرات المتكررة ضرورية للتعرف ، والتعرف ضروري قبل ان ينشأ عنده تصور (شيء) . فملمس المهد وملمس الثدي ورائحته ، وصوت الام او المربية ، كل ذلك سرعان ما يصبح مألوفاً له . أما منظر الام او المهد فيأتي بعد ذلك قليلاً لأن الطفل الحديث الولادة لا يعرف كيف يضبط بصره ليرى الاشكال بوضوح . انما يحدث تدريجياً بتكون العادات عن طريق الاقتران ان يتجمع اللمس والبصر والشم والسمع وتتحد جميعاً لتؤلف الفكرة العادية عن (شيء ما) بحيث اذا بدا منه مظهر ادى الى توقع مظهر آخر . وحتى في هذه المرحلة يظل الطفل حيناً لا يكاد

يشعر بالفرق بين الاشخاص والاشياء . فالطفل الذي يرضع من الزجاجه احياناً ومن امــه احياناً يشعر الى حين شعوراً متشابهاً نحو الام ونحو الزجاجة . وفي خلال هذه الفترة كلها لا بــد ان تكون التربية بوسائل حسية بحتة ، فمسراتها حسية واهمهــا الطعام والدفء ، وآلامها حسية كذلك . وعادات السلوك تنشأ عن تطلب ما هو مقترن بالسرور وتجنب ما هو مقترن بالالم. وبكاء الطفل بعضه انعكاسي متصل بالالم وبعضه سعي وراء المسرة ، وهــو بالطبع انعكاسي صرف في بادىء الامر . لكن لما كان من الواجب كلما امكن ازالة ما قد يشعر به الطفل من الم حقيقي فلا مناص من ان يقترن البكاء عند الطفل بعواقب سارة ، ولذلك سرعان ما يأخذ الطفل في البكاء بسبب رغبته في مسرة لا بسبب شعوره بألم حسي ، وهذا احد انتصاراته الاولى بذكائه . لكن الطفل مهما حاول لا يمكن ان يصرخ عندئذ نفس الصرخة التي تنبعث عن الم حقيقي . والفرق تعرفه اذن الام المرهفة . واذا كانت فانها تتجاهل الصرخة التي لا تعبر عن الم حسي. اذ من السهل المستلطف ان نسلي الرضيع بالهز او بالغناء لكنه يتعلم بسرعة مدهشة ان يطالب بقدر اكثر فأكثر من مثل تلك المسليات ، وهــذا يؤثر بسرعة على النوم الضروري له ، والنوم يجب ان يستغرق يومه كله فيما عدا اوقات الطعام . وقــد تبدو بعض هذه النصائح قاسية لكن الخبرة دلت على انها تؤدي الى صحة الطفل وسعادته .

لكن ان كانت المسليات التي يقدمها الكبار للرضيع ينبغي ان تظل في حدود معينة فالمسليات التي يستطيع هو الاستمتاع بها بنفسه ينبغي ان تشجع الى اقصى حد . ينبغي من البداية ان يكون لدى الرضيع فرص للرفس ولتمرين عضلاته . ولا يكاد الانسان يتصور كيف ظــل أجدادنا ذلك الامد الطويل على عادة لف الطفل ! فهــي تدل على ان الحنان الوالدي نفسه يصعب عليه مقاومة الكسل ، لان الطفل المطلق الاطراف يحتاج الى عنــاية اكثر ، وبمجرد استطاعة الطفل ان يضبط بصره يجــد لذة في مراقبة الاشياء المتحركة لا سيما ما كان منها يتموج في

الريح . لكن عدد المسليات الممكنة يظل قليلاً الى ان يتعلم الطفل كيف يقبض على الاشياء التي يراها ، فعندما يتدفق عليه السرور ، ويظل مـدة يكون فيها تمرنه على القبض كافياً لادخال السعادة عليه خـلال كثير من ساعات يقظته ، والسرور بالجلال يأتي أيضاً في هذه المرحلة . وقبـل ذلك يتسلط الرضيع على اصابع يديه ورجليه ، وتكون حركة اصابـع الرجلين في اول الامر انعكاسية صرفة ، ثم يكتشف الرضيع ان من الممكن تحريكها حين يريد ، وهذا يفيض عليه من السرور كل ما يشعر بـه المستعمر حين يخضع قطراً اجنبياً ، وهناك تندمج اصابع الرجل في الذات بعـد ان كانت اجنبية عنها . وعندئذ ينبغي ان يستطيع الطفل ان يجد لنفسه تسليات كثيرة اذا كان في متناوله اشياء ملائمة . وأغلب مسليات الطفل هي بالضبط ما تحتاجه تربيته ، بشرط ان يحال بطبيعة الحال بينه وبين السقوط او بلع الدبابيس او الاضرار بنفسه بطريقة ما .

ففي الثلاثة الاشهر الاولى من حياة الرضيع تكون في الجملة مقفرة بالنسبة له الا في اللحظات التي يستمتع بها بالرضاعة . انه اذا كان مرتاحاً ينام ، واذا كان مستيقظاً يكون هناك في العادة شيء يقلقه . ان سعادة الآدمي تتوقف على قدراته العقلية ، لكن هذه لا مخرج لها عند الرضيع الذي دون ثلاثة اشهر ، اذ تعوزه الخبرة والسيطرة العضلية ، والحيوانات الصغار تستمتع بالحياة قبل ذلـك بكثير لانها اكثر اعتماداً على الغريزة وأقل اعتماداً على الخبرة . لكن الاشيـاء التي يستطيعها الرضيع بالغريزة هي من القلة بحيث لا تمد بأكثر من الحد الادنى من المسرة والاقبال . لذلك تشمل الثلاثة الاشهر الاولى كثيراً من الملل والسأم في الجملة ، لكن الملل ضروري لينال الطفل حظاً وافياً من النوم ، فاذا أسرفنا في تسليته فانه لن ينام ما يكفيه .

وخلال فترة الشهرين والثلاثة من العمر يتعلم الطفل ان يبتسم وان يحس نحو الاشخاص غير ما يحس نحو الاشياء ، وفي هـذا السن يصبح في الامكان قيام علاقة بين الطفل وأمه، ففيها يستطيع بل ويبدي بالفعل سروراً عند رؤية

أمه ، ويستجيب استجابات ليست حيوانية صرفة . وسرعان مـا تنمو عنده الرغبة في المدح والاستحسان. وقد ظهرت هذه عند ابني لاول مرة بصفة قاطعة في سن خمسة أشهر حين نجح بعد عدة محاولات في ان رفع من على المنضدة جرساً فيه بعض الثقل، وجعل يدقه وهو يجيل النظر فيمن حوله وعليه ابتسامة الزهو .ومن هذه اللحظة يكسب المربي سلاحاً جديداً هو المدح واللوم . هذا السلاح له قوة خارقة خلال الطفولة كلها لكنه يجب ان يستخدم في حفز الطفل أكثر من اللازم . وليس هناك والد محتمل يستطيع ان يمتنع عن مدح طفله حين يمشي لاول مرة او حين يقول لاول مرة كلمـــة مفهومة . وعلى العموم فكلما تغلب الطفل على صعوبة بعد جهود متصلة كان المدح مكافأة في محلها ، ومن الخير علاوة على ذلك أن تشعر الطفل بأنك تعطف على رغبته في التعلم .

الا ان رغبة الرضيع في التعلم تكون في الجملة من القوة بحيث لا يحتاج الآباء الا الى تهيئة الفرصة . أعـط الطفل فرصة لينمو وستقوم جهوده الشخصية بالباقي . وليس من الضروري تعليم الطفل الحبو او المشي او إي عنصر آخر من عناصر التسلط العضلي اننا بالطبع نعلم الطفل الكلام بالتكلم اليه ، لكني اشك فيما اذا كانت هناك فائدة من تعمد تعليمه الكلمات ، فالأطفال يتعلمون بالسرعة التي تناسبهم ، ومن الخطأ أن نحاول استعجالهم . وأعظم حافز لبذل الجـهد طول الحياة هو تذوق النجاح بعـد ملاقاة الصعوبات الأولى . ويجب ألا تكون الصعوبات من العظم بحيث تؤدي الى القعود ، ولا من الصغر بحيث لا تحفز الى بذل الجهد . هذه قاعدة اساسية من المهد الى اللحد اننا نتعلم عن طريق ما نعمله بأنفسنا ، وعلى الكبار ان يقوموا أمام الطفل بفعل بسيط يود هـــو لو عمله كتحريك جلجلة مثلاً ، ثم ليتركوه بعد ذلك ليستكشف كيف يفعله . ان مـا يفعله غيره ليس الا حافزاً لطموحه ولا يمكن ان يكون في ذاته تربية له .

والانتظام والروتين أهميتها بالغة في بواكير الطفولة ولا سيما في السنة الأولى . ففيما يتعلق بالنوم والأكل والتبرز ينبغي من البدء تكوين عادات منتظمة، وفوق

هذا فمن المهم جداً من الناحية العقلية أن يألف الطفل ما يحيط به ، فذلك يعلم التعرف ويجنب التوتر ، ويوجه شعوراً بالأمن وطمأنينة . وقد كنت أرى في بعض الاحيان ان الاعتقاد في اطراد الفطرة الذي يقولون انه من مسلمات العلم منشأه كله الرغبة في السلامة والأمن . اننا نستطيع ان نقاوم لما هو منتظر،أما ان تغيرت قوانين الفطرة فجأة فاننا نهلك . والرضيع لضعفه يحتاج الى ما يطمئنه ، ويكون أسعد اذا كان كل ما يحدث حوله يبدو كأنه يحدث طبقاً لقوانين ثابتة حتى يمكن التنبؤ به . ويظهر حب المغامرة في اواخر الطفولة. أما في السنة الاولى من الحياة فكل شيء غير عادي من شأنه أن يزعج . لا تدع الطفل يشعر بخوف ما وجدت الى ذلك سبيلاً ، واذا كان مريضاً وقلقت عليه فاخف قلقك بحذر وعناية، لئلا يتسرب منك اليه بالايحاء. تجنب كل ما يمكن أن يهيجه. ولا تذك اهمية الطفل عند نفسه بأن تدعه يلحظ عليك اهتماماً اذا لم ينم أو يأكل كما ينبغي أو لم يتبرز . وهذا ينطبق لا على السنة الاولى وحدها ولكن على السنوات التالية من باب أولى . لا تدع الطفل أبداً يظن أن عملاً طبيعياً ضرورياً كالأكل الذي ينبغي ان يكون لذة ومتعة هو أمر ترغب فيه انت ، وانك تريد منه ان يعمله ليسرك فان فعلت فسرعان ما يحس الطفل أنه حصل على مصدر قوة له جديد ، وينتظر ان يستدرجه الناس الى أعمال كان يجب ان يقوم بها من تلقاء نفسه . ولا تتوهم ان الطفل يعوزه الذكاء اللازم لسلوك هذا المسلك . ان قواه صغيرة ومعارفه محدودة لكن لديه من الذكاء قدر ما لدى الشخص الكبير بالضبط في المواطن التي لا يؤثر فيها صغر قوته أو قلة معرفته . انه يتعلم في الاثني عشر شهراً الأولى أكثر ما سيتعلمه قط في مثلها من حياته ، وهذا يستحيل عليه ان لم يكن لديه ذكاء نشيط فعال .

وعلى العموم : عامل حتى اصغر الاطفال باحترام كشخص سيتبوأ مكانه في الدنيا . لا تضحّ مستقبله في سبيل راحتك الحاضرة ، او في سبيل سرورك بالحفاوة به ، فانهما في الضرر سواء . انه لا بد هنا مما لا بد منه بعد من الجمع بين الحب والمعرفة اذا كنا سنتبع الطريق الصواب .

الخوف

سأتناول في الفصول التالية نواحي مختلفة من التربية الخلقية ، لا سيما في السنوات من الثانية الى السادسة . ان الطفل ينبغي ألا يبلغ السادسة حتى تكون تربيته الخلقية قد تمت تقريباً ، بمعنى أن الفضائل التي سيحتاجها في السنوات التالية ينبغي ان يكونها الولد او البنت من تلقاء نفسه كنتيجة للعادات الصالحة التي وجدت والمطامح التي استثيرت في نفسه بالفعل . اما اذا أهملت التربية الخلقية المبكرة او ساءت فعندئذ فقط يحتاج في الاطوار اللاحقة الى كثير .

و سأخمن ان الطفل قد بلغ من العمر اثني عشر شهراً وهو صحيح سعيد قد أحكم فيه تأسيس الخلق المؤدب بالطرق التي بحثناها في الفصل السابق . سيكون هناك بالطبع بعض اطفال صحتهم سيئة على الرغم من اتباع والديهم كل ما يشير به العلم الحاضر من الاحتياطات ، لكن لنا ان نأمل ان عدد هؤلاء سيتناقص الى حد كبير بمرور الزمن ، وينبغي حتى في يومنا هذا ان يكونوا من القلة بحيث لا يكون لعددهم اهمية اذا كنا قد أحسنا تطبيق ما لدينا من معرفة . ولست اريد البحث فيما ينبغي عمله حيال الاطفال الذين أسيئت تربيتهم المبكرة

فهذه مشكلة يعالجها المعلم لا الوالد، وللوالد على الأخص قد كتب هذا الكتاب .

ينبغي ان تكون السنة الثانية من حياة الطفل سنة سعادة كبرى ، فالمشي والتكلم فتحان جديدان يجلبان معهما احساساً بالحرية والقوة. في كل يوم يتحسن الطفل فيهما[1] ، وعندئذ يصير في استطاعة الطفل ان يستقل في اللعب ويصبح احساسه برؤية الدنيا اشد واوضح من احساس اكثر الناس سياحة في الارض . فالطيور والزهور والانهار والبحار والسيارات والقطارات والبواخر كلها تدخل عليه الابتهاج وتثير فيه اهتماماً شديداً . فحبه الاطلاع لا حد له ، واكثر الجمل ترددا على لسان الطفل في هذاالسن هي (اريد ان ارى) فالانطلاق في حديقة او حقل او على شاطىء البحر يحدث في نفسه نشوة فرح بتحرره بعد حبسه في المهد والعربة . والهضم يكون عادة اقوى منه في السنة الاولى ، والطعام اكثر تنوعاً ، والمضغ فرحة جديدة . لهذه الاسباب كلها تكون الحياة مغامرة لذيذة اذا كان الطفل معتنى به صحيحاً .

على ان زيادة الاستقلال في المشي والجري عرضة لان يأتي بتهيب جديد. ان الرضيع الحديث الولادة من السهل إخافته، وقد وجد الدكتور واتسن وزوجته ان الاشياء التي تزعجه اكثر من غيرها هي الضجات العالية ، واحساسه ان احداً يلقي به[2] : ومع ذلك فهو محمي حماية تامة لا تدع له فرصة للتخوف المعقول، ولو كان في خطر حقيقي لعجز عن دفعه ولما أجداه الخوف فتيلا. وفي خلال السنتين الثانية والثالثة تنشأ مخاوف جديدة . اما الى اي حد ترجع الى الايحاء ، والى

---

(١) قد يكون هذا القول غير دقيق كل الدقة . فمعظم الاطفال تمر عليهم فترات ركود في الظاهر يسبب قلقاً للآباء ، لكن من الراجح ان يكون هناك طوال تلك الفترات تقدم على صور ليس من السهل ادراكها .

(٢) (دراسات في نفسانية الطفولة) ، مجلة العلم الشهرية ، عدد كانون الاول سنة ١٩٢١ ص ٥٠٦ .

اي حد ترجع الى الغريزة ، فنقطة خلافية . وانعدام المخاوف في السنة الاولى ليس قاطعاً في نفي غريزتها ، فان الغريزة يصح ان تنضج في اي سن . ولا يدعي حتى اعظم اتباع فرويد تطرفاً ان الغريزة الجنسية ناضجة عند الولادة. وواضح ان الاطفال الذين يستطيعون الجري في كل مكان احوج الى الخوف من الاطفال الذين لا يستطيعون المشي ، فلن يكون غريباً اذن ان تنشأ غريزة الخوف مع الحاجة اليه . ولهذه المسألة اهمية عظيمة من ناحية التربية. اذا كانت كل المخاوف منشأها الايحاء فان من الممكن منعها باجراء بسيط هو الامتناع عن اظهار الخوف او الكراهة امام الطفل . اما اذا كان بعضها غريزياً فالامر يحتاج الى طرق اعقد .

ويورد الدكتور شلمرز ميتشل في كتابه (طفولة الحيوانات) كثيراً من الملاحظات والتجارب لبيان انه لا يوجد عادة غريزة للخوف موروثة عند صغار الحيوانات[1] ، ففيما عدا القرود وبعض الطيور لا ينظر صغار الحيوانات بأقل انزعاج الى اعداء نوعها من القدم كالحيات مثلاً الا اذا كان الآباء قد علموهم الخوف منها . والاطفال الذين يقل عمرهم عن عام لا يظهر عليهم ابداً اي خوف من الحيوانات . وقد علم الدكتور واتسن احد الاطفال في هذه السن الخوف من الفئران بتكرار دق ناقوس خلف رأسه في اللحظة التي كان يريه فيها فأراً ، وكان الصوت مرعباً ، فصار الفأر مثل الصوت عند الطفل عن طريق الاقتران. لكن يظهر أن الخوف الغريزي من الحيوانات لا أثر له مطلقاً في الشهور الاولى ، كما يظهر ان الخوف من الظلام لا يوجد قط في الاطفال الذين لم يلق في روعهم ان الظلام مرعب . ومن المؤكد أن هناك أسباباً قوية جداً تؤيد الرأي الذي يقول بأن معظم المخاوف التي اعتدنا ان نعدها غريزية هي في الواقع مكتسبة وانها لم تكن لتنشأ عند الصغار لو لم يخلقها الكبار فيهم .

---

(١) علمت بهذا من فقرة نقلها الدكتور بول بوزفيلد في كتابه (الجنس والحضارة) الذي يدافع فيه بجرارة عن نفس وجهة النظر هذه .

وللحصول على ضوء جديد في هذا الموضوع راقبت أولادي أنا بعناية ، لكن نظراً لأنني لم أستطع على الدوام معرفة ما قد يكون المربيات والخادمات قد ذكرنه لهم ، فان تفسير الوقائع كان في كثير من الاحيان موضع شك . وبقدر ما استطعت أن أحكم اتفقت الوقائع مع آراء الدكتور واتسن فيما يتعلق بالخوف في السنة الاولى من الحياة . وفي السنة الثانية لم يظهر طفلاي اي خوف من الحيوانات ، الا البنت كانت تخاف من الخيل الى حين ، ومع هذا فالظاهر أن خوفها كان يرجع الى أن حصاناً ركض فجأة بجانبها محدثاً ضجة عالية . وهي الآن لا تزال في سنتها الثانية ، فما سأذكره عما وراء هذه السن مستمد من ملاحظاتي على أخيها . وقد حدث آخر عامه الثاني أن جاءته مربية جديدة فيها تهيب وإحجام ، وكانت تخاف الظلام بوجه خاص، فسرعان ما اكتسب مخاوفها (وكنا نجهلها فيها في الاول) فكان يفر من الكلاب والقطط ، وينكمش خوفاً ورعباً امام الخزانة المظلمة ، ويطلب الانوار في كل جزء من اجزاء الحجرة عندما يخيم الظلام ، بل كان خائفاً من اخته الصغيرة عندما رآها أول مرة ظناً منه على ما يظهر انها حيوان غريب من نوع مجهول[1] . فكل هذه المخاوف يجوز ان يكون اكتسبها من المربية الهيوب ، وقد تلاشت هذه المخاوف في الواقع بالتدريج بعد ذهاب المربية. على انه كانت هناك مخاوف اخرى لم استطع تعليلها بنفس الطريقة لأنها بدأت قبل مجيء المربية ، وكانت متعلقة بأشياء لا ينزعج منها اي شخص كبير . وكان رأس هذه المخاوف خوفه من كل شيء يتحرك بطريقة غريبة، وعلى الأخص الخيالات واللعب الآلية . وبعد ان لاحظت هذا علمت ان المخاوف التي من هذا النوع طبيعية في الطفولة ، وان هناك اسباباً قوية تحمل على اعتبارها غريزية. وقد ناقش هذا الموضوع وليم اشترن في كتابه (نفسانية بواكير الطفولة) في صفحة ٤٩٤ وما يليها تحت عنوان (الخوف من الغامض) واليك ما يقوله :

---

(١) اعتقد ان هذا الخوف مثل الخوف من اللعب الآلية (انظر ما بعد) فقد رآها اولاً نائمة فظنها لعبة (عروسة) فلما تحركت انزعج .

هناك دلالة خاصة لهذا النوع من الخوف لا سيا بواكير الطفولة قد غابت عن الطبقة القديمة من المشتغلين بنفسانية الطفولة وقد تبينت حديثاً على يدنا ويد غروز اذ يقول في صفحة ٢٨٤ (يظهر ان الخوف من غير المعتاد أرسخ في الفطرة البدائية من الخوف من خطر معروف) واذا التقى الطفل بأي شيء لا يتفق مع المألوف لتصوره كان هناك ثلاثة احتمالات: اما ان يكون الاثر هو من مجانبة المألوف بحيث ينبذ ببساطة كأنه جسم غريب فلا يعيره الوعي ادنى التفات ، واما ان يقطع مجرى التصور العادي قطعاً يسترعي الانتباه من غير أن يبلغ من القوة والعنف مبلغاً يحدث الاضطراب ، فهذا أقرب الى ان يكون استغراباً ورغبة في المعرفة التي هي مبدأ كل تفكير أو حكم او بحث ، واما أن يبغت الجديد القديم بشدة وعنف فيحدث في الافكار المألوفة اختلالا غير منتظر ، من غير احتمال وقوع توازن عاجل ، وعندئذ يعقب رجة يشوبها لون قوي من الاشياء ، وهذا هو الخوف من المجهول الغامض . وقد لاحظ غروز بثاقب نظره ان خوف المجهول يقوم بوضوح على الخوف الغريزي، فهو يناظر ضرورة بيولوجية تفعل فعلها من جيل الى جيل .

ويورد اشترن أمثلة عديدة لخوف الطفل من الغامض فيها الخوف من مظلة تفتح فجأة و (الخوف الذائع من اللعب الآلية) . وبهذه المناسبة نذكر أن اول هذين قوي جداً في الخيل والبقر ، فبه يستطيع الانسان ان يدفع قطيعاً كبيراً الى الهرب لا يلوي على شيء ، كما حققت ذلك بنفسي . ومخاوف ابني التي من هذا النوع كانت تماماً كما يصفها اشترن، فالخيالات التي أخافته كانت خيالات مبهمة سريعة الحركة تطرحها في الغرفة اشياء غير مرئية مارة في الطريق ، كالعربات. وقد شفيته منها بإحداث خيالات بأصابعي على الحائط وعلى الأرض، وجعلته يقلدني فيها، فلم يمض وقت طويل حتى شعر بأنه قد فهم الخيالات وأخذ يجد فيها متعة . كذلك كان الأمر في اللعب الآلية ، لما رأى تركيبها لم يعد يخشاها ، لكن العلاج كان بطيئاً لما كان التركيب الآلي خفياً . وقد أعطاه أحد

الناس وسادة ينبعث منها انين طويل عند الجلوس او الضغط عليهـا ، فأخافته هذه زمناً طويلاً . ولم نعمد في حالة من الحالات الى ابعاد الشيء المخيف ابعاداً ، بل كنا نضعه على مسافة يصير الازعاج عندها ضئيلاً ، وبذلـك استألفناه اليه بالتدريج ، وثابرنا حتى زال الخوف تماماً. والصفة الغامضة التي سببت الخوف في اول الامر كانت هي نفسها تحدث على العموم الابتهاج عندما يتم تغلبه على الخوف. وفي رأيي ان الخوف غير المعقول ينبغي ألاّ يترك ابداً من غير علاج ، بل ينبغي ان يتغلب عليه تدريجياً بالتأليف بين الطفل وبين الصور الضعيفة من ذلك الخوف.

وقد اتخذنا عملية مضادة تماماً لهذه (ولعلنا كنا مخطئين) لمعالجة خوفـين معقولين لم يكن لهما وجود . اني أسكن نصف العام على شاطىء صخري تكثر فيه المهاوي ، ولم يكن الولد يدرك شيئاً من خطر المرتفعات، ولو تركناه لجرى قدماً فوق الجرف هاوياً الى الهشيم .

ففي ذات يوم حين كنا نجلس على منحدر شديد ينتهي بجرف رأسي يهوي الى مائة قدم شرحنا له بهدوء حقيقة علمية بحتة انه ان جاوز الحافـة يسقط وينكسر كما ينكسر الطبق (وكان قد رأى حديثاً طبقاً سقط فتهشم) فجلس ساكناً فترة يقول لنفسه (يسقط، ينكسر) ثم طلب منا ان نبعده عن الجرف. كان ذلك في سن سنتـين ونصف ، ولا يزال عنده منذئذ خوف من المرتفعات يعصمه منها مع مراقبة منا ، لكنه لا يؤمن تهوره لو ترك لنفسه . وهو الان في سن الثالثة وتسعة أشهر يقفز من علو ست اقدام بلا تردد ، ولو تركناه يقفز من علو عشرين لفعل، ومن هذا يتبين بالتأكيد ان تعليمنا اياه الحذر لم يحدث نتائج بالغة ، واني اعزو هذا الى ان كلامنا كان تعليماً لا إيحاء، فلم يكن يشعر بالخوف اثناء التعليم . واني أعد هذا على جانب عظيم من الاهمية في التربية . فالحذر من المخاطر ضروري ، اما الخوف فلا . نعم ان الطفل لا يستطيع ان يحذر المخاطر بدون ان يكون هناك عنصر من الخوف ، لكن هذا العنصر يقل كثيراً حين لا يكون للخوف اثر عند المعلم . فالشخص الكبير الذي يتعهد طفـلاً ينبغي ألا

يشعر قط بالخوف، وهذا أحد الأسباب التي من اجلها ينبغي ان تغرس الشجاعة في النساء كما تغرس في الرجال .

والنموذج التوضيحي الثاني وقع عفواً . في ذات يوم عندما كنت امشي مع الولد (وهو في سن الثالثة وأربعة اشهر) وجدنا ثعباناً في الطريق وكان قد رأى صوراً للأفاعي ، لكنه لم يكن رأى قط أفعى ، ولم يكن يعرف ان الأفاعي تلدغ . لذلك ابتهج حين رأى الثعبان وجرى وراءه لما انساب هارباً ، ولم أمنعه اذ كنت اعرف انه لا يمكن ان يدركه . ولم أقل له ان الافاعي خطرة ، لكن مربيته كانت من ذلك الحين تمنعه من الجري على العشب بحجة انه قد يكون فيه افاعي . وقد نتج عن ذلك ان دب في الطفل خوف طفيف ، لكنه لم يزد عن القدر الذي كنا نراه مستحباً .

والخوف الذي كان التغلب عليه أصعب هو الخوف من البحر. كانت محاولتنا الاولى لحمل الولد على النزول في البحر لما كان عمره سنتين ونصف سنة ، فوجدنا ذلك في اول الامر مستحيلاً . كان يكره برودة الماء، ويخاف من هدير الامواج التي كانت تبدو له على الدوام آتية غير متراجعة . وكان يرفض حتى الاقتراب من البحر عندما تكون الامواج كبيرة . وتلك كانت فترة من فترات تهيّب واحجام . وكانت تزعجه الحيوانات والاصوات الغريبة وأشياء اخرى مختلفة . وقد عالجنا خوف البحر على خطوات . فبدأنا بوضع الولد في غدران ضحلة بعيدة عن البحر حتى صار لا يرتجف من برودة الماء . وفي نهاية الاربعة الاشهر الدافئة كان يجد متعة في التبطيش في الماء الضحل بعيداً عن الموج ، لكنه كان يصيح اذا وضعناه في غدران يصل فيها الماء الى وسطه . وقد عودناه على هدير الأمواج ولفتنا نظره الى ان الامواج بعد ان تقبل تعود فتدبر ، ولم يكن من اثر هذا كله ، وأثر ما كان يراه من ابويه ومن الأطفال الآخرين ، الا ان صار اذا اقترب من الأمواج لا يخاف. واني مقتنع بأن هذا الخوف كان غريزياً،وأكاد أوقن انه لم يتسبب عن ايحاء. وفي الصيف التالي عندما كان في سن الثالثةونصف

استأنفنا المحاولة . كان لا يزال يرهب الدخول في الموج ولم ينفع معه اغراء ولا حض على الاستحمام كما كان الناس جميعاً حوله يستحمون ، فلجأنا الى الطرق العتيقة . كنا اذا جبن نشعره بأنه عار علينا ، واذا تشجع مدحناه وأثنينا عليه . وظللنا اسبوعين نغطسه كل يوم في البحر الى الرقبة على الرغم من مقاومته وصياحه[1] . وكل يوم كانت مقاومته وكان صياحه يتناقصان ، ثم بدأ يطلب وضعه في البحر ، حتى اذا مضى الأسبوعان تحققت غايتنا فلم يعد يخاف البحر . ومن تلك اللحظة تركناه حراً طليقاً ، فكان يستحم من تلقاء نفسه كلما كان الجو مناسباً ، بغبطة وحبور واضحين. ولم يكن خوف البحر قد زال عنه تماماً. وكان للالفة دخل في كبح خوفه . على ان الالفة جعلت الخوف يتناقص بسرعة وقد انقطع الآن تماماً . اما اخته وسنها عشرون شهراً فلم تبد قط اي خوف من البحر ، وهي تجري لتنغمس فيه بدون أدنى تردد .

رويت هذا الامر بشيء من التفصيل لأنه الى حد ما يتعارض مع النظريات الحديثة التي أكن لها احتراماً كبيراً . ان استخدام العنف في التربية ينبغي ان يكون نادراً جداً ، لكن استخدامه للتغلب على الخوف هو في رأيي مفيد احياناً . فعندما يكون الخوف قوياً غير معقول فان الطفل اذا تُرك لنفسه لن يحصل على التجارب التي يتبين له ان اخفاقه لا اساس له . ومتى جرب الوقوف في الموقف المخيف مراراً من غير ضرر يناله ، فانه يألفه ، والالفة تقتل الخوف. وأكبر الظن ان لا فائدة من جعله يجرب الموقف المخوف مرة واحدة ، اذ لا بد ان يجربه مرات تكفي لأن يألفه . واذا كان من الممكن تحقيق الضروري من التجربة بدون استعمال القوة كان ذلك خيراً ، والا فان استعمال القوة قد يكون افضل من بقاء خوف غير مقهور .

وهناك نقطة اخرى. ففي حالة ابني انا ولعله في حالة أبناء غيري ايضاً كان

---

(١) هذه الطريقة هي نفسها التي اتبعت معي عندما كنت في نفس السن ، هي ان بعضهم كان يمسكني من قدمي ويجعل رأسي تحت الماء فترة من الزمن . ومن الغريب ان هذه الطريقة نجحت في تحبيب الماء الي ، ومع ذلك فاني لا انصح باتباعها .

وقع التغلب على الخوف لذيذاً مفرحاً . ان من السهل ايقاظ كبرياء الولد، وحين يفوز بالمدح لشجاعة فيه يظل يشع سعادة سائر اليوم ، وستأتي مرحلة يعاني فيها الولد الهيوب آلاماً مبرحة من احتقار أقرانه له، وعند ذاك يكون اصعب عليه جداً تغيير عاداته . لذلك أرى ان التبكير في كسب ضبط النفس عند الخوف وفي تعليم الطفل الاقدام له من الأهمية ما يكفي لتبرير استخدام طرق فيها شيء من العنف .

والوالدان يتعلمان من اخطائهما ، ولا يكتشف الانسان كيف كان ينبغي أن يربي الاولاد الا بعد أن يشبوا ، لذلك سأروي حادثة توضح مخاطر الاسراف في الجري مع هوى الطفل . كان ولدي وهو في الثانية والنصف يترك لينام في غرفة وحده ، وكان معتزاً فخوراً بترقيته هذه من منامته في المحضن ، وقد استمر في اول الأمر ينام نوماً هادئاً طول الليل حتى قامت ذات ليلة زوبعة مخيفة اقتلعت حاجزاً وطوّحت به بصوت يصم الآذان ، فاستيقظ الولد فزعاً وصاح، فذهبت اليه في الحال فوجدته على ما يظهر كأنما قد استيقظ من حلم مروع ، فتعلق بي وقلبه شديد الخفقان ، وسرعان ما زال عنه الفزع ، لكنه شكا من الظلام ، وكانت عادته في مثل ذلك الوقت من السنة ان ينام خلال ساعات الظلام كلها . وبعد ان تركته عاوده الفزع فيما يظهر بصورة مخففة، فأضأت له مصباحاً ضعيفاً، وكان بعد ذلك يقوم كل ليلة تقريباً صائحاً الى ان تبين آخر الأمر انه انما يفعل ذلك ليستمتع بقيام الكبار اليه يحدبون عليه ، وعندئذ كلمناه بعناية وحيطة ان الظلام لا خطر منه ، وأخبرناه انه اذا استيقظ فما عليه الا ان ينقلب على جنبه ويستأنف النوم ، لأننا لن نأتي اليه الا لأمر ذي بال . فأصغى بانتباه ، ولم يصح بعدها قط الا نادراً لسبب خطير ، وأطفأنا النور ، بالطبع ، ولو جاريناه لتسببنا على الأرجح في اضطراب نومه فترة طويلة ان لم يكن بقية حياته . ولنكتف بهذا القدر من التجارب الشخصية لننتقل الى بحث أعم في طرق ازالة الخوف .

ان اقرب الناس لتعليم الأطفال الشجاعة الحسية بعـــد السنوات الاولى هم أقرانهم من الاطفال ، فاذا كان للطفل اخوة أو أخوات اكبر منه فسيحفزونه اليها بالمثال وباللسان ، وسيحاول هو فعل كل ما يستطيعون فعله . وفي المدرسة يكون الجبن الظاهر محتقراً فلا يكون بالمعلمين الكبار حاجة لتوكيد الأمر . هـــذا هو الحال بين الاولاد على الأقل ، وينبغي ان يكون هو الحال أيضاً بين البنات ، اذ ينبغي ان تكون معايير الشجاعة بينهن عينها كما بين البنين [1] .

وعندما أقول عن الشجاعة انها مستحبة فاني أقصد الشجاعة بتعريفها السلوكي المحض : يكون الرجل شجاعاً اذا عمل أعمالاً قـد لا يتسنى لآخرين ان يعملوها من الخوف ، فاذا لم يشعر بخوف فيها نعمة . اني لا اعتـبر التغلب على الخوف بواسطة الارادة هو وحده الشجاعة الحقيقية ، بل ولا هو خير انواع الشجاعة . ان سر التربية الخلقية الحديثة هو الوصول عن طريق العادات الصالحة الى نتائج كان الوصول (أو محاولة الوصول) اليها فيما مضى هو عـن طريق ضبط النفس وقوة الارادة . ان الشجاعة عـــن ارادة تسبب اضطرابات عصبية كشفت (الصدمة القنبلية) منها عـن امثلة كثيرة ، فيها وجدت المخاوف التي كانت مكبوتة سبيلاً الى الظهور بأساليب لا يدركها الانسان بالتأمل الباطني . ولست اعني أن ضبط النفس يمكن الاستغناء عنه بتاتاً ، بل أرى على العكس ان الانسان لا يستطيع ان يعيش عيشة متسقة بدونه انما الذي أعنيه أن ضبط النفس ينبغي أن يدخر للمواقف غير المنتظرة التي لم تعد التربية لها من قبل . فلو كان من الممكن ان يدرب الناس كلهم ليكون لهم عفواً تلك الشجاعة التي احتيج اليها في الحرب لكان ذلك حمقاً ، لأن الحاجـة اليها كانت عند ذاك بلغت من مخالفة المألوف حداً لو أردنا معه أن نشرب الشباب العادات اللازمة للمحاربين في الخنادق لكان علينا ان نشل من كل نوع آخر من التربية .

---

(١) انظر كتاب بوزفيلد (الجنس والحضارة) في كثير من اجزائه .

يورد المرحوم الدكتور رفرز في كتابه عن (الغريزة والعقل الباطن) خير تحليل نفساني عرفته للخوف ، فهو يشير الى ان احدى طرق مواجهة الخطر في موقف هي التصرف العملي باليد والجسم ، وأن الذين يستطيعون استخدام هذه الطريقة استخداماً وافياً لا يجيش في صدورهم خوف محسوس، وانها لخبرة قيمة، تثير فينا احترام النفس وبذل الجهد معاً، أن ننتقل بالتدريج من خوف في البدء الى مهارة في النهاية . وأمر بسيط مثل ركوب الدراجة يهيء لنا تجربة هـــذا الانتقال في صورة مخففة. وفي العالم الحديث يزداد هذا النوع من المهارة في الاهمية شيئاً فشيئاً تبعاً لازدياد استخدام الآلات فيه ، وأرى أن التدريب على الشجاعة الحسية ينبغي ان يتم بقدر الامكان عن طريق تعليم المهارة في التصرف في المادة والتسلط عليها، لا عن طريق المباريات بين بعض الناس والآخرين. فنوع الشجاعة اللازم لتسلق الجبال أو لقيادة طيارة أو لتسيير سفينة صغيرة في زوبعة يبدو لي أجدر كثيراً بالاعجاب من نوع الشجاعة اللازمة في القتال . لذلك أوثر ان يدرب تلاميذ المدارس بقـــدر الامكان على أنواع من المهارة فيهـا كثير او قليل من الخطر على ان يدربوا على مثل كرة القدم ، فاذا كان لا بد من التغلب على عدو فليكن هذا العدو هو المادة لا بني البشر . اني لا أقصد ان نجمد في تطبيق هذه القاعدة ، وانما اقصد ان يكون لها من الوزن في التدريب الرياضي ما ليس لهـا الآن .

ويوجد بطبيعة الحال ما أكثر سلبية من نواحي الشجاعة الدينية كتحمل الاضرار بغير جلبة ، وهذه يمكن تعليمها للأطفال عن طريق عدم اظهار عطف عليهم أكثر مما ينبغي عندما يحدث لهم بعض الحوادث البسيطة. ان كثيراً من الهلع للحوادث في الكبر يتسبب في صميمه عن تعطش زائد الى عطف الغير ، وفي الناس من يتصنع الأمراض على أمل ان يحدب عليهم غيرهم ويشفق . ويمكن الحيلولة دون نمو هذا الميل في الاطفال أو تلافي نموه بعدم تشجيعهم على الصياح والبكاء كلما أصابهم خدش او رض. ولا تزال تربية المربيات أسوأ كثيراً من هذه

الناحية للبنات منها للبنين ، فضرر اللين مع البنات مثل ضرره مع البنين ، واذا اريد للنساء أن يكن مساويات للرجال وجب ألا يكن أدنى منهم في الاشد من الفضائل .

لننتقل الآن الى ما ليس حسياً صرفاً من صور الشجاعة وهو أهمها ، لكن من الصعب أن ينمى تنمية كافية الا على أساس من صورها الأبسط .

لقد سبق لنا ان مسسنا موضوع الخوف من الغامض بمناسبة الكلام عن ذعر الأطفال . اني أعتقد أن هذا الخوف غريزي وان له أهمية تاريخية عظيمة ، اليه يرجع معظم الخرافات . فالكسوف والخسوف والزلازل والطاعون ومثيلاتها من الحوادث تثير هـذا النوع من الخوف الى مدى كبير بين الناس غير العلميين. وهو نوع خطر جداً من الناحيتين الشخصية والاجتماعية ، ولذلك يستحب جداً اقتلاعه في الصبا ، والترياق الناجع له هو التفسير العلمي . وليس من الضروري أن يفسر كل شيء يبدو غامضاً عند أول نظرة ، فان الطفل بعد عدد معين من التفسيرات سيفترض أن الحالات الاخرى لهـا تفسير أيضاً . وعندئذ يصير من الممكن أن نقول له فيا لا يمكن تفسيره ان التفسير لم يحـن ذكره بعد . والامر المهم ان نوجد فيه بأسرع ما يمكن الاحساس بأن الشعور بالغموض لا يرجع الا الى الجهل الذي يمكنه ان ينفضه عن نفسه بالصبر والجهد الفكري . وانها لحقيقة تلفت النظر ان الاشياء التي تفزع الاطفال في أول الأمر بخواصها الغامضة هـي نفسها التي تملؤهم ابتهاجاً بمجرد زوال الخوف، فالغموض يصبح حافزاً الى الدرس بمجرد ان تزول اثارته للخرافة في النفس . وقد قضى ابني الصغير في سن الثالثة والنصف ساعات كثيرة مستغرقاً على انفراد في دراسة لمضخة الحديقة حتى فهم كيف يدخل الماء ويخرج الهواء وكيف يدخل العكس . والكسوف والخسوف يمكن تفسيرهما بصورة مفهومة حتى للأطفال الصغار جـداً . فكل ما يخيف الطفل أو يثير اهتمامه ينبغي ان يفسر له ما كان الى ذلك سبيل ، فان هذا يحول

الخوف الى اهتمام علمي تحويلاً يتفق تماماً مع الاتجاهات الغريزية ، ويعيد في الفرد ما حدث للجنس البشري في تاريخه .

وهناك بعض المسائل التي تنشأ في هذا الصدد صعبة وتحتـــاج الى كثير من اللباقة ، واصعبها هو الموت. فالطفل سرعان ما يكتشف ان النباتات والحيوانات تموت ، وسيحدث في الغالب قبل ان يصير عمره ست سنوات ان يموت شخص يعرفه ، وسيخطر بباله اذا كان نشيط العقل ان والديه سيموتان ، بل انــه هو سيموت (وهذا اصعب في التصور) . وستؤدي هـــذه الافكار الى طائفة من الاسئلة يتحتم ان يجاب عليها بحذر ، وستكون الاجابة اقل صعوبة على الشخص الذي تتفق اعتقاداته والدين منها على الشخص الذي لا يؤمن بأن هناك حيـاة بعد الموت .

ويجب ان يلقى الجواب بغير اي احتفال كما لو كان الموت شيئاً عادياً طبيعياً ، واذا بدا على الطفل احتقـــار الزهاد للموت . لا تثر انت الموضوع ، لكن اذا أثاره الطفل فلا تتجنبه وابذل كل ما في وسعك لكي تجعل الطفل يشعر ان الامر لا يحيط به سر وغموض ، واذا كان الطفل طبيعياً سليماً فستكفي هذه الأساليب لمنع انشغال فكره . كن في جميع المراحل على استعداد لأن تقول بصراحة كل ما تعتقده بصورة تشعر الطفل ان الموضوع غير جذاب ، فليس في مصلحـــة الصغار ان يصرفوا وقتاً طويلاً في التفكير في الموت

والاطفال بقطع النظر عن المخاوف الخاصة عرضة لقلق غير محصور ، وهذا يرجع في الجملة الى اسراف الكبار في قمعهم ، ولذا فهو الآن اصغر وأقل شيوعاً مما كان عليه من قبل . فالتأنيب المستمر ومنع الضوضـــاء واعطاء تعليمات لا تنقطع في آداب السلوك كانت تجعل الطفولة فترة بؤس وشقاء. اني لأذكر قولهم لي وانا في سن الخامسة ان الطفولة أهنأ ادوار الحياة وأسعدها (كذب في تلك الايام) فكنت أبكي ولا مواسي لي ، وكنت أتمنى الموت واعجب كيف سيلمني

لي ان أتحمل السنوات المقبلة وثقلها . اما اليوم فلا يكاد يتصور في ايامنا هذه ان يقول اي شخص شيئاً كهذا ، فحياة الطفل بطبيعتها تتطلع للمستقبل ، فهي متجهة دائماً الى الامور التي ستصير ممكنة له فيما بعد ، وهذا بعض ما يحفز الطفل الى بذل الجهد . فالذي يتلفت الى الوراء ويمثل له المستقبل أسوأ من الماضي انما يعمل على ان تغيض حياة الطفل من منبعها . ومع ذلك فهذا هو ما كان يفعله الذين لا قلب لهم من الجارين مع العاطفة بتحدثهم الى الطفل عن افراح الطفولة ، ومن حسن الحظ ان أثر كلماتهم لم يدم معي طويلاً ، ففي معظم الاوقات كنت اعتقد ان الكبار لا بد ان يكونوا سعداء تماماً لأنه ليس عندهم دروس ، ولأنهم يستطيعون ان يأكلوا ما يشتهون ، وهذا الاعتقاد كان مقوياً ومشجعاً لي .

والخجل نوع من التهيب يثقل ويضايق ، وهو شائع في انجلترا والصين لكنه نادر فيما عداهما . وهو ينشأ من عدم الاختلاط بالاغراب من جهة ، ومن التشديد في مراعاة آداب السلوك من جهة اخرى . ينبغي بقدر ما تسمح به الظروف ان يعتاد الاطفال بعد السنة الاولى رؤية الغرباء وحمل الغرباء لهم ، اما من حيث آداب السلوك فينبغي في اول الامر ان يلقنوا منها الحد الأدنى الذي لا بد منه لكي لا يصيروا مصدر مضايقة لا تحتمل ، فلأن يسمح لهم برؤية الغرباء بضع دقائق من غير قيد ثم يخرجوا خير من ان يسمح لهم بالبقاء في الحجرة مع توقع التزام الهدوء منهم. لكن من حسن التدبير بعد السنتين الاوليين ان يعلموا كيف يسلون انفسهم بهدوء جزءاً من النهار باللعب بالصور او الصلصال او أجهزة منتسوري او ما شاكل ذلك. وينبغي ان يكون لكل مطالبة لهم بالهدوء سبب يستطيعون فهمه . وألا يعلموا آداب السلوك بصورة مجردة الا عندما يكن ذلك كلعبة مسلية . لكن ينبغي ان يدرك الطفل بمجرد استطاعته الفهم ان للوالدين ايضاً حقوقهما ، يجب عليه ان يترك الحرية لغيره وان يكسب الحرية لنفسه الى اقصى حد مستطاع . ان الاطفال يقدرون العدل بسهولة ، وسيدعون لغيرهم بانشراح ما يدع غيرهم لهم . وهذا هو لب آداب السلوك .

واذا أردت ان تزيل الخوف من طفلك وجب قبل كل شيء ألا يكون عندك انت خوف . فاذا داخلك الخوف من الرعد الشديد فستنتقـل عدوى الخوف منك اليه في اول مرة يسمع فيها الرعد بمحضر منك ، واذا أعربت عن خوفك من الثورة الاجتماعية فسيداخل الطفل خوف أشد لأنه لا يعرف ما تتحدث عنه . واذا كنت تخشى المرض وتتوقعه فكذلك يكون طفلك . ان الحيـاة مليئة بالاخطار لكن العاقل يتجاهل منها ما لا مفر منه ، ويتصرف بحكمة لكن بغير تهيج عواطف ازاء ما يمكن تجنبه منهـا . انك لا تستطيع ان تتجنب الموت ، لكنك تستطيع تجنب الموت بغير وصية ، فاكتب وصيتك وانس انك فان . واتخاذ العدة المعقولة ضد النكبـات امر يختلف تماماً عن الخوف . انه جزء من الحكمة بينما الخوف كله نوع من العبودية . فاذا لم تكن تستطيع تجنب الخوف فاجتهد في منع طفلك من ان يظن ذلك بك ويلمحه فيك. وفوق كل شيء اجعل عنده تلك النظرة الواسعة وذلك التعدد في نواحي الاهتمام الساطع اللذين سيصرفانه في مستقبل حياته عن ان يحمل هم ما يحتمل ان يناله من نكبات ، بهذه الطريقة وحدها تستطيع ان تجعل منه مواطناً حراً في هذا العالم .



- ٥ -

اللعب والتخيل

يكاد حب اللعب يكون أظهر علامة مميزة لصغار الحيوان ، من البشر او من غيرهم، وهو في اطفال البشر مصحوب بسرور لا ينفذ يجدونه في التوهم . واللعب والتوهم حاجة حيوية للطفولة ويجب ان تهيأ الفرصة لهما اذا أريد ان يصح الطفل ويسعد بغض النظر تماماً عما فيهما من منفعة . وهناك مسألتان متصلتان بالتربية في هذا الصدد . الاولى : ماذا ينبغي ان يفعل الآباء والمدارس في سبيل تهيئة تلك الفرصة ؟ والثانية : هل يجب ان يفعلوا اكثر من ذلك ليزيدوا في الفائدة التربوية للألعاب ؟

ولتكن البداية بكلمات قليلة عن نفسانية الالعاب . لقد استوعب غروز علاجها وأورد شترن بحثاً مختصراً في كتابه الذي ذكرناه في الفصل السابق . وفي هذا الموضوع مسألتان منفصلتان : الاولى عن الدوافع الى اللعب ، والثانية عن فائدته الحيوية وهذه أسهلهما . وليس هناك فيما يبدو ما يحمل على الشك في أوسع نظريات اللعب قبولاً، ألا وهي ان الصغار من اي نوع يتدربون في لعبهم ويتمرنون

على وجوه النشاط التي سيكون عليهم ان يضطلعوا بهـا فيما بعد ، فلعب الجراء يشبه بالضبط تهارش الكلاب الا انها لا تعض بعضها بعضـاً بالفعل ، ولعب القطيطات يشبه فعل القطط بالفيران ، والاطفـال يحبون تقليد اي عمل كانوا يراقبونه كالبناء او الحفر ، وكلما زادت اهمية العمل في نظرهم ازداد ميلهم للعبه ، ويلذ لهم عمل كل جديد يمرن عضـلاتهم كالقفز والتسلق والمشي على لوح ممدود ، بشرط ألا يكون شيء من ذلك أصعب مما ينبغي ، على ان هذا وان علل بصفة عامة فائدة نزعة اللعب ، الا انه لا يحيط بكل مظاهرها ولا يصح اعتبـاره تحليلاً نفسانياً لها .

وقد حاول بعض المحللين النفسيين ان يلمحوا في لعب الاطفال رموزاً جنسية ، واني مقتنع بأن هذا مجرد وهم وخيـال . فالحافز الغريزي الأساسي في الطفولة ليس الجنس ولكن رغبة الطفل في ان يصير يافعاً ، او بالاحرى الرغبة في القوة [1] . ان الطفل يلفته ما يرى في نفسه من ضعف بالنسبة الى الكبار ويود ان يساويهم ، واني أتذكر ابتهاج ابني وسروره عندما أدرك انه سيكون رجلاً يوماً ما ، وانني كنت يوماً ما طفلاً ، حتى ليبدو لمن يراه كيف يحفزه لبذل الجهد ادراكه ان النجاح ممكن . والطفل يود وهو صغير جداً ان يفعل ما يفعل الكبار كما يتضح من تقليده لهم ، والاخوة والأخوات الأكبر قليلاً منه نافعون من هذه النـاحية لأن اغراضهم يسهل عليه فهمها ومقدورهم أقرب الى مقدوره . والشعور بالنقص قوي جداً عند الاطفال ، وهو يحفزهم لبذل الجهـد اذا كانوا طبيعيين وكانت تربيتهم كما ينبغي . لكنه قد يصير مصدر شقاء اذا كبتوا او قمعوا . في اللعب شكلان من ارادة الطفل للقوة : الشكل الذي يتألف من تعـلم عمل الاشياء ، والشكل الذي يتألف من التخيل . فكمـا ان الكبير المحروم تستهويه الاحلام والأماني التي لها دلالة جنسية ، كذلك الطفل الطبيعي يستهويه ان يتخيـل في

---

(١) راجع كتاب (الطفل العصبي) لمؤلفه الدكتور كامرون . الطبعة الثالثة ، اكسفورد سنة ١٩٢٤ ص ٣٢ وما يليها .

نفسه ما يدل على القوة ، فهو يحب ان يكون عملاقاً او أسداً او قطاراً ، ويحب في تزييه ان يدخل على غيره الرعب . ولما قصصت على ابني قصة جاك قاتل العمالقة حاولت ان احمله على ان يكون جاك لكنه أبى الا ان يكون العملاق ، ولما قصت عليه امه قصة ذي اللحية الزرقاء أصر على أن يكونه ، واعتبر أن معاقبته زوجته على تمردها كان عدلاً ، وأصبح يكثر في لعبه من قطع رؤوس السيدات . سيقول اتباع فرويد جنون القسوة على النساء ، لكن ابني كان يجد نفس اللذة في ان يكون عملاقاً يأكل الأولاد الصغار ، أو قاطرة تجر الأحمال الثقال . فالقوة لا الجنس كانت العنصر المشترك في هذه التخيلات . في ذات يوم عندما كنا عائدين من مشية قلت له على سبيل المزاح الظاهر اننا ربما وجدنا المستر تد ليونكس قد استحوذ على بيتنا وربما رفض السماح لنا بالدخول ، فظل بعد ذلك مدة طويلة يقف على مدخل البيت مدعياً أنه المستر تد ليونكس ويأمرني ان أذهب الى بيت آخر ، وكان ابتهاجه بهذه اللعبة لا حد له . ومن الواضح ان مصدر ابتهاجه كان تخيله القوة في نفسه .

ومع ذلك فمن المبالغة في التبسيط ان نفترض ان ارادة القوة هي المصدر الوحيد للعب الاطفال، فانهم يلذ لهم تصنع الرعب، وربما كان ذلك راجعاً الى ان علمهم بأن لعبهم وهمي يزيد في شعورهم بالأمن والسلامة . اني أحياناً أزعم لابني انني تمساح جئت لآكله فيصيح صيحة منكرة تحملني على التوقف ظنا مني انه قد خاف فعلاً، لكنه في اللحظة التي أتوقف فيها يقول : (يا أبت ارجع تمساحاً) . وجزء كبير من سرور التوهم تلذذهم وفرحهم بتمثيل الاخطار ، وهو نفس ما يجعل الكبار يحبون القصص والمسرح . واني اعتقد ان التشوف ، والاستطلاع له دخل في كل هذا، فان الطفل عندما يلعب «الدببة» يشعر كأنه يتعلم شيئاً عنها. وعندي ان كل دافع قوي في حياة الطفل يبدو في لعبه ، فالقوة لا تغلب على لعبه الا بمقدار ما تغلب على رغباته .

واجمع الكل فيما يتعلق بالقيمة التربوية للعب على امتداح اللعب الذي يكسب

استعدادات ويمنح نزعات . اما لعب التصنع والتوهم فكثير من المحدثين يرتابون فيه ، وهم يعتبرون احاديث النفس والاماني في حياة الكبار شيئاً يشبه المرض ، وبديلاً من الجهود التي عليهم بذلها في عالم الواقــع . وبعض سوء الظن بأحاديث النفس وامانيها عند الكبار قد تعدى الى تخيلات الاطفال ، وهذا في رأيي خطأ محض . ان المعلمين المنتسوريين يكرهون ان يحيل الاطفال اجهزتهم الى قطارات او بواخر او ما الى ذلك ، ويسمى هذا عندهم خيالاً مضطرباً ، وهم على حــق تماماً لان ما يفعله الاولاد من هذا ليس في الحقيقة لعباً، وان كان عندهم لا يختلف عن اللعب في شيء . ان الطفل يرى في الجهاز تسلية، لكن القصد منه هوالتعليم، وما التسلية هنا الا وسيلة ، اما في اللعب الحقيقي فالتسلية هي القصد المسيطر ، فاذا ما صرف الاعتراض على (الخيال المضطرب) الى اللعب الحقيقي كان ذلك في رأيي غلواً وتجاوزاً . ومثل هذا الكلام يقال في الاعتراض على التحدث الى الاولاد على الجنيات والعمالقة والساحرات والبساط السحري وما الى ذلك . اني لا استطيع ان اعطف على المتزمتين الزاهدين الا في الحق ، اكثر مما اعطف على غيرهم من المتزمتين الزاهدين. ومن القول الشائع ان الاطفال لا يميزون بين التخيلي والحقيقي ، لكني لا ارى سبباً يحمل على اعتقاد هذا . اننا لا نعتقد ان هملت كان له وجود ، لكن لو ان رجلاً استمر يذكرنا بذلــك ونحن نستمتع بالرواية لضايقنا وأحفظنا . كذلك الاطفال يضايقهم ان يذكرهم بالحقيقة مذكر لا ذوق عنده اثناء لعبهم التخيلي ، لكنهم لا ينخدعون به اقل انخداع .

الحق مهم ، والخيال مهم ، لكن الخيال اشد تبكيراً في النمو التاريخي سواء في ذلك تاريخ الفرد او تاريخ الجنس . والطفل ما دامت حاجته البدنية مكفية فانه يجد اللعب احسن وادعى الى اهتمامه من الحقيقة . وهو في اللعب ملك يحكم في ارضه بقوة تفوق حقاً قوة اي ملك في الارض . اما في الحقيقة فان عليه ان يذهب للفراش في وقت معين ، وان يطيع طائفة من التعليمات المضايقة . وهــو يغتاظ عندما يحمل عدم التفكير من لا خيال له من الكبار على التدخل في تنظيم

روايته ، فاذا ما بنى حائطاً لا يستطيع ان يرقاه حتى اكبر العمالقة وجئت انت تتخطاه في استهتار ، استاء منك . ولما كان نقصه عن غيره من الناس طبيعياً وليس مرضياً كان التعويض عن هذا النقص في الوهم طبيعياً ايضاً وليس مرضياً. ان ألعابه لا تشغل من وقته ما يصح ان يستخدمه فيما هو اجدى ، فلو ان كل ساعاته صرفت في الجد لصار سريعاً كتلة اعصاب محطمة . ان الكبير الذي يغرق في الاحلام والاماني يصح ان ينصح بأن يجاهد في سبيل تحقيقها ، لكن الطفل لا يستطيع تحقيق احلام من حقه ان يحملها ، ثم هو لا يعتبر خيالاته واوهامه بديلاً دائماً من الواقع. انه على عكس ذلك يؤمل ويرجو ان يحولها الى واقع في الوقت المناسب.

ان من الخطأ الخطير ان يخلط الانسان بين الحق والواقع. ان حياتنا لا تسيطر عليها الحقائق وحدها بل تسيطر عليها الآمال ايضاً. فالصدق الذي لا يرى سوى الواقع هو سجن للروح البشرية . ان الاحلام لا تسترذل الا اذا جعلها الكسل بديلاً عن جهد لازم لتغيير الواقع، اما اذا كانت حافزاً الى بذل الجهد فانها تؤدي غرضاً حيوياً حين تجسد للانسان مثله العليا ومطامحه . فقتل التخيل في الطفل هو بمثابة جعله عبداً للواقع الموجود، هو بمثابة جعله كائناً مشدوداً الى الارض عاجزاً عن التسامي الى السماء . ولعلك تقول : هذا كله حسن جميل ، ولكن ما علاقته بالعمالقة يأكلون الاطفال او بذي اللحية الزرقاء يقطع رؤوس زوجاته ؟ هل سيكون لمثل هذه الاشياء وجود في سمائك ؟ ألا يجب ان يطهر الخيال ويسمو قبل ان يعين على اي غرض صالح ؟ كيف تستطيع وانت من محبي السلم ان تسمح لولدك البريء ان يتلذذ ويتمتع بفكرة ازهاق الارواح البشرية؟ ام كيف تستطيع ان تبرر سروراً مستمداً من غرائز وحشية يجب على الجنس البشري ان يشب عنها ؟ كل هذا أتخيله قد جال بخاطر القارىء . ولأهمية المسألة سأحاول ان ابسط الاسباب التي تحملني على ان اتخذ وجهة نظر اخرى .

ان التربية عبارة عن زرع الغرائز وتنميتها لا قمعها . والغرائز البشرية مبهمة

جداً ، ويمكن ارضاؤها بطرق شتى ، ومعظمها يحتاج في سده الى مهارة مـا ، فالكريكيت[1] وكرة السلة يرضيان غرائز واحدة ، لكن الولد يلعب منهما مـا تعلمه . ومن ثم كان السر في التعليم فيما يتعلق بالاخلاق ان يعطى الرجل من انواع المهارة المختلفة ما يؤدي الى استخدامه غرائزه استخداماً نافعاً . فغريزة القوة ، التي يرضيها في الطفل ارضاء فطيراً ان يجعل من نفسه ذا اللحية الزرقاء ، يمكن في مستقبل حياته ان تجد ارضاء مهذباً في الاكتشاف العلمي او الاختراع الفني او تنشئة اطفال يفخر بهم او في اي نوع من انواع النشاط النافعـة الكثيرة . واذا كان كل ما يعرفه الرجل هو كيف يحارب ، فان ارادته القوية ستجعله يبتهـــج بالمعارك ، لكن اذا برع في اعمال اخرى فسيجد رضا نفسه فيها . اما اذا كانت ارادته القوية قد قتلت في مهدها حين كان طفلاً ، فسينشأ كسولاً لا ينفع ولا يضر . وهذا النوع من الصلاح الخائر ليس الذي تحتاجه الدنيا او الذي ينبغي ان نوجده في اطفالنا . ومن الطبيعي لهم من الوجهة الحيوية حين يكونون صغاراً الا يملكون ضراً ان يعيشوا في خيالهم عيشة اجدادهم الاقدمين المتوحشين ، ولا تخش ان يبقوا في هذا المستوى ما دمت تسهل لهم سبـل المعرفة والمهارة اللازمتين لما هو أرقى من اوجه الرضا .

لقد كنت احب وانا طفل ان انقلب رأساً على عقب ، ولست افعل ذلـك قط الآن وان كنت لا اعد ذلك إثماً لو فعلته . كذلك الطفل الذي يلذ له ان يكون ذا اللحية الزرقاء سيشب عن هذا وسيتعلم ان يلتمس القوة في سبـــل اخرى . واذا كان خياله قد حفظ حياً نشيطاً في الطفولة بالمؤثرات المناسبة لتلك المرحلة ، فالراجح الغالب ان يظل حياً نشيطاً في السنوات المقبلة التي يستطيع فيها ان يتخذ من الاساليب ما يناسب الرجولة . ان من العبث ان نقحم الافكار الخلقية في سن لا يمكن ان تلقى فيها استجابة ، ولا تكون فيها لازمة لتوجيـه

---

(١) الكريكت : لعبة رياضية بكرة ومضرب خاص .   المترجم

السلوك وضبطه . ان الاثر الوحيد لهذا الاقحام هو السأم وعـــدم التأثر بنفس الافكار حين تأتي السن التي يمكن ان يكون للافكار الخلقية فيها اثر فعـــال . وهذا سبب من الاسباب التي تجعل دراسة نفسانية الطفولة ذات اهمية حيوية في التربية .

ان الالعاب التي تأتي ما بعد الطفولة تختلف عن ألعـاب بواكير الطفولة بما يدخلها من عنصر المنافسة الذي يتزايد بتقدم السن . ففي الاول يكون لعب الطفل انفرادياً اذ من الصعب على رضيع ان يشترك مع اخوته وأخواته الكبار في ألعابهم ، لكن اللعب في جماعة حين يصبح ممكنـاً يكون ألذ وألطف بحيث لا يبقى لسرور اللعب الانفرادي موضع . وقد علقت التربية الانجليزية لأبنـاء الطبقات العليا ولا تزال تعلق أهمية خلقية عظيمة على الالعـاب المدرسية ، وفي رأيي ان هناك بعض المبالغة في وجهة النظر البريطانية المتواضع عليها ، وان كنت اسلم بأن للالعاب مزايا معينة هامة . انهـا مفيدة للصحة بشرط ألا تدق اكثر من اللازم ، فان المهارة الشاذة اذا بولغ في تقديرهـا اسرف خيرة اللاعبين فيها وتراخى الآخرون حتى يوشكوا ان ينقلبوا متفرجين. والالعاب تعلم الاولاد والبنات ان يتحملوا الاصابات بغير جلبـــة ويتعرضوا للتعب الشديد في بشر . لكن المزايا الاخرى التي تعزى اليها تبدو لي وهمية الى حد كبير . فهي فيما يقال تعلم التعاون لكنها في الواقع لا تعلمه الا في شكله التنافسي ، وهذا هو الشكل الذي يحتاج اليه في الحرب ، لا في الصنـــاعة ولا في النوع الصحيح من العلاقات الاجتماعية . وقد جعل العلم من الممكن ان يحل التعـاون الفني محل التنـافس في الاقتصاديات وفي السياسة الدولية كلتيهما ، كما جعل التنافس (في شكل حرب) أخطر بكثير مما كان عليه . لهذه الاسباب كانت الانسانيـة في الوقت الحاضر أحوج منها في الماضي الى بث فكرة المغامرات التعاونية التي يكون فيها (العدو) هو الطبيعة المادية ، بدلاً من المغامرات التنافسية التي يكون فيها من البشر غالبون ومغلوبون . ولست أريد ان أؤكد هذه الوجهة اكثر مما ينبغي لأن التنـــافس

طبيعي في الانسان ولا بد له من مخرج ، وليس مخرج افضل ولا أبرأ من الالعاب والمباريات الرياضية ، وهذا سبب صحيح لعدم منع الالعاب ، لكنه ليس سبباً صحيحاً لرفعها الى مكان رئيسي في المنهج المدرسي .

لقد تناولت بالكثير في فصل سابق عن اهمية التغلب على الخوف وإيجاد الشجاعة، لكن الشجاعة يجب ألا تلتبس بالوحشية فالوحشية هي السرور بفرض ارادة الانسان على غيره من الناس ، والشجاعة هي عدم المبالاة بالنكبات الشخصية . ووددت لو علمت الاولاد والبنات كلما سنحت الفرصة ، كيف يسيرون السفن الصغيرة في بحر مضطرب بالزوابع وكيف يغطسون في الماء من علو وكيف يقودون السيارة بل والطائرة . ووددت لو علمتهم ابتناء الآلات والتعرض للخطر في التجارب العلمية . ووددت لو جعلت الطبيعة الجمادية هي الخصم في اللعب ما كان الى ذلك سبيل ، فان ارادة القوة تستطيع ان تجد في هذا النضال من الرضا ما تجده في منافسة الأناس. والمهارة المكتسبة بهذه الطريقة أنفع من المهارة في الكريكت او كرة القدم ، والخلق الذي ينشأ عنها اكثر موافقة لقواعد الاخلاق الاجتماعية . والمذهب القائل بالالعاب الرياضية يتضمن تقليلاً من شأن الذكاء بغض النظر عن الناحية الخلقية . ان بريطانيا العظمى آخذة في فقدان مركزها الصناعي بل قد تفقد امبراطوريتها بسبب غباوتها وعدم تقدير أولي الامور فيها للذكاء وعدم تشجيع اهله. كل هذا متصل بالتعصب للالعاب والمبالغة في اكبار أهميتها ، ودلالته أعمق من هذا بالطبع ، فالاعتقاد بأن مقياس قيمة الفرد هو سجله الرياضي علامة من علامات فشلنا العام في ادراك حاجتنا الى المعرفة والتفكير للاحاطة بالعالم المعقد الحديث .

وتوجد ناحية اخرى من نواحي الالعاب المدرسية تعتبر في العادة حسنة ولكني أراها في الجملة سيئة ، أعني كفايتها في تقوية (روح الجماعة) . فأولو الامر يحبون (روح الجماعة) لأنها تعينهم على استخدام بواعث سيئة للقيام بأعمال يعدونها حسنة ، ان من السهل اذا احتيج الى جهود جماعة ان يحفزوا الى بذلها

بإنماء الرغبة في التفوق على جماعة اخرى . فانك اذا رغبت في حمل حي من أحياء مدينة على تحسين الوسائل العامة للعناية بالاطفال كان عليك ان تبين ان نسبة وفيات الاطفال في حي مجاور قد انخفضت ، واذا أردت ان تغري صاحب مصنع باستخدام عملية جديدة ظاهر انها احسن من القديمة كان عليك ان تؤكد له خطر المنافسة ، واذا أردت ان تقنع وزارة الحربية بأن قدراً متوسطاً من المعلومات الحربية مستحب في القواد ذوي الرتب العالية ، ولكن لا ، فليس الى ذلك سبيل حتى ولا بإثارة الخوف من الهزيمة لتأصل تقاليد (الأسياد) المترفين[1]. فنحن لا نعمل شيئاً لتشجيع روح الانشاء والبناء لذاتها او لحمل الناس على الاهتمام باجادة عملهم ولو لم يكن في ذلك ضرر بأحد . ولنظامنا الاقتصادي دخل في هذا اكثر من الالعاب المدرسية ، لكن الالعاب المدرسية كما هي الآن تقوم على روح المنافسة ، فاذا أريد ان تحل محلها روح التعاون كان من الضروري احداث تغيير في الالعاب المدرسية . لكن ايفاء هذا الموضوع حقه يخرجنا بعيداً عن نطاق بحثنا. فاني لا أنظر الآن في بناء الدولة الصالحة ولكن في بناء الفرد الصالح بقدر ما تسمح به الحال في الدولة القائمة بالفعل ، نعم ان تحسين الفرد وتحسين الجماعة يجب ان يسيرا يداً في يد ، لكن الفرد هو الذي يعنى به بوجه خاص من يكتب في التربية .



---

(١) انظر (الكتيبة السرية) بقلم الكابتن فرديناند توهي (موري ، ١٩٢٠) الفصل السادس .

- ٦ -

خاصية التنشئة

سبق لنا ان نظرنا في موضوع هذا الفصل عرضاً فيما يتعلق باللعب ، ونريد الآن ان ننظر فيه لذاته .

ان رغبات الاطفال الغريزية كما رأينا مبهمة ، وتستطيع التربية والفرص أن تصرفها الى سبل شتى ، فلا الاعتقاد القديم في الخطيئة الاصلية ولا ايمان روسو بالفضيلة الفطرية بالذي يتفق مع الواقع ، ان مادة الغريزة الخام ليس لها صفة خلقية ويمكن تشكيلها اما للخير واما للشر بتأثير البيئة . وهناك ما يدعو الى تفاؤل معتدل في ان معظم غرائز الناس ، بصرف النظر عن المرضى منهم ، تكون في أول الامر قابلة للتشكل اشكالاً صالحة، ولو اعطيت الحالات المرضية ما ينبغي لها من التقويم العقلي والبدني في سنواتها الأولى لقل عددها جداً . وفي مقدور التربية الصحيحة أن تجعل العيش طبق الغريزة ميسوراً ، لكنها ستكون عندئذ غريزة مدربة مهذبة ، لا تلك النزعة الفطرية غير المشكلة التي هي كل ما تمدنا به الطبيعة . والمهذب العظيم للغريزة هو المهارة : المهارة التي تمدنا بأنواع من

الرضا دون انواع. أعط الانسان الانواع الصالحة من المهارة يصر فاضلا، وأعطه الأنواع الخاطئة أو لا تعطه مهارة ما يصبح فاجراً .

هذه الاعتبارات العامة تنطبق بصفة خاصة على ارادة القوة ، فنحن جميعاً نحب ان نعمل شيئاً ما ، ولكننا فيما يتعلق بحب القوة لا يهمنا ماذا نعمل . وعلى العموم فكلما صعب المعمول زاد سرورنا به ، فالناس يحبون الصعب من الصيد ويعرضون عن صيد الطائر الجاثم لسهولته . وقد اخترت هذا المثل لأن الانسان ليس له فيه غاية السرور بهذا الوجه من النشاط لكن المبدأ نفسه ينطبق في كل موضع . لقد احببت الحساب حتى تعلمت اقليدس ، واحببت اقليدس حتى تعلمت الهندسة التحليلية ، وهلم جراً . والطفل يبتهج في أول الامر بالمشي ثم بالجري ثم بالقفز والتسلق . فما نستطيع ان نعمله بسهولة يصير عادياً لا يثير فينا الاحساس بالقوة ، انما الذي يذيقنا نشوة النجاح هو المهارة الحديثة الاكتساب ، او المهارة التي لم نتمكن منها بعد ، وهذا هو السبب في ان ارادة القوة لا نهاية لتكيفها تبعاً لنوع المهارة التي يعلمها الانسان .

والبناء والهدم كلاهما يرضي ارادة القوة ، لكن البناء عادة أصعبهما ولذا فهو ارضى للشخص الذي يستطيعه . ولن احاول ان أعرف البناء والهدم تعريف المتحذلقين ، لكني سأفترض على وجه التقريب اننا نبغي عندما نزيد في الطاقة الامكانية للمجموعة التي هي موضع اهتمامنا ، ونهدم عندما ننقص تلك الطاقة . وبتعبير اقرب الى لغة علم النفس : نحن نبني عندما ننتج بنية طبق تصميم سابق، ونهدم عندما نطلق القوى الطبيعية لتغير من بنية موجودة ، غير مهتمين بما تكون عليه البنية الجديدة . ومهما يكن الرأي في هذه التعاريف فاننا كلنا نعرف في عملنا متى يعتبر النشاط بنائياً ، اللهم الا في حالات قليلة يزعم فيها الشخص انه يهدم ليبني من جديد ، ولسنا على ثقة من اخلاصه فيما يدعي .

واذ كان الهدم اسهل فان العاب الأطفال تبدأ به عادة ولا تنتقل الى البناء الا

في مرحلة تالية ، فالطفل الذي يلعب على الرمل بجردل يحب من الكبار ان يصنعوا له فطائر رملية ليهدمها بجرافه ، لكنه بمجرد استطاعته عمل الفطائر الرملية بنفسه يبتهج بصنعها ولا يسمح لأحد بهدمها . والطفل عندما يحصل على لبن اللعب للمرة الاولى يحب ان يهدم ما يبنيه الكبار من ابراج ، لكنه بعد ان يتعلم البناء بنفسه يصبح فخوراً معجباً بما يبني ، ولا يحتمل ان يرى جهوده المعمارية قد استحالت الى اكوام . فالواقع الذي يجعل الطفل يتلذذ باللعب واحد تماماً في المرحلتين ، لكن ما استحدثه من مهارة مكتسبة غير النشاط الناتج عن هذا الدافع .

وتنشأ البدايات الاولى لكثير من الفضائل من تذوق سرور القدرة على البناء ، وعندما يرجوك الطفل ان تدع بناياته سليمة تستطيع بسهولة ان تفهمه ان عليه ألا يهدم بنايات غيره ، وبهذه الطريقة تستطيع ان تخلق فيه احتراماً لعمل الغير ، اي لمصدر الملكية الخاصة الوحيد الذي لا ضرر فيه من الوجهة الاجتماعية ، وبذلك تمد الطفل ايضاً بما يحفزه الى الصبر والمثابرة والملاحظة ، وهي الصفات التي بدونها لن ينجح في بناء برجه الى العلو الذي تتوق اليه نفسه . وينبغي في اللعب مع الاطفال ألا تبني بنفسك الا ما يكفي لاثارة الطموح فيهم ولبيان طريقة البناء ، فاذا بلغت هذا فاترك البناء لجهودهم انفسهم .

واذا كان في استطاعة الطفل ان يصل الى حديقة ، فمن السهل ان ترقى ملكته البنائية الى شكل أدق وأعقد . ان اول ما ينزع اليه الطفل في الحديقة ان يقطف كل زهرة تجذبه ، ومن السهل ان نكفه عن هذا بالمنع ، لكن مجرد المنع لا يكفي للتربية ، فان المطلوب ان نوجد في الطفل نفس الاحترام للحديقة الذي يحول بين الكبار وبين قطف الزهور جزافاً ، واحترام الكبار لها راجع الى ادراكهم مقدار العمل والجهد اللازمين لانتاج ما يسرهم منها . ومن الممكن عندما يبلغ الطفل الثالثة من عمره ان يعطى ركناً من الحديقة يشجع على البذر فيه ، فعندما تنبت بذوره وتزهر تبدو له الازهار ثمينة معجبة ، وعندئذ

يستطيع ان يدرك ان ازهار امه ايضاً يجب ان تلقى منه عناية وحفظا .

وأسهل طريقة تؤدي الى اجتثاث القسوة العمياء هي ايجاد الاهتمام بالبناء والنماء . ان كل طفل تقريباً يرغب في قتل الذباب وغيره من الحشرات بمجرد وصوله الى السن المناسبة ، وهذا يؤدي به الى قتل حيوانات اكبر وفي النهاية الى قتل البشر . ففي الاسرة الانجليزية من الطبقة العالية يعتبر قتل الطيور موضع تقدير وثناء ، كما يعتبر قتل الرجال في الحرب اشرف الحرف . ووجهة النظر هذه تماشي الغريزة التي لم تهذب ، غريزة الذين ليسوا على شيء من المهارة البنائية ، فعجزوا عن ان يجدوا اي عمل بريء تتمثل فيه ارادتهم للقوة . انهم يستطيعون ان يميتوا طيور الغاب ويضيقوا على المستأجرين الخناق ، ويستطيعون اذا سنحت فرصة ان يرموا بالرصاص كركدناً او المانيا . اما الفنون الأنفع فليسوا منها على شيء ، لأن آباءهم ومعلميهم ظنوا انه يكفي ان يجعلوا منهم انجليزاً سادة . اني لا اعتقد انهم يولدون أغبى من غيرهم من المواليد ، وانما ترجع نقائصهم فيما بعد الى سوء التربية وحدها . فلو انهم من اول العمر أرشدوا الى تقدير الحياة بمراقبتهم ترعرعها مراقبة المالك العطوف ، او انهم اكتسبوا من المهارة البنائية اشكالاً ، او انهم حملوا على ان يدركوا في تخوف كيف يسهل تحطيم ما بني في الزمن الطويل بالحذر الكثير — لو ان هذا كله كان جزءاً من تربيتهم الخلقية الاولى لما كانوا على مثل هذا الاستعداد لهدم ما بناه الآخرون ورعوه بالكد والجهد . والمربي العظيم من هذه الناحية في الحياة المقبلة هو الأبوة بشرط ان تنبه غريزتها تنبيهاً كافياً ، لكن تنبيهها يندر بين الاغنياء لأنهم يتركون رعاية اطفالهم لمحترفين مأجورين ، ولذلك لا نستطيع ان ننتظر حتى يصيروا آباء قبل ان نبدأ في استئصال ميولهم الهدمية .

ان كل مؤلف استخدم خادمات جاهلات يعرف ان من الصعب (وقد يود الجمهور لو كان مستحيلا) ان يكبح شغفهم بإيقاد النار بأصول مؤلفاته ، وما كان ليخطر على بال زميل في التأليف ان يفعل مثل هذا ولو كان عدواً حسوداً

لأنه تعلم بالخبرة قيمـة مثل تلك الاصول . كذلك الولد الذي له حديقة لن يطأ بقدميه احواض زهور الناس، والولد الذي له حيوانات أليفة يعزها يمكن تعليمه احترام الحياة الحيوانية ، واحترام الحيـاة البشرية قريب من قلب كل من عني بأولاده . ان ما نقاسيه في العنـاية بأولادنا من نصب هو الذي يفجر في نفوسنا الحنان الوالدي الأقوى ، اما الذين يتجنبون هـذا النصب فيصيب غريزة الأبوة فيهم من الضمور ما يجعلها مجرد احساس بالتبعة ، على ان الوالدين يكونون أجدر وأقرب ان يعنوا بأطفالهم اذا كانت نزعاتهم البنـائية قد نميت فيهم الى تمامها ، فلهذا السبب ايضاً يستحب جداً الالتفات الى هذه الناحية من التربية .

اني عندما اتكلم عن ملكة البناء لا اقصد البناء المادي وحده فان اعمالاً كالتمثيل والغناء الجوقي تستلزم بناء تعاونياً غير مادي ، وهي تروق كثيرين من الاطفال والاحداث وينبغي تشجيعها (لا فرضها) . ومن المستطاع حتى في الامور الذهنية البحتة ان يكون للانسان ميل الى البناء او الهدم . وتعليم الآداب القديمةيكاد كله يقوم على النقـد ، فيه يتعلم الصبي انيتجنب الاخطاء. وان يحتقر من يقعون فيها ، وهـذا من شأنه ان يوجد نوعاً من الحرص على الصواب يحل فيه احترام رأى الثقات محل الابتكار ، فاللاتينية الصحيحة قـد حددت وانتهى الامر، فهي لغة فرجيل وشيشرون . اما العلم الصحيح ففي تغير مستمر ، وللشاب القدير ان يتطلع الى المساهمة في هذا التغير، فوجهة النظر التي توجدها التربية العلمية اقرب ان تكون الى البناء أميل من تلك التي توجدهـا دراسة اللغات الميتة . فحيثما كان تجنب الخطأ هو رأس ما يرمى اليه في التربيـة مالت الى ايجاد طراز من العقلية لا يجري فيه دم ، لذلك ينبغي ان نضع امـام جميع القديرين والقديرات من الفتيان والفتيات ان يتطلعوا الى استخدام معارفهم في عمل فيه بعض المغامرة . وما اكثر ما ينظر الى التربية العالية كأنما وظيفتهـا منح ما يشبه السلوك الحسن ، أي منح مجرد عرف سلبي نتجنب به أخطـاء السلوك . ففي مثل هذه التربية تنسى ملكة البناء، ويكون الطراز الذي تخرجه

من الناس في العادة ، كما قد ينتظر ، طراز يحرص على السفاسف غير مغامر ولا كريم . وكل هذا يتجنب اذا جعل العمل الايجابي هدف التربية .

وينبغي في أواخر سنوات التربية ان تنبه ملكة البناء الاجتماعي ، وأقصد بذلك ان الذين فيهم كفاية من ذكاء ينبغي ان يشجعوا على استخدام خيالهم في استنباط اساليب اجدى وانفع في استغلال القوى الاجتماعية الموجودة بالفعل او في خلق قوى جديدة . ان الناس يقرأون جمهورية افلاطون لكنهم لا يصلون بينها وبين السياسة الجارية بصورة ما . ولما قلت ان الحكومة الروسية في سنة ١٩٢٠ كان لها مثل عليا تكاد تكون عين مثل جمهورية افلاطون دهش الافلاطونيون والبلاشفة معاً وامتعضوا . وصور النظام الاجتماعي يمكن ان تضرب لها امثال كثيرة أكثرها شيوعاً القالب والآلة والشجرة ، فالأول يمثل التصورات الجامدة للمجتمع كتلك التي كانت في سبارطة والصين القديمة ، والتي تقتضي ان تصب الطبيعة البشرية في قالب معد لتجمد على شكل مرسوم من قبل . فالرجل الذي يطغي على نظرته هذا التشبيه تكون له نظرة سياسية من نوع معين جامد لا يلين ، وصارم لا يعفو . والرجل الذي يشبه المجتمع بالآلة أقرب الى العصر الحديث ، اليه ينتسب كل من رجل الصناعة ورجل الشيوعية ، فكلاهما لا تعنيه الطبيعة البشرية ، واغراض الحياة عندهما بسيطة تتلخص عادة في زيادة الانتاج الى اقصى حد ، وتحقيق هذه الاغراض البسيطة هو المقصود عندهما من التنظيم الاجتماعي ، والعقبة في سبيلهما ان الآدميين كما هم لا يرغبون في تلك الاغراض ، ويصرون على صنوف شتى من أشياء فوضى لا قيمة لها في نظر العقل المنظم المرتب . وهذا يحمل المظم على الرجوع الى القالب ليخرج آدميين يرغبون فيما يراه هو حسناً . وهذا بدوره يؤدي الى الثورة .

والرجل الذي يشبه النظام الاجتماعي بشجرة ستختلف نظرته السياسية عن هذا . ان الآلة الرديئة يمكن استهلاكها والاستعاضة عنها بأخرى ، لكن الشجرة اذا قطعت لا يمكن لشجرة جديدة ان تبلغ مثل قوتها وحجمها الا بعد مضي

زمن طويل . ثم ان الآلة او القالب هما ما يختارهما صانعهما ، اما الشجرة فلها طبيعتها الخاصة ولا سبيل الى تغيير نوعها ، وكل ما يمكن هو ان تجعل منها فقط مثلاً أحسن او مثلاً اسوأ . والملكة البنائية حين تطبق على الاشياء الحية تختلف تماماً عنها حين تطبق على الآلات . فعملها في الاشياء الحية اكثر تواضعاً ويحتاج الى نوع من العطف . لهذا ينبغي حين ننميها في الصغار ان نمهد لهم فرص التدرب عليها في النباتات والحيوانات ، لا في قوالب اللبن والآلات فحسب . ان علم الطبيعة قد سيطر على الفكر منذ ايام نيوتن، وعلى الاعمال منذ الثورة الصناعية، وهذا قد جر معه تصوراً للمجتمع اقرب الى الآلية . وجاء التطور الذي قال به علم الحياة بمجموعة جديدة من الافكار اظهرها الانتخاب الطبيعي ، وهو ما ينبغي ان نرمي الى تخليص الشؤون البشرية منه عن طريق التربية وعلم اصلاح النسل وضبطه . فتصور المجتمع كشجرة أفضل من تصوره كقالب أو آلة،لكن لا يزال فيه نقص ، وعلينا لسد النقص أن نتطلع الى علم النفس . وملكة البناء المعتمدة على علم النفس نوع جديد لم يفهمه الناس الا قليلاً، وهو ضروري لتكوين نظرية صحيحة للتربية والسياسة وكل امر انساني بحت . وينبغي ان تكون له السيطرة على أخيلة اهل الوطن الواحد اذا أُريد الا تضللهم التشبيهات الكاذبة . ويوجس بعض الناس خيفة من ملكة البناء في الشؤون الانسانية لأنهم يخشون ان تكون آلية حتماً ، ومن ثم يؤمنون بالفوضى و (بالعودة الى الطبيعة) . وفي هذا الكتاب احاول ان أبيّن بالأمثلة المحسوسة كيف ان البناء النفساني يختلف عن بناء الآلة. والجانب الخيالي منه ينبغي ان يجعله التعليم العالي مألوفاً للجميع، فلو كان كذلك لزال من السياسة فيما اعتقد ما فيها من ضيق الفكر والحدة والنزوع الى الهدم ، فتصبح مطاوعة علمية حقاً ، ويصبح هدفها تنشئة رجال ونساء أمجاد .

* * *

ـ ٧ ـ

حبّ النفس والحيازة

سأتناول الآن مسألة شبيهة بمسألة الخوف من حيث أننا نتصدى فيها لدافع قوي بعضه غريزي واكثره غير مستحب . وفي مثل هذه الحالات جميعها ينبغي ان نحذر فلا نقاوم طبيعة الطفل . ان من العبث ان نغمض العين عن طبيعتها او ان نتمنى لو انها خالفت ما هي عليه ، بل يجب ان نتقبل المادة الخام الموجودة، فلا نحاول معالجتها بأساليب لا تنطبق الا على مادة تخالفها .

وحب النفس ليس مدركاً محدوداً في علم الاخلاق، فكلما زدناه تحليلاً ازداد غموضاً ، لكنه محدد تماماً كما يبــدو في المحضن ، وعنه تنشأ مشاكل لا بد من مغالبتها . ان اكبر طفلين اذا ترك وشأنه يغتصب لعب اصغرهما ويطالب بأكثر من نصيبه من عناية الكبار ويسعى على العموم وراء رغبــاته غير حافل بابتئاس الاصغر . فالنفس البشرية كالغاز يتمدد على الدوام ما لم يكفه ضغط خارجي . وهدف التربية من هذه الناحية ان تجعل الضغط الخارجي هو العادات والافكار والميول العاطفية في عقل الطفل نفسه ، لا الضرب واللكم والعقــاب . والفكرة

اللازمة في هذا الباب هي العدل لا تضحية النفس . ان كل انسان له حق حيز معين في هذه الدنيا ، وينبغي ألا يشعره احد بأنه شرير اذا قام يطالب بما هو حق له. والناس حين يعلمون تضحية النفس يعلمونها فيما يبدو لا على انهم سيعملون بها تماماً ، ولكن على رجاء انهم سيأخذون منهـا بالقدر القريب من الصواب . لكن الواقع ان الناس اما ان يفشلوا في تعلم هذا الدرس ، واما ان يشعروا انهم آثمون حين يطالبون بالعدل المجرد ، واما ان يصلوا في تضحيـة النفس الى حد غير معقول ، وعنـدئذ لا تخلو نفوسهم من حقد على الذين آثروهم على انفسهم ، واكبر الظن انهم يسمحون لحب النفس ان يرتد اليهم متنكراً في صورة المطالبة بالشكر . وعلى كل حال فتضحية النفس لا يمكن ان تكون مذهباً صحيحاً لأنها غير قابلة للتعميم . ومن المكروه البغيض ان تعلم الباطل كوسيلة الى الفضيلة لأنه اذا انكشف الباطل تلاشت الفضيلة، اما العدل فعلى عكس ذلك يمكن تعميمه، واذاً فالعدل هو المعنى الذي ينبغي ان نحاول ان نبثه في افكار الطفل وعاداته.

ومن الصعب ان لم يكن من المستحيل تعليم العدل لطفل منفرد عن أقرانه . ان حقوق الكبار من الناس ورغباتهم تختلف عن نظائرها في الاطفـال الى حد انها لا تجد في خيالاتهم أدنى استجابة ، ولا يكاد يوجد تنافس مباشر بين الكبار والاطفال في سرور من باب واحد . ولما كان الكبار في مركز يمكنهم من فرض الطاعة لأوامرهم لم يكن بد من ان يكونوا هم القضاة في قضيتهم ، فلا يحدثون في الطفل الأثر الذي تحدثه محكمـة محايدة . ان في وسعهم بالطبع ان يصدروا تعليمات توصي بهذا النوع من السلوك المناسب او ذاك ، مثل الا يقطعوا على أمهم عديهـا قطع الغسيل ، وألا يرفعوا اصواتهم حين يكون والدهم مشغولاً ، وألا يقحموا مسائلهم الخاصة عند وجود زوار . لكن هذه مطالب لا تفسير لها عند الطفل . صحيح ان الطفل يخضع لها عن طيب خاطر اذا كان يلقى عطفاً فيما عداها ، لكنها لا تقع من نفسه موقع القبول عنده .

ومن الصواب حمل الطفل على اطاعة مثـل هذه القواعد ، لأن من الواجب

ألا نسمح له بأن يطغى ، ولأن من الواجب ان يفهم ان الناس لهم مشاغل يهمهم التفرغ لها وان بدت له هو غريبة . لكن مثل هـذه الطرق لا تؤدي الى اكثر من السلوك الحسن في الظاهر . اما التربية الصحيحة على العـــدل فلا تتأتى الا حيث يوجد مع الطفل اطفال غيره ، وهذا واحد من اسباب عديدة يتحتم من اجلها ألا يترك الطفــل فريداً مدة طويلة . وعلى الوالدين اللذين قضى سوء الحظ ألا يكون لهما سوى طفل واحد ان يبذلا كل ما في وسعهما ليظفرا له بأصحاب ولو استدعى ذلك ابعـاده عن البيت فترات كبيرة اذا لم تتيسر وسيلة اخرى . ان الطفل المنفرد ينشأ مكبوتاً او محباً لنفسه ، وربما كانهما معاً بالدور . ان الطفل الوحيد المؤدب يرثى له ، وغير المؤدب يكون بلاء ونصباً ، وهذا الامر أدعى للتعب والاهتمام في هذه الايام التي صغرت فيهـــا الأسر عنها في الايام التي قبلها . وهو من اسباب الدعوة الى مدارس الحضانة ، تلك التي سأقول عنهـــا اكثر من هذا في فصل قادم . لكني سأفترض الآن ان الاسرة تحوي طفلين على الأقل غير مختلفين كثيراً في السن حتى تكون أذواقهما واحدة الى حد كبير . وحين نتنافس الاطفال في مسرة لا يتسنى لهم الاستمتاع بها الا على التنــاوب ، مثل ركوب عربة يد ، فسنجد انهم سرعان ما يفهمون العدل . نعم ان كلا منهم ينزع الى ان يستأثر بالمسرة دون البـاقين ، لكن من المدهش سرعة تغلبهم على هذه النزعة حين يقضي الكبار بينهم بأن لكل واحد منهم دوراً في الاستمتاع. اني لا اعتقد ان الاحساس بالعدل طبعي ، لكن ما رأيت من سرعة امكان ايجاده فيهم يحملني على العجب . طبعاً لا بد ان يكون عدلاً حقيقياً وألا يكون هناك تمييز خفي لطفل على طفل. فاذا كنت أشغف ببعض الاطفال منك ببعض وجب ان تكون على حذر من ان تجعل لعواطفك أثراً في قسمتك المسرات بينهم. ومن المسلم به طبعاً ان اللعب يجب ان يتساوى للجميع .

ومن العبث ان تحاول ان تلقي رغبة الاطفال في العدل بأي نوع من التدريب الخلقي ، لا تعط اكثر مما يقتضيه العدل لكن لا تنتظر من الطفل ان يقنع بمـا

دونه . وفي كتاب اسرة فيرتشايلد فصل عن (آثام القلب المستترة) يوضح الطرق التي يجب تجنبها . لوسي ترى نفسها انها احسنت السلوك ، فتقول لها أمها انها وان كان سلوكها حسناً فان افكارها خاطئة ، وتروي لها مستشهدة (ان القلب خداع قبل كل شيء وانه جد شرير) — (أرميا ١٧و٩) . ثم تعطي السيدة فيرتشايلد لوسي دفتراً صغيراً لتدون فيه الاشياء (الجد الشريرة) التي في قلبها حين تكون طيبة المسلك في الظاهر . وفي الفطور يعطي والدها لأختها شريطة ولأخيها كرزاً ولا يعطيانها شيئاً ، فتكتب في دفترها انها في تلك اللحظة خطر لها خاطر شرير جداً وهو ان والديها يحبان اختها وأخاها اكثر مما يحبانها. وقد علموها فاعتقدت انه ينبغي عليها ان تغالب هذا الخاطر بقوة الخلق ، لكن هذه الطريقة لا ينتج عنها سوى دفن هذا الخاطر في زوايا نفسها ليحدث في السنوات الآتية آثاراً غريبة ملتوية . وكان المسلك الواجب بالنسبة لها ان تعبر عن شعورها ، وبالنسبة لوالديها ان يزيلا ما علق بنفسها اما باعطائها ايضاً هدية او بافهامها انه يجب عليها الانتظار الى مرة قادمة ، اذ ليس هناك هدية حاضرة يهديانها اليها . ان الصدق والصراحة يبددان الصعاب ، لكن محاولة التأديب عن طريق الكبت انما تزيد في وطأتها .

ويتصل بالعدل اتصالاً وثيقاً حاسة الملكية ، وهي امر صعب يحتاج في معالجته الى لباقة تتكيف حسب الظروف ، لا الى اية مجموعة من القواعد الجامدة. وهناك في الواقع اعتبارات متضاربة يصعب معها اتباع خطة واضحة . فحب التملك ينتج من جهة شروراً كثيرة مروعة في مستقبل السنين ، اذ الخوف من فقدان ما باليد من ممتلكات مادية قيمة هو مصدر رئيسي للقسوة السياسية والاقتصادية . فمن المستحب ان يجد الرجال والنساء سعادتهم قدر الامكان في سبيل لا تخضع للملكية الخاصة ، اي في اوجه للنشاط انشائية لا دفاعية . لهذا السبب ليس من الحكمة ان نزرع في الاطفال حاسة الملكية ما وجدنا عنها مندوحة ، لكن هناك حججاً قوية لدى الجانب الآخر من الخطر اغفالها قبل

ان نشرع في العمل بهذا الرأي . واول هذه الحجج ان حاسة الملكية قوية جداً في الاطفال ، وانها تظهر بمجرد استطاعتهم القبض على الاشياء التي يرونها (توافق اليد والعين) فما يمسكونه يشعرون انه ملكهم ، واذا أخذ منهم ثارت ثائرتهم . والطفل الذي لا يملك لعباً خاصة به يلتقط من الارض عصياً او قطع الآجر ، او اي اشياء تافهة يعثر عليها فيحفظها ويكنزها لنفسه هو وحده . فالرغبة في الملك متأصلة في النفوس تأصلاً من الخطر مقاومته . زد على ذلك ان الملكية تحمل على العناية ، وتكف عن نزعة الهدم . وأنفع ما تكون الملكية اذا كانت لشيء صنعه الطفل بنفسه ، فاذا نحن أبيناها عليه ، عطلنا وصددنا نزعاته البنائية .

وتضارب الحجج هكذا يحول دون اتخاذ سياسة محددة ، ويضطرنا أن نسترشد الى حد كبير بالظروف وبطبيعة الطفل . على اننا نستطيع ان نقول بضع كلمات على سبيل التوفيق العملي بين هذه الأضداد

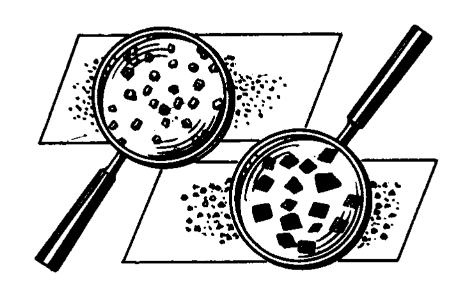
ينبغي ان يكون من بين اللعب ما هو خاص وما هو مشاع. فالحصان الهزاز مثلاً يكون بطبيعة الحال مشاعاً دائماً ، وهذا يوحي بقاعدة : اذا كانت اللعب مما يمكن ان يستمتع به الجميع على السواء ، ولكن على التناوب فقط ، وجب ان تكون مشاعة ان لم يمكن تعددها لكبرها أو لغلوها . وعلى عكس ذلك اللعب التي تناسب طفلاً اكثر من طفل (بسبب اختلاف السن مثلاً) فهذه أولى بها الطفل الذي هي أمتع له وأسر ، واذا كانت اللعبة تحتاج في اللعب بها لعناية تعلمها اكبر طفلين ، فمن العدل الا يسمح لأصغرهما بإمساكها وافسادها ، لكن ينبغي ان يعوض عنها بتمليكه لعبة تناسب عمره . وبعد سن الثانية ينبغي اذا تسبب الطفل في كسر لعبة باهماله ألا نسارع الى اعطائه بدلاً منها ، فمن المصلحة ان يشعر الطفل بالخسارة زمناً ما . ولا تدع الطفل يرفض دائماً أن يلعب غيره بلعبه الخاصة ، فكلما كان الذي عنده منها اكثر مما يستطيع استعماله فعلاً وجب ألا يسمح له بالاحتجاج عندما يلعب طفل آخر ببعض ما ليس يستعمله منها ، اللهم الا اذا كانت اللعب مما يحتمل ان يكسرها الطفل الآخر ، أو كان هو قد

ركب منها تركيبة هي موضع زهوه . فالى ان ينسى الطفل ما ركبه ينبغي ان يظل ما ابتناه قائماً ان أمكن مكافأة له على مجهوده . وفيما عدا ذلك لا تسمح للطفل ان يصير من لعبه كالكلب في المذود، بل يجب ألا يسمح له قط بأن يحول دون سرور طفل آخر من غير داع . وليس من العسير ان نعلم الطفل قدراً صالحاً من ادب المعاملة في مثل هذه الاحوال، وهذا القدر من تأديبه يستأهل ما يتطلبه من حزم . لا تسمح لطفل ان يخطف من طفل آخر شيئاً ولو كان الشيء له ، واذا قسا أكبر طفلين على الآخر فأظهر نحو الكبير مثل قسوته على الصغير ، وفسر له في الحال سبب ذلك . وبمثل هذه الوسائل لا يصعب ان نؤسس في الاطفال ذلك القدر من التعاطف اللازم لمنع عواصف الغضب الدائم وذرف الدموع . وقد يلزم من حين لآخر استخدام شيء من الشدة ولو بلغت مبلغ العقوبة الخفيفة ، لكن يجب ألا يسمح بأية حال ان يعتاد الطفل الطغيان على من هو أضعف منه من الاطفال .

ومع السماح للطفل بعدد معين من اشياء محببة اليه يمتلكها ، يحسن تشجيع عادة اللعب بالاعيب مثل اللبن يكون للطفل وحده الحق المطلق فيها اثناء استعمالها . فجهاز منتسوري مشاع لجميع الاطفال، لكن ما دام أحدهم يستخدم قطعة منه فليس لغيره من الاطفال ان يتدخل فيها ، وهذا ينمي حاسة الاحتكار المؤقت المبني على العمل . ومثل هذه الحاسة لا تتعارض مع أي شيء مرغوب فيه في المستقبل . وهذه الطريقة لا تكاد تصلح للأطفال الصغار جداً لأنهم لم يبلغوا بعد المبلغ الكافي من حب البناء، لكن كلما ازدادت مهارتهم ازداد امكان ترغيبهم في عملية البناء . وما داموا يعرفون ان في استطاعتهم الحصول على مادة البناء كلما ارادوا ، فلن يهتموا كثيراً بحصول غيرهم ايضاً عليها . ونفورهم في المشاركة في أول الأمر سيزول سريعاً بالتعود ، ومع ذلك فينبغي في رأيي أن يسمح للطفل باقتناء الكتب عندما يصل الى السن المناسبة ، لأن هذا يزيد في حبه لها ، وبذلك يحفزه الى المطالعة . وينبغي ان تكون الكتب التي يمتلكها

كتباً جيدة بقدر الامكان ، لا من سقط الكتب ، فاذا رغب الاطفال في السقط وجب ان يكون ملكاً مشاعاً .

ان المبادىء الاجمالية المتضمنة فيما سبق هي : اولا – لا تجعل الطفل يشعر انه محروم لعدم كفاية ما يمتلكه والا جعلت منه بخيلاً . وثانياً – اسمح للطفل بالملكية الخاصة اذا نبه ذلك منه نشاطاً مستحباً ، وبخاصة اذا علمه تناول الاشياء بعناية ، وفيما وراء ذلك حوّل اهتمامه ما استطعت الى المسرات التي لا تستلزم ملكية خاصة . وحتى حين يكون للطفل ملكية خاصة لا تسمح له بأن يكون دنيئاً او بخيلاً حين يرغب غيره من الاطفال ان يأخذوا بحظ من اللعب بأشيائه . ولتذكر ان الغرض من هذا هو ان تغري الطفل بالاعارة عن رغبة واختيار ، ولن تكون حققت هذا الغرض مـا دمت تحتاج فيه الى استخدام سلطتك. والطفل السعيد يسهل تحريكه الى الكرم ، اما اذا كان محروماً من المسرات فسيعض طبعاً بالنواجذ على ما تيسر له منها . ان الاطفال لا يتعلمون الفضيلة عن طريق تحمل الآلام ، ولكن عن طريق السعادة والصحة .



- ٨ -

الصِّـدق

من مهام اهداف التربية الخلقية تكوين عادة الصدق ، ولا أقصد الصدق في الكلام وحده ، ولكن في الفكر ايضاً ، بل يبدو لي ان ثانيهما أهمهما . اني أفضل من يكذب وهـو يشعر أنه يكذب على من يخدع نفسه اولاً من حيث لا يشعر ثم يتوهم انه فاضل وصادق . والواقع ان الشخص الصادق في تفكيره لا يمكن ان يعتقد ان من الخطأ دائماً أن يقول ما ليس بحق . ان الذين يرون أن الكذبة اثم دائماً يضطرون الى تكميل هـذا الرأي بقدر كبير من السفسطة ومن التمرن على الابهام في القول يخدعون به الناس من غير ان يعترفوا لأنفسهم بأنهم يكذبون. ومع ذلك فاني ارى ان الظروف التي تبرر الكذب قليلة - أقـل كثيراً مما تدل عليه فعال ذوي العقول الراجحة . والكثرة الكاثرة من الظروف التي تبرر الكذب ظروف تطغى فيها القـوة أو يكون الناس فيها مشغولين ببعض الأعمال الضارة كالحرب ، ولذا فان من شأنها في المجتمع الصالح ان تكون أندر حتى مما هي عليه الآن .

والعمل بغير الصدق يرجع في الكثير الغالب الى الخوف . فالطفل المنشأ في غير خوف يكون صادقاً لا بفضل جهد أخلاقي يبذله ولكن لأنه لن يخطر له ان يكون غير صادق . وللطفل المعامل بحكمة عينان فيهما الصراحة ، وسجية ليس فيها خوف حتى مع الغرباء ، في حين يكون الطفل المنهور المقهور في فزع دائم من الاستهداف للتوبيخ ، يخشى كلما اتبع سليقته أن يكون قد خالف بعض القواعد . وليس يخطر للطفل الصغير في أول الامر ان الكذب ممكن . وامكان الكذب يكون بالنسبة له اكتشافاً يرجع الى ما يشاهده من الكبار ، ويستحثه اليه الفزع . فالطفل يكتشف ان الكبار يكذبون عليه ، وان من الخطر عليه ان يخبرهم الصدق ، وبتأثير هذه الظروف يأخذ فيالكذب. تجنب هذه البواعث فلا يخطر الكذب للطفل على بال .

لكن لا بد من حذر في الحكم على الاطفال هل هم صادقون ، ذلك ان ذاكرات الاطفال كثيراً ما تخطىء ، وهم في الغالب لا يعرفون جواب سؤال حين يظن الكبار انهم يعرفونه ، وحاسة تقدير الزمن عندهم مضطربة مبهمة فلن يستطيع الطفل الذي دون الرابعة ان يميز بين أمس وبين اسبوع مضى ، او بين امس وست ساعات خلت ، وهم يميلون عندما يجهلون جواب سؤال الى ان يجيبوا بنعم او بلا حسبما توحي به نبرات صوتك . ثم انهم كثيراً ما يتكلمون بلسان شخصية تمثيلية يتخيلونها في انفسهم ، وليس يلتبس عليك هذا عندما ينبئونك جادين ان في الحديقة الخلفية أسداً، لكن ما اسهل ان يحسب الانسان لعبهم جداً في كثير من الحالات. لهذه الاسباب كلها يغلب ان تكون اقوال الطفل الصغير غير صحيحة في ذاتها ، لكن من غير أدنى قصد منه الى الخداع ، بل ان الاطفال ينزعون في اول الامر الى اعتبار الكبار ملمين بكل شيء ، وانهم اذا لا يمكن ان يخدعوا . ويسألني ابني (وسنه ٣/٤ ٣ سنة) ان أقص عليه (من باب الحكاية) ما حدث له في ظرف معين يهمه لم أكن حاضره ، وعبثاً احاول اقناعه بأنني لا أعرف ما حدث . ان الطفل يرى الكبار يحيطون بكثير من الاشياء

بطرق لا يفهمها فلا يستطيع ان يضع حداً لمقدرتهم . وفي عيد الفصح الماضي أعطي ابني عدداً من بيض عيد الفصح المصنوع من الشوكولاته فأخبرناه انه سيمرض اذا أكل منه اكثر مما ينبغي ثم تركناه وشأنه ، فأكل اكثر من اللازم ومرض ، وبمجرد ان مرت أزمة المرض جاءني يتهلل وجهه ويقول بصوت فيه رنة الفوز : (لقد مرضت يا أبت - أبي اخبرني اني امرض ان فعلت) . وقد أدهشني ما بدا عليه من سرور بتحقق قانون علمي طبقته . ومن ذلك الحين كان من المستطاع ان نأمنه على الشوكولاته على الرغم من ندرة حصوله عليها ، وفوق هذا فهو يثق بكل شيء نقوله له عن الصالح من الطعام وغير الصالح ، ولم نجنح في بلوغ هذه النتيجة الى وعظ او عقاب او تخويف ، ولكن احتجنا في المراحل قبل ذلك الى صبر وحزم . وهو الآن مشرف على السن التي فيها يسرق الاولاد الحلوى عادة ويكذبون اذا سئلوا عنها ، واعتقد انه سيسرق احياناً ، ولكني سأندهش ان كذب . واذا كذب طفل بالفعل فان على الوالدين ان يرجعا باللائمة على نفسيهما لا عليه ، وعليهما ان يعالجا الامر بازالة اسبابه ، وبأن يبينا له في هدوء وتعقل لماذا كان عدم الكذب خيراً ، وعليهما ان يتجنبا علاج الامر بالعقاب فان ذلك انما يزيد في الخوف اي في الباعث على الكذب .

وبالطبع لا مناص مطلقاً من توخي الكبار الصدق الدقيق مع الاطفال اذا أريد الا يتعلموا الكذب . فالوالدان يفقدان بطبيعة الحال كل سلطان ادبي على اطفالهما اذا كانا يعلمانهم ان الكذب إثم ، بينما يعرف الاطفال على الرغم من ذلك انهما يكذبان . وفكرة التحدث الى الاطفال بالصدق جديدة كل الجدة ، فما كان احد ليأخذ بها قبل جيلنا هذا ، فقد كان من دأب الوالدين ان يصوروا انفسهم اطهاراً معصومين من الاهواء الشديدة ، يسيرهم على الدوام العقل والمنطق ، واذا أنبوا الاطفال أنبوهم عن اسف لا عن غضب ، ومهما وبخوا لم يحنقوا ، ولكن يكلمون الاطفال لمصلحتهم . ولم يكن الآباء يدركون ان للاطفال بصيرة صافية الى حد مدهش ، فهم وان لم يفقهوا الاسباب الداعية الى التهويش والاحتيال ،

يحتقرونه في صراحة وبساطة . فبواعث الغيرة والحسد التي لا تشعر بها انت ، تتجلى لطفلك ، فتجعله يضرب صفحاً عن كل ما تنمقه له من حديث اخلاقي عن خبث اولئك الذين كانوا موضع تلك الغيرة وذلك الحسد . لا تدّع ابداً انك معصوم من الخطأ ومن زلات البشر ، فان الطفل لن يصدقك ، وان صدقك فلن يزداد بذلك حباً لك . اني لأذكر الان بوضوح كيف نفذ بصري وانا في اوائل عمري الى النفاق والتهويش اللذين كانا يحيطان بي في العهد الفكتوري ، وكيف اقسمت اذا قدر وكان لي اطفال الا اكرر الاخطاء التي ارتكبت معي . وهأنذا أبر بالقسم ما استطعت .

ونوع آخر من الكذب سيىء جداً للنشء : ان تهدد بعقوبات ليس في نيتك توقيعها . وقد صاغ الدكتور بلارد هذا المبدأ في عبارة قوية في كتابه الممتع عن (المدرسة المتغيرة)[١] اذ يقول في ص ١١٢ : (لا تهدد ، لكن اذا هددت فلا تدع شيئاً يحول دون تنفيذ ما هددت به . اذا قلت لصبي : « افعل ذلك مرة اخرى واناالضربك » وفعله مرة اخرى ، تحتم عليك عندها ان تضربه، فان لم تفعل ذهب كل احترام لك عنده) . والعقوبات التي يهدد بها المربيات وجهلة الآباء والأمهات صغار الاطفال اقل تطرفاً من هذا ، ولكن تدخل في نفس القاعدة . تجنب الاصرار الا لسبب قوي ، لكن اذا بدأت تصر بالفعل فامض فيه مهما أحسست بالندم على بدئك المعركة . واذا اردت ان تهدد بعقوبة فلتكن عقوبة انت مستعد لتوقيعها . واياك ان تتكل على البخت في ستر تهويشك ان ينفضح . ومن عجب ان هذه القاعدة يصعب افهامها لغير المتعلمين من الناس . ومن أبغض ما يفعلونه التهديد بشيء يرعب كتسليم الطفل الى الشرطة ليحبسه ، او الى العفريت ليذهب به ، فمثل هذا يحدث في اول الامر فزعاً عصبياً خطراً ثم شكاً تاماً في جميع الاقوال والتهديدات التي يفوه بها الكبار . واذا كنت لا

---

(١) هودير وستوغتون ١٩٢٥ .

تصر على شيء الا امضيته ، فسرعان ما يتعلم الطفل ان المقاومة عبث في مثـل تلك الظروف ، ويطيع الكلمة منك من غير متعبة ، لكن من الضروري لنجاح هذه الطريقة ، ألا تصر الا اذا كانت لديك اسباب قوية تدعو الى الاصرار .

ونوع آخر من الخداع غير المستحب معاملة الجماد كأنه حي ، فقد يحـدث احياناً ان بعض المربيات اذا رأين الطفل قد آذى نفسه بالاصطدام بكرسي او منضدة ، أن يعلمنه ضرب هذا الجمـاد ومخاطبته بقول : (كرسي وحش) و (منضدة وحشة) ، وهذا يحرم الطفل من مصدر للتأديب الطبيعي مفيد ، فلو ترك الطفل وشأنه لادرك بسرعة ان الجمادات لا يجدي في تناولها الا المهارة لا الغضب ولا الملق ، فيحفزه هذا الى كسب المهارة ويعينه على ادراك حدود مقدرة الانسان الشخصية .

يسأل الاطفال غير المكبوتين أسئلة لا حصر لها ، بعضها مهم وبعضها غـير مهم . وكثيراً ما تكون هذه الاسئلة مملة وأحياناً مربكة ، لكن عليك ان تجيب عنها جميعاً بالصدق ما استطعت . اذا سألك الطفل سؤالا يتصل بالدين فقل ما تعتقده بالضبط ، ولو ناقضت غيرك من الكبار . واذا سألك عن الموت فأجبه ، واذا سألك اسئلة يقصد منها التدليل على انـك شرير او احمق فأجبه ، واذا سألك عن الحرب او عن عقوبة الاعدام فأجبه . لا تدفعه عنك بقولك : (انك لا تستطيع الآن فهم ذلك) الا في الشؤون العلمية الصعبة مثل كيف يصنع النور الكهربائي ، وحتى في مثل هذا بيّن له ان الجواب مسرة مدخرة له الى أن يتعلم اكثر مما يعرفه الان ، واخبره بأكثر قليلاً مما يستطيع فهمه لا بأقل . فان الجزء الذي يعجز عن فهمه سينبه فيه الاستطلاع والطموح الذهني .

ان الذين يصدقون الطفل دائماً يجنون ثمرة ذلك زيادة ثقة فيهم ، فعند الطفل نزعة طبيعية أن يصدق ما تقوله له الا اذا تعارض مع رغبة قوية عنـده ، كما في حالة بيض عيد الفصح التي ذكرتها لك ، فمتى جرب الطفل صدق ملاحظاتك

ولو في مثل تلك المسائل ، استطعت بسهولة ان تفوز باعتقاده ما تقول من غير حاجة الى توكيد . لكنك اذا اعتدت تهديده بعواقب لا تتحقق فلن تجد بدأ من ان تزداد معه اصراراً وله ارعاباً ، ثم في النهاية لا توجد فيه الا شكاً وقلقاً. استأذنني ابني ذات يوم ان يلعب في جدول ماء فقلت له لا تفعل لأني اظن انفيه بعض زجاج قد يجرح قدميك ، وكانت رغبته شديدة فتشكك في أمر الزجاج ، لكنه اقتنع وسكن بعد ان وجدت قطعة وأريته حرفها الحاد . ولو انني كنت اخترعت فكرة الزجاج لأمنعه بها لفقدت ثقته، ولو انني لم أجد شيئاً منها لكان عليّ ان آذن له بالنزول الى الماء . وقد كان من نتائج تجارب متكررة من هذا النوع ان انقطع تقريباً عن التشكك فيما أبديه له من اسباب .

اننا نحيا في دنيا خداع ورياء ، واذا نشأ الطفل خالياً منهما فانه يحتقر الكثير مما تواضع الناس على احترامه، وهذا مما يؤسف له ، لأن الاحتقار عاطفة سيئة ، ولا أرى ان انبه الطفل الى مثل تلك الامور ، وان كنت لا أتحرج كلما اتجه اليها من ان ارضي حب الاطلاع عنده . والصدق عقبة في سبيل صاحبه في مجتمع يسوده النفاق ، لكن هذه العقبة يرجحها ويفوقها فوائد عدم التهيب الذي بدونه لا يتأتى للانسان ان يكون صادقاً . اننا نحب لأبنائنا ان يكونوا مستقيمين صرحاء يحترمون انفسهم ، واني شخصياً أؤثر ان يفشل اولادي لاتصافهم بهذه الصفات على ان ينجحوا بأساليب العبيد . فالآدمي الماجد لا بد له من قدر من العزة الذاتية والاستقامة ، وحيثما وجد هذا استحال الكذب ، الا عندما يمليه وازع خير . واني لأؤثر ان يتصف اطفالي بالصدق في تفكيرهم وفي اقوالهم ولو جر ذلك عليهم سوء الحظ في الدنيا ، لأن الامر هنا أهم من الغنى والجاه .



- ٩ -

العِقاب

كان عقاب الاطفال والاولاد والبنات في العصور الخالية والى عهد قريب جداً معتبراً أمراً عادياً ، وكان الاجماع منعقداً على أنه لا غنى عنه في التربية . وقد عرفنا من فصل سابق رأي الدكتور ارنولد في الضرب ، وكانت آراؤه هذه رحيمة جداً في ايامه . وروسو معروف بنظرية ترك الامور للطبيعة ، ومع ذلك فهو في اميل يدافع من آن لآخر عن عقوبات فيها شدة وصرامة الصورة التقليدية ، ومنذ مئات السنين كانت النظرة المألوفة خارجة من واحدة من القصص التحذيرية : بنت صغيرة تجلب الضوضاء لأنهم ألبسوها وشاحها الابيض بينما كانت تريد وشاحها القرنفلي .

بابا ، في غرفة الجلوس اسمع
يأتي ضوضاء وشغب
في لحظة ذهب الى كارولين
لضربها ، هناك دون ريب

وكان المستر فيرتشايلد اذا وجد اطفاله يتشاجرون ضربهم بالعصا، وكما يقال في الشعر (دع الكلاب تفرح لنباحها وألمها) كان يسوقهم بعد ذلك لرؤية جثة معلقة بسلاسل من مشنقة، وكان من بينهم ولد صغير ارتاع من خشخشة السلاسل في الريح وتضرع اليهم ان يذهبوا به الى البيت ، لكن المستر فيرتشايلد أجبره على النظر زمناً طويلاً قائلاً ان هذا المنظر يوضح مصير اولئك الذين تنطوي قلوبهم على الكراهية ، وكان ينوي ان يجعل من الطفل قسيساً فكأنه أراد ان يعلمه كيف يصور الاهوال التي تنتظر من حقت عليهم اللعنة تصوير من شاهدها ومارسها .

اما في ايامنا هذه فيندر ان تجد من الناس من يدافع عن مثل تلك الأساليب حتى «تنسي»، لكن هناك خلافاً مذكوراً بين الناس فيما ينبغي ان يحل محل تلك الأساليب ، فبعض الناس لا يزال يدافع عن قدر مذكور من العقوبات بينما يرى غيرهم ان في الامكان الاستغناء عنها بتاتاً ، وبين هذين الطرفين مجال لألوان كثيرة من الرأي .

اني شخصياً اعتقد ان للعقاب مكاناً معيناً ثانوياً جداً في التربية ، لكني أشك في هل من حاجة قط الى الشدة فيه ، واني أعد من العقوبات الحدة او الاغلاظ في القول ، واعتقد ان اقسى عقوبة يمكن ان تدعو الحاجة اليها التعبير الطبيعي عن السخط تواً ، وقد حدث في احيان قليلة كان فيها ابني خشناً مع اخته الصغيرة ان أظهرت امه غضبها منه بصرخة انطلقت منها كان تأثيرها على الولد بالغاً . اذ انفجر باكياً ، ولم يهدأ الا بعد ان لاطفته امه كثيراً ، وكان الأثر بعدها عميقاً كما تجلى في سلوكه الحسن مع اخته . وقد لجأنا الى عقوبات خفيفة في احيان قليلة أصر في بعضها على طلب اشياء كنا قد منعناه إياها ، وفي بعضها على التدخل في لعب اخته، وفي مثل هذه الاحوال كنا اذا اخفق التعقيل والنصح نأخذه الى حجرة نخلفه فيها وحيداً ونترك الباب مفتوحاً ونقول : لك ان تعود الينا متى صلحت . فكان بعد ان يقضي دقائق معدودة في بكاء شديد

يجيء الينا ويظل بعد ذلك حسن السلوك ، اذ يدرك تماماً ان عودته الينا تتضمن تعهداً منه ان يستقيم ، ولم نجد الى الآن اية حاجة تدعو الى عقوبات اشد . واذا كان لنا ان نحكم مما نقرأ في كتب المؤدبين الأقدمين وجدنا الاطفال الذين تربوا بالأساليب العتيقة اكثر خروجاً واقل امتثالاً من الاطفال الحديثين ، فلو ان طفلي بلغ من سوء السلوك نصف ما بلغه اطفال اسرة فيرتشايلد لهالني الامر حقاً، لكن العيب في ظني يرجع الى الوالدين اكثر مما يرجع الى الاطفال، فالوالدان المعقولان يأتيان في اعتقادي بأطفال معقولين . ان الاطفال يجب ان يحسوا من والديهم بالمحبة ، يحسوا لا بالواجب والمسؤولية اللذين لا يشعر اي طفل بامتنان من اجلها – ولكن بالحب الصادق الذي ينبهج بالطفل وأساليبه . وكل منع للطفل وحظر عليه يجب ان يفسر له تفسيراً واضحاً صادقاً ، اللهم الا اذا استحال ذلك تماماً . ومن الخير ان نؤثر احياناً ان يصاب الطفل برضوض او جروح بسيطة على ان نحول بينه وبين الالعاب التي تعرضه لها ، فخبرة قليلة من هذا النوع تجعل الاطفال أميل الى تصديق ان الخطر قد يكون من الحكمة ، فاذا توفرت هذه الشروط في اول الامر فسيندر في اعتقادي ان يقترف الاطفال ما يستحق العقاب الشديد .

وعندما يتدخل الطفل باصرار في اعمال غيره من الاطفال او يفسد عليهم مسراتهم فالعقوبة البديهية نفيه ، ولا بد على اي حال من اتخاذ خطوات ما ، اذ من الظلم تركه يؤذي بتدخله الاطفال الآخرين . لكن لا فائدة ترجى من جعل الطفل المعاند يشعر انه مجرم ، فأولى من ذلك واقرب الى المقصود ان تجعله يشعر بأنه يحرم نفسه من مسرات يتمتع بها غيره من الاطفال . وفيما يلي وصف مدام منتسوري لطريقتها في ذلك :

« بخصوص العقوبات فقد صادفنا مراراً اطفالاً يضايقون غيرهم غير عابئين بنصائحنا ، فمثل هؤلاء كان يفحصهم الطبيب في الحال اذا ما تبين ان الطفل طبيعي عزلناه في ركن من اركان

الحجرة نضع له فيه منضدة صغيرة وكرسياً صغيراً مريحاً بحيث يستطيع وهو جالس عليه ان يرى زملاءه يعملون وامددناه باللعب والألعاب الأحب اليه، فكان هذا العزل يفلح في الغالب الكثير في تهدئة الطفل . كان الطفل من حيث يجلس يرى الجمع كله يشتغل. وكانت الطريقة التي يقوم بها رفقاؤه بأعمالهم درساً عملياً له سحر اكثر من اي كلمات يمكن لمعلم ان يقولها ، وشيئاً فشيئاً كان الطفل يدرك ميزة كونه فرداً من افراد جماعة تعمل بجد واقبال امام عينيه ، وكان يتمنى حقيقة ان يعود فينضم اليهم ويفعل كما يفعلون . فبهذه الطريقة استطعنا ان نعيد الى النظام جميع الاطفال الذين كان يبدو في اول الامر انهم خارجون عليه . وكان الطفل المعزول دائماً موضع عناية خاصة كما لو كان مريضاً تقريباً ، واني نفسي عندما كنت ادخل الغرفة كنت اذهب اليه مباشرة كما لو كان طفلاً صغيراً جداً، ثم أحول عنايتي الى الآخرين مبدية اهتمامي بأشغالهم وسائلة اياهم عنها كما لو كانوا رجالاً صغاراً . ولست أدري ما كان يحدث في نفوس هؤلاء الاطفال الذين كنا نضطر هكذا الى تأديبهم ، لكن تحولهم كان دائماً تحولاً تاماً باقياً ، فكانوا يظهرون فخراً وزهواً بتعلمهم كيف يعملون وكيف يسلكون ، وكانوا يبدون على الدوام تعلقاً كبيراً بالمعلم أو المعلمة وبي[1] » .

ونجاح هذه الطريقة قام على عدة عوامل لم تتوفر في المدارس التي من الطراز القديم . فهناك كان اولاً التخلص من الاطفال الذين يرجع سوء سلوكهم الى نقص صحي ، كان هناك كياسة وبراعة في تطبيق الطريقة ، لكن النقطة الحيوية

---

(١) (طريقة منتسوري) هاينمان سنة ١٩١٢ ص ١٠٣ .

كانت في الحقيقة حسن سلوك جمهرة الفصل، فقد كان الطفل يشعر بأنه معارض للرأي العام الذي يحترمه بفطرته ، وهذا بالطبع موقف مخـــالف تماماً لموقف المعلم الذي يجد نفسه امام فصل مصر كله على (التهريج) . وليس في نيتي ان ابحث الطرق التي ينبغي للمعلم استخدامها لأن الحاجة اليها لم تكن لتنشأ لو ان التربية سارت كما ينبغي من مبدأ الامر . ان الاطفال يحبون ان يتعلموا الاشياء بشرط ان تكون اشياء مناسبة تعلم بالطريقة المثـــلى . وفي اعطاء المعلومات يرتكب نفس الخطأ الذي ارتكب في مرحلة سابقة فيما يتعلق بالطعام والنوم ، ذلك ان ما هو مفيد للطفل في الواقع يطلب منه كما لو كان معروفاً يسديه . فمن السهل ان يظن صغار الاطفال ان السبب الوحيد للأكل والنوم هو أن الكبار يرغبون في ذلك ، وهذا يجعل منهم مرضى أرق[1] سببه سوء الهضم، فما لم يكن الطفل مريضاً فدعه يترك طعامه ويقوم جائعاً ان شاء . كان ابني قـد اعتاد ان تستدرجه المربية الى الاكل ، وازداد على الزمن تأبياً ، وفي ذات يوم حين كان يتناول الغذاء معنا رفض (الحلو) حين قدم وصرفنا الخادم به، وبعد قليل طلبه فتبين ان الطاهية قد أكلته ، فأسقط في يده ولم يتظاهر بمثلها مرة اخرى . هذه الطريقة نفسها ينبغي ان تطبق بالضبـــط على التعليم ، فالذين لا يرغبون فيه ينبغي ان يسمح لهم بتركه على ان يضمن وقوع الملالة بهم اذا غابوا وقت الدرس، حتى اذا ما رأوا غيرهم يتعلمون فسيجأرون في الحال مطالبين بأن يعلموا ، وعندئذ يستطيع المعلم ان يظهر بمظهر المحسن اليهم اذا اجابهم الى ما طلبوا ، وهذا هو الوضع الصحيح . وينبغي في نظري ان يكون بكل مدرسة غرفة فسيحة عارية يستطيع التلاميذ الذين لا يرغبون في الدرس ان يذهبوا اليها ، فاذا ما دخلوها لم يؤذن لهم في العودة الى الدروس ذلك اليوم ، وينبغي ان يرسلوا الى هذه الغرفة على سبيل العقاب اذا ساء سلوكهم وقت الدرس . فالقاعدة فيما يبدو بسيطة ، هي ان العقاب ينبغي ان يكون شيئاً تريد ان

---

(١) راجع الفصلين الرابع والخامس من كتاب الطفل العصبي للدكتور كامرون .

يكرهه المسيء ، لا شيئاً تريد ان يحبه ، وعلى الرغم من ذلك ترانا نعاقب الطفل احياناً بتكرار كتابة قطعة ادبية في الوقت الذي ندعي فيه اننا نريد تحبيب الآداب اليه .

والعقوبات الخفيفة لها موضعها في معالجة المخالفات الخفيفة لا سيا ما يتصل منها بالسلوك . والثناء واللوم شكلان مهمان من اشكال الجزاء والعقاب للاطفال الصغار ولمن هم اكبر منهم من البنين والبنات ، اذا صدرا من شخص محترم عندهم . وليس من الممكن في اعتقادي القيام بالتربية بغير الثناء واللوم ، لكن لا بد من شيء من الحذر فيهما كليهما . فينبغي اولا الا ينطوي ايهما على مقارنة ما . ينبغي الا يقال للطفل انه فعل خيراً من فلان او ان فلاناً لا يتشيطن ابداً ، فالاول يولد الكراهية . وينبغي ثانياً ان يكون استخدام اللوم اقل كثيراً من استخدام الثناء ، ينبغي ان يكون اللوم عقوبة محددة تنزل بالطفل من اجل انحراف غير منتظر عن السلوك الحسن ، ولا يجوز ابداً ان تستمر بعد ان تحدث اثرها . وينبغي ثالثاً الا يكون الثناء من اجل شيء حقه ان يكون عادياً مألوفاً ، انما يمنح الثناء من اجل مظهر جديد للشجاعة او البراعة ، او من اجل نكران للذات يتصل بما يملكه الطفل ان اقتضى ذلك مجاهدة منه لنفسه . ففي مراحل التربية كلها ينبغي الثناء على كل عمل صعب قام به ، والرغبة في هذا السرور لا غبار عليها كحافز اضافي ، لكن لا يصح ان تكون هي الدافع الاساسي ، اذ الدافع الاساسي ينبغي دائما ان يكون الاهتمام بالامر من حيث هو ، ايا كان ذلك الامر .

والعيوب الخلقية الخطيرة كالقسوة يندر ان يمكن معالجتها بالعقاب ، او بالاحرى ينبغي ان يكون العقاب جزءا صغيرا من المعالجة . والقسوة على الحيوانات طبيعية في الاولاد الى حد ما ونحتاج لمنعها الى تربية يقصد بها الى هذا ، فمن اسوأ التدبير ان تنتظر حتى تعثر على ولدك يعذب حيوانا فتأخذ انت في تعذيب الولد ، فهذا لا يعدو ان يجعله يتمنى ان لم يكن كشف أمره .

ان الواجب ان نرقب البدايات الاولى لما يمكن ان يتطور فيما بعد الى قسوة . علّم الولد احترام الحياة ولا تدعه يراك تقتل حيواناً ولو كان زنبوراً أو أفعى ، فان لم تستطع فعليك ان تبين له بعناية تامة لماذا تفعل ذلك حين تفعله . واذا فعل شيئاً فيه قليل من الغلظة الى طفل صغير ، فافعل نفس الشيء اليه في الحال ، فسيحتج وعندئذ تستطيع ان تبين له انه اذا شاء ألا يفعل هذا به وجب ألا يفعله بغيره ، وبهذه الطريقة ينتبه بقوة الى ان لغيره مشاعر كمشاعره.

وواضح أن من مستلزمات هذه الطريقة ان يبكر بها وان تطبق في الصغير من هفوات الغلظة ، اذ الاضرار البسيطة التي يلحقها الطفل بغيره هي وحدها التي تستطيع ان تنزل به مثلها ، واذا استطعت اتباع هذه الخطة فلا تجعلها تبدو وكأن المقصود منها العقوبة لا التعليم ، فقل مثلا : (انظر ، فهذا هو الذي فعلته بأختك الصغيرة) ، فاذا ما احتج على عملك فقل له : (اذا كان هذا ما ضايقك فيجب الا تفعله بأختك) وما دامت العملية كلها بسيطة وفي الحال فسيفهم الطفل وسيتعلم وجوب مراعاة شعور الغير ، واذا روعي هذا فلن تقع ابداً قسوة ذات بال .

ويجب ان يكون الارشاد الخلقي على التو وبالتخصيص ، يجب ان ينشأ من موقف جاء بطبيعته بحيث لا يتعدى ما ينبغي عمله في ذلك الموقف . وسترى ان الطفل يطبق بنفسه المغزى المستنبط من حالة على شبيهاتها ، فادراك المثل المحدد ، وتطبيق المشابه من الاعتبارات على المشابه من الحالات ، اسهل بكثير على الطفل من فهم قاعدة عامة وتطبيقها عن طريق الاستنباط . لا تقل له بصورة عامة (كن شجاعاً) . (كن شفوقاً) ولكن حرضه على عمل معين فيه جرأة حتى اذا اتاه قل له : (مرحى لقد كنت ولداً شجاعاً) . اجعله يترك اخته الصغيرة تلعب بقطاره ، وعندما يرى وجهها اشرق ابتهاجاً قل له : (أحسنت لقد كنت ولداً شفوقاً) . واتبع نفس القاعدة في معالجة القسوة . ترقب ظهور أوائلها الواهنة وامنعها من النمو .

واذا حدث على الرغم من جميع جهودك ان نجمت فيه قسوة خطيرة في سن متأخرة وجب ان تعير الامر اكبر اهتمام وتعالجه باعتباره مرضاً . ينبغي ان يعاقب الولد ، بمعنى ان يقع به ما لا يستسيغه كما يقع له اذا مرض بالحصبة ، لا بمعنى اشعاره بأنه شرير . ينبغي ان يعزل زمناً عن غيره من الاولاد وعن الحيوانات ويبين له ان السماح له بالاختلاط بهم غير مأمون العاقبة ، وينبغي ان نجعله يدرك قدر المستطاع ماذا كان يصيبه من الالم لو انه عومل بمثل قسوته . وينبغي ان نجعله يشعر بأن مصاباً عظيماً حل به ، الا وهو نزوعه الى القسوة وان من هم اكبر منه يحاولون حمايته من وقوع مثل ذلك المصاب في المستقبل ، واني اعتقد ان مثل هذه الطرق تنجح نجاحاً تاماً في جميع الاحوال، الا حالات مرضية قليلة .

والعقوبة البدنية في اعتقادي لا تكون أبداً صواباً ، فالخفيف منها يحدث قليلاً من الضرر من غير ان ينفع ، واني مقتنع بأن الشديد منها يولد القسوة والوحشية . صحيح أنها لا تسبب في الغالب حقداً على موقعها ، فان الأولاد عندما تجري بها العادة يتكيفون بها ويتوقعونها كأمر تقضي به طبيعة الاشياء ، ولكنها تقر في أذهانهم ان توقيع العقوبة البدنية لتوطيد السلطة قد يكون محموداً وهو درس له ضرره وخطره ، لا سيما اذا علمناه أولئك الذين ينتظر أن يتبوأوا مراكز ذات سلطان ، وهو يهدم علاقة الثقة الصريحة التي ينبغي ان توجد بين الوالدين والاطفال وكذلك بين المعلمين والتلاميذ . ان الوالد الحديث يريد ان يكون أطفاله في حضوره من البعد عن التحرج كما يكونون في غيابه، يريد أن يستشعروا السرور حين يرونه قادماً . انه لا يريد هدوءاً مصطنعاً وهو يرقبهم، حتى اذا ولاهم ظهره انقلب هدوؤهم عاصفة هوجاء. ان في كسب محبة الأطفال خاصة فرحاً يعدل اي فرح تأتي به الحياة . وأجدادنا لم يعرفوا عن هذا الفرح شيئاً ولذا لم يعرفوا أنه يفوتهم . كانوا يعلمون الاطفال ان من (واجبهم) محبة والديهم ، ثم كانوا يتصرفون بحيث يجعلون القيام بهذا الواجب

شبه مستحيل . والناس لم يحاولوا الفوز بعاطفة الحب الحقيقية من أبنائهم مـا استحوذت عليهم فكرة ان الحب واجب يمكن أداؤه بالأمر ، لذلك ظلت العلاقات البشرية مجردة جافية قاسية ، وكان العقاب جزءاً من هـذا التصور الكلي ، ومن عجب ان رجالاً لم يكن ليخطر ببالهم ان يرفعوا يدهم على امرأة كانوا على أتم استعداد لانزال العذاب بطفل أعزل . ومن لطف الله ان غلب وذاع بالتدريج في خلال القرن الاخير تصور خير من ذاك للعلاقات بين الوالدين والأطفال فتبدلت بظهوره نظرية العقاب كلها . واني آمل ان الافكار المستنيرة التي بدأت تسود عالم التربية ستمتد بالتدريج الى العلاقات البشرية الاخرى ايضاً ، لان الحاجة اليها هناك لا تقل شيئاً عن الحاجة اليها في معاملتنا أطفالنا .



ـ ١٠ ـ

أهمية أقران الطفل

كنا فيما مضى ننظر فيما يستطيع الوالدان والمعلمون ان يعلموه بأنفسهم في سبيل تكوين النوع الصحيح من الخلق في الطفل، لكن هناك اموراً كثيرة لا سبيل اليها الا بمساعدة اقرانه من الاطفال ، ويزداد هـذا القول صدقاً كلما تقدم الطفل في السـن حتى اذا ما وصل الى الجامعة صارت اهمية الاقران بالنسبة له اعظم منها في اي وقت آخر . ان اتراب الطفل ليس لهـم ادنى اهمية في الاشهر الاولى من السنة الاولى من حياة الطفل ، ونفعهم في الاشهر الثلاثة الاخيرة منها ضئيل ، وفي تلك المرحلة لا يستفيد الطفل الا من الاطفال الذين يكبرونه بقليل . ان الطفل البكر في اسرة يكون عادة ابطأ من اخوته في تعلم المشي والكلام ، اذ يصعب عليه فيهما تقليد الكبار الذين يتقنونهما كل الاتقان . ان طفلاً في الثالثة من عمره انموذج انسب لطفل في السنة الاولى من عمره، لأن اعماله اقرب الى ما يود الطفل الأصغر ان يعمله ، ولأن مقدوره لا يبدو كأنه فوق طاقـة البشر . والاطفال يحسون ان غيرهم من الاطفال اشبه بهم من الكبار ، فطموحهم اذاً

اكثر تنبهاً بما يفعله الاطفال منه بما يفعله الكبار. والاسرة وحدها هي التي تهيء فرصة هذه التربية عن طريق تأثير الاطفال الاكبر من الطفل الاصغر سناً . ومعظم الاطفال حين يخيرون يؤثرون اللعب مع الاطفال الاكبر منهم لانهم يحسون عندئذ انهم (عظام) لكن هؤلاء الاطفال الاكبر يؤثرون بدورهم ان يلعبوا مع اطفال يكبرونهم ، وهلم جراً ؛ ونتيجة ذلك ان الاطفال في المدرسة او في شوارع احياء الفقراء المدقع ، او في اي مكان آخر يكثرون فيه وتكثر بذلك فرصة الاختيار من بينهم ، يلعبون في الكثير الغالب مع اترابهم لان الاكبر من بينهم يأبى اللعب مع الاصغر ، وبذا يؤول الامر الى ان ما يتعلمه الاصغر عن الاكبر لا يمكن تعلم معظمه الا في البيت . وموطن الضعف من هذا ان الولد الاكبر في كل اسرة يكون محروماً من فوائد هذه الطريقة ، وكلما صغرت الاسر زادت فيها نسبة الاطفال الاكبر ، فموطن الضعف هذا اذاً في ازدياد. فالاسر الصغيرة في غير مصلحة الاطفال من بعض الوجوه الا اذا تمتها مدارس الحضانة . لكن الكلام عن مدارس الحضانة سيكون موضوع فصل آت .

ان الاطفال الاكبر والاطفال الاصغر والاتراب كل له فوائده ، لكن فوائد الاطفال الاكبر والاصغر محصورة في الغالب في الاسرة للأسباب التي ذكرناها آنفاً . والفائدة العظمى للأطفال الاكبر هي ان اعمالهم للأصغر بمثابة مطامح في مقدورهم ان يبلغوها . والطفل يبذل جهوداً عظيمة كي يرى اهلا للعب مع طفل اكبر منه . والطفل الاكبر يسلك بطبيعته مسلك غير المكترث ، فلا يحتاط ولا يتصنع كما يفعل الكبار حتماً في ألعابهم مع الاطفال ، ولو صدر عدم الاهتمام نفسه من كبير نحو طفل لآلمه ، لان الكبير له قوة وسيطرة ، ولانه يلعب ليسر الطفل لا ليسر نفسه ، فالطفل ينقاد في بشر الى أخ اكبر او اخت انقياداً يستحيل ان ينقاده الى بالغ الا عن اسراف في التأديب . فخير من يعلم الطفل التعاون مع الانقياد هم غيره من الاطفال، وهو درس اذا ما حاول الكبار تعليمه الصغار استهدفوا لخطرين متضادين ، الغلظة والتصنع – الغلظة اذا تطلبوا

التعاون الحقيقي ، والتصنع اذا قنعوا بمظهر التعاون . ولست اقصد انه يجب على الدوام تجنب التعاون الحقيقي او المتصنع ، لكني اقصد ان التعاون في اللعب بين الطفل والبالغين يعوزه الاقبال الممكن ان يكون بين طفلين اكبر واصغر ، واذا فلا يمكن ان يقترن عند الطرفين بالسرور المتصل ساعات متواليات .

في خلال الشباب كله يظل لمن هم اكبر بقليل نفع خاص في التعليم ، لا في التعليم الرسمي ، ولكن في ذلك التعليم الذي يقع خارج اوقات الدرس ، فالولد الاكبر قليلاً او البنت يظل دائماً ذا اثر فعال في الحفز الى الطموح وفي استطاعته اذا كان فيه رفق ان يفسر الصعوبات خيراً من شخص بالغ لحداثة عهده بالتغلب عليها . وقد تعلمت حتى في الجامعة ممن يكبرونني بسنوات قليلة كثيراً مما لم أكن لأستطيع تعلمه من السادة الوقورين المحترمين ، واعتقد ان هذا الذي وجدته عام في كل جامعة لا تكون الحياة الاجتماعية فيها قـــد قسمتها الفرق الدراسية الى طبقات منفصلة . لكنه بطبيعة الحال يكون مستحيلاً حين يحسب الطلبة الأكبر — وكثيراً ما يحسبون — ان كرامتهم يحط منهـــا اتصالهم بمن هم دونهم في أي شأن من الشؤون .

والاطفال الاصغر لهم فوائدهم كذلك لا سيما فيما بـــين الثالثة والسادسة ، وفوائدهم هذه تظهر بنوع خاص فيما يتعلق بالتربية الخلقية ، فما دام الطفل مع البالغين فلا فرصة لديه لممارسة عدد من الفضائل ذات الشأن ، وأعـني تلك التي يحتاجها القوي في معاملة الضعيف . فالطفل عليه ان يتعـلم الا يغتصب الاشياء من اخيه الاصغر او اخته، والا يبالغ في الغضب عندما ينهدم البرج الذي شيده من الطوب باصطدام الطفل الاصغر به عن غير قصد ، وألا يكنز اللعب التي لا يستعملها هو ويشتهيها غيره . والطفل عليه ان يتعلم ان من السهل ايذاء من هو اصغر منه بالمعاملة الجافة ، وان يحس بالندم اذا تسبب في إسالة دموع غيره من غير داع . وفي حماية الطفل الاصغر يستطيع ان يكلم الاكبر بحدة ومفاجـأة لا

يبررهما الا ظروف كهذه ، لكنهما لهما فوائدهما التي ترجع الى ما يتركان من أثر راجع الى عدم توقعهما .

كل هذه دروس نافعة لا يكاد يتسنى اعطاؤها عفواً بأية وسيلة اخرى . ان من الحمق وتضييع الوقت ان نعطي الطفل تعليمات خلقية مجردة. كل شيء يجب ان يكون محسوساً ملموساً يقتضيه الظرف الواقع . فكثيراً مما يعده الكبار تربية خلقية يبدو للطفل الصغير كأنه تعليم كتعليم استعمال المنشار ، فالطفل يشعر عندئذ أنه يعلم كيف يعمل الشيء المراد عمله ، وهذا احد الاسباب التي تجعل للمثال اهمية كبيرة . ان الطفل الذي يرقب النجار في عمله يحاول ان يقلد حركاته ، كذلك الطفل الذي يرى والديه يسلكان دائماً مسلك الرفق والرعاية يحاول ان يقلدهما في هذه الناحية ، وفي كل من الحالتين يكتسب الطفل اكباراً لما يريد تقليده . فلو انك اعطيت طفلك درساً جدياً في استعمال المنشار وكنت انت على الدوام تستخدمه ساطوراً لم تستطع ابداً ان تجعل من طفلك هذا نجاراً ، كذلك اذا كنت تحثه على الرفق بأخته الصغيرة ولم تكن انت بها رفيقاً ، ذهبت تعاليمك كلها عبثاً . من اجل هذا اضطررت الى ان تفعل شيئاً يسبب بكاء طفل صغير كتنظيف أنفه مثلاً ، كان عليك ان تشرح للطفل الاكبر السبب الذي يضطرك لذلك ، والا فمن المحتمل جداً ان يقوم مدافعاً عن الصغير ، فيقاتلك لتكف عن قسوتك . انك اذا تركته يظن بك القسوة ، فقدت المقدرة على كف نزعاته هو الى الظلم والطغيان .

على انه اذا كان للأكبر والاصغر من الاطفال اهمية ، فان اهمية الاطفال المتقاربي الاتراب اعظم ، لا سيما من الرابعة فما بعدها . ان السلوك ازاء الأنداد هو ألزم ما يتعلم المتعلم . ان اكثر الفروق في الدنيا الحاضرة متكلفة مصطنعة ، ومن الخير ان نتجاهلها في سلوكنا . يتوهم الاغنياء انفسهم ارفع من طباخيهم ويسلكون معهم مسلكاً يختلف عن مسلكهم في المجتمع ، لكنهم يشعرون انهم أحط من الامير ويعاملونه معاملة تنم عن احتقارهم انفسهم ، وهم في كلتا

الحالتين مخطئون ، اذ الطباخ والامير ينبغي ان يكونا في الشعور نحوهما وفي معاملتهما سواء . وفي الصبا يوجد التفاوت في السن تفاوتاً في المقام غير مصطنع لكن لهذا السبب نفسه تكون معاشرة الاتراب افضل وسيلة لتعلم العادات الاجتماعية المستحبة فيما بعد ! والالعاب بأنواعها احسن بين الانداد ، وكذلك المنافسة المدرسية . فللولد من الاهمية بين رفاقه في المدرسة ذلك القدر الذي يوحي به حكمهم عليه . قد يعجبون به وقد يحتقرونه ، لكن ذلك يكون تبعاً لخلقه هو واقدامه . ان الوالدين العطوفين يجعلان بيئة الطفل مسرفة في جريها على هواه ، واللذين لا عطف عندهما يجعلانها بيئة كبت للذات والاتراب وحدهم هم الذين يخلون بين المرء ونفسه يجري على سجيته في التنافس الحر والتعاون على قدم المساواة. فاحترام النفس من غير طغيان وتبجيل الغير من غير ذلة خير وسائل تعلمهما معاملة الانداد . ولهذه الاسباب لا يتأتى للعناية الوالدية مهما عظمت ان توفر للولد او للبنت في المنزل نفس المزايا التي يتمتعان بها في المدرسة الجيدة .

وهناك اعتبار غير هذه الاعتبارات لعله اهم منها على اهميتها . ذلك ان عقل الطفل وبدنه يتطلبان قدراً كبيراً من اللعب ، واللعب لا يتيسر على وجه مرضٍ بعد السنوات الاولى الا مع الاولاد والبنات الآخرين ، وبدون اللعب يعتبر الطفل مرهفاً عصبياً ، لا يجد للحياة فرصة ، وتتوالد في نفسه المخاوف والهموم . ومن الممكن طبعاً ان ينشأ الطفل كما نشأ جون ستيوارت مل ، فيعلم اليونانية في سن الثالثة ، ولا يعرف شيئاً قط من مزاح الاطفال ومرحهم . وقد تكون نتائج هذا حسنة من ناحية تحصيل المعلومات ، لكني لا استطيع الاعجاب بها بوجه عام . ويروي مل في ترجمته الذاتية انه في دور المراهقة كاد ينتحر اشفاقاً من ان تنفد يوماً ما كل توافيق النغمات الموسيقية فيمتنع كل جديد في التأليف الموسيقي . وواضح ان تسلط فكرة كهذه دليل الاعياء العصبي ، وقد كان في كبره كلما صادف حجة تشير الى احتمال خطأ فلسفة أبيه جفل منها جفول الحصان الخائف ، وقلل ذلك كثيراً من قيمة قواه الاستنباطية . ومن المرجح انه لو كان اكثر مجاراة للطبع في شبابه لكان أكثر مرونة عقلية وأقدر على الابتكار في تفكيره ، ومهما

يكن من أمر فان ذلك كان يجعله من غير شك أقدر على الاستمتاع بالحياة . ولقد تربيت انا نفسي تربية انفرادية الى سن السادسة عشرة - تربية أقل عنتاً من تربية مل ، لكنها كانت مع ذلك أفقر مما ينبغي من افراح الصبا العادية . وقد وجدت في دور المراهقة نفس الميل الى الانتحار الذي وصفه مل ، وكان الدافع اليه عندي ما تصورته من ان قوانين الحركة كانت تسيطر على حركات جسمي جاعلة الارادة مجرد وهم . ولما بدأت أخالط من في سني وجدت نفسي محرفاً مغروراً. اما ماذا بقي عندي من ذلك فليس الحكم عليه إليّ .

وبالرغم من كل ما قدمت من حجج فاني مستعد للتسليم بأن هناك عدداً معيناً من الاولاد والبنات ينبغي ألا يذهب الى المدارس ، وان بعض هؤلاء أفراد على جانب عظيم من الأهمية . اذا كانت القوى العقلية لولد فوق المألوف في اتجاه معين وكان مع هذا ضعيف البنية عصبياً جداً ، فقد يكون غير صالح بالمرة لأن يندمج في مجموعة من الاولاد العاديين ، وقد يضطهدونه الى حد يسوقه الى الجنون . وليس من النادر ان تقترن القدرات الشاذة بقلة الاتزان العقلي ، وفي مثل هذه الأحوال يستحب اتخاذ طرق لا يصلح بها الولد العادي . وينبغي ان يتحرى معرفة ما اذا كان للحساسية غير الطبيعية سبب معين ، كما ينبغي عندئذ ان نصبر على بذل الجهود لعلاجها ، لكن هذه الجهود ينبغي ألا تستلزم أبداً تحميله الآلام الفظيعة التي قد يضطر الولد الشاذ ان يتحملها من رفاقه القساة. وفي رأيي ان مثل هذه الحساسية يرجع اصلها على العموم الى اخطاء في عهد الرضاع أفسدت هضم الطفل او اعصابه ، فاذا اتبعت الحكمة في معاملة الرضع ، كان ذلك كفيلاً في رأيي بأن ينمو الكثير الغالب منهم اولاداً او بناتاً على غرار من الطبيعة يكفي لاستمتاعهم بصحبة غيرهم من الاولاد والبنات . ومع ذلك فستكون هناك استثناءات ، وهذه اقرب الى الوقوع بين الذين فيهم نوع من العبقرية. ففي مثل هذه الاحوال النادرة تكون المدرسة غير مستحبة ، ويفضل عليها نشأة اكثر حظاً من الحماية والعزلة في الشباب .

- ١١ -

المحبة والعطف

قد يعتقد كثير من القراء اني أهملت المحبة الى الآن من غير داع وهي من بعض النواحي قوام الخلق الطيب . اني اعتقد أن الحب والمعرفة هما الأساسان اللازمان لحسن التصرف ، ومع ذلك ففيما كتبت عن التربية الخلقية لم أقل الى الآن شيئاً عن الحب ، وسبب ذلك عندي ان النوع الصالح من الحب ينبغي أن يكون الثمرة الطبيعية للمعاملة المناسبة للطفل في نموه ، لا أن يكون شيئاً نرمي اليه ونقصد خلال جميع مراحل النمو المختلفة . ويجب ان نكون على بينة من نوع المحبة التي نبتغيها ، والميل الملائم للأعمار المختلفة ، فمن العاشرة او الثانية عشرة الى سن البلوغ والمراهقة يغلب جداً ان يكون الولد خلواً من المحبة ، ولا نجني شيئاً من محاولة اخراجه عن طبعه .

وفي الصبا كله تقل فرص اظهار العطف عنها في الكبر لضعف المقدرة على التعبير عنه تعبيراً فعالاً ، ولأن اليافع مضطر للتفكير في اعداد نفسه للحياة غير آبه بما يهم غيره من الناس، لهذه الاسباب ينبغي أن نكون اكثر اهتماماً بتكوين

كبار ذوي عطف ومحبة منا باستخراج هذه الصفات كرهاً قبل أوانها في السنوات المبكرة . والمشكلة التي امامنا كجميع مشاكل التربية الخلقية ، مشكلة علمية تنتمي الى ما يصح تسميته بعلم الحركة النفسية . ان الحب لا يمكن ان يوجد كواجب ، فمن العبث - ان لم يكن شراً من العبث - ان نقول لطفل انه ينبغي له ان يحب والديه واخوته واخواته ، وعلى الوالدين اللذين يودان ان يحبهما اولادهما ان يسلكا معهم مسلكاً يستثير الحب ، كما يجب ان يحاولا اكساب اطفالهما تلك الخصائص الحسية والعقلية التي تنتج من المحبة والحنان ما يتسع ويزداد .

وليس علينا فقط ألا نأمر الاطفال بحب والديهم ، بل يجب ألا يعمل شيء ابتغاء الوصول الى هذا الحب . ان المحبة الوالدية في خير صورها تختلف عن الحب الجنسي من هذه الناحية : فمن روح الحب الجنسي انه يبتغي استجابة له ، وهذا طبيعي ، اذ بدون الاستجابة له لا يمكنه ان يحقق وظيفته الحيوية ، لكن ليس من روح الحب الوالدي ان يبتغي لنفسه استجابة . فالغريزة الوالدية الجارية على فطرتها تشعر نحو الطفل كما تشعر نحو جزء ظاهر خاص من الجسم . انك اذا اهتممت بإبهام قدمك لضرر أصابها ، تعنى بها لمصلحتك غير منتظر منها اقراراً باحسانك . وللمرأة المتوحشة كما أتخيل شعور كبير الشبه بهذا نحو طفلها ، فهي ترغب في صلاحه رغبتها في صلاح نفسها تماماً ، لا سيما وهو صغير جداً ، فهي لا تحس من انكار الذات حين تعنى بطفلها بأكثر مما تحس به حين تعنى بنفسها ، ولهذا السبب نفسه لا تنتظر منه شكراً ، فاحتياج الطفل اليها استجابة لها كافية ما دام الطفل كلاً عاجزاً ، فاذا ما أخذ يشب تناقصت محبتها له وتزايدت طلباتها منه . والمحبة الوالدية تزول عند الحيوانات متى كبر طفلها واستغنى ، ثم لا ترى لنفسها عليه حقاً . وليس هذا عند الآدميين ، حتى البدائيين منهم ، فالابن ذو الفتوة والقوة ينتظر منه والداه ان يطعمها ويحميها اذا اقعدهما الكبر . وكلما بعد نظر الناس للمستقبل ازداد نزوعهم الى استغلال محبة الاطفال كي يعينوهم اذا جاء الهرم ، ومن ثم نشأ مبدأ بر الوالدين الذي كان ولا يزال موجوداً

في الدنيا كلها . وبنمو الملكية الخاصة والحكومة المنظمـــة تتضاءل اهمية بر الوالدين ، وسيدرك الناس هذه الحقيقة في بضعة قرون وتصبح العاطفة لا يؤبه بها . وفي الدنيا الحديثة قد يكون رجل الخمسين عالة على والده في الثمانين ، اي ان الأمر المهم لا يزال هو محبة الوالد لطفله لا محبة الطفل لوالده ، وهذا بطبيعة الحال يصدق في الاكثر على الطبقات الموسرة ، امـــا الطبقات المأجورة كساب العيش ، فلا تزال العلاقة القديمة هي القائمة بينهم ، لكننا نراها حتى بـين هؤلاء تفسح المجال لغيرها بالتدريج نتيجة قوانين معاشات الشيخوخة وما اليها. فمحبة الأطفال والديهم آخذة في ان تفقد من اجل ذلك مكانتها بين الفضائل الرئيسية ، بينما تبقى محبة الوالدين اطفالهم على جانب عظيم من الأهمية .

وهناك طائفة أخرى من الأخطار ، ابرزها علماء التحليل النفسي وان كنت ارى موضعاً للشك في تفسيرهم للوقائع ، اعني الاخطار المتصلة بتعلق الطفـــل بأحد والديه اكثر من اللازم . وما ينبغي للكبير بل ولا للمراهق ان يستظـل بأبيه او امه الى حد يجعله غير قادر ان يستقل بفكره وبشعوره ، كما قد يقع بسهولة اذا كانت شخصية الوالد او الوالدة أقوى من شخصية الطفـــل . اني لا اعتقد صحة ما يقال من وجود جاذبية خاصة بين الابناء وأمهاتهم وبين البنات وآبائهم ، أللهم الا في احوال نادرة مرضية ، فاذا وجد لأحـــد الوالدين تأثير مفرط فسيكون لأيهما هو اكثر اتصالاً بالطفل — الأم عـادة — بغض النظر عن الاختلاف الجنسي ، وقد يحدث بالطبـع ان بنتاً لا تحب أمها ولا ترى والدهـا الا غراراً تجعل من هذا الوالد مثلاً أعلى ، لكن التأثير في مثل هذه الحالة يكون مرده الى الاحلام لا الى الوالد الواقعي واتخاذ المثل العليا من الناس عبـارة عن تعليق الآمال بشيء ، شيء موافق ليس غير ، ولا علاقة له مطلقـــاً بطبيعة الآمال. والنفوذ المفرط لأحد الوالدين أمر مخالف لهذا تماماً، لأنه يتصل بالشخص الواقعي لا بصورة خيالية .

ومن السهل ان يصبح الكبير الدائم الاتصال بطفل مستحوذاً عليه في حياته

استحواذاً يجعله من ناحية العقل عبداً له حق في كبره . والعبودية قد تكون فكرية او عاطفية او هما معاً ، ومن الأمثلة الجيدة للنوع الاول جون ستيوارت مل الذي لم يكن يستطيع حتى عند الاحراج أن يطوع لنفسه التسليم بأن من الممكن ان يكون والده على خطأ . ومن الطبيعي ان يكون الانسان في بدء حياته عبداً للوسط من الناحية الفكرية ، وقليل جداً من الكبار من يستطيع من الرأي غير ما علمهم الوالدان او المعلمون ، اللهم الا حيث يوجد تيار عام يجرفهم معه . ومع ذلك فمن الممكن ان يقال ان العبودية الفكرية طبيعية عادية، وأراني ميالا للتسليم بأنه لا سبيل الى تجنبها الا بتربية ترمي لهذا الغرض . هذا الشكل من التأثير المفرط للآباء والمدرسين يجب ان يعنى بتجنبه ، فمن الخطر الشديد في دنيا سريعة التغير ان نلتزم آراء جيل مضى ، لكني سأقتصر الان على النظر في رق العواطف والارادة لأنه اكثر ارتباطاً بالموضوع الحاضر .

ان الشرور التي ردها علماء التحليل النفسي خطأ الى ميل جنسي لا ينبغي أن تنشأ عن رغبة مفرطة من الوالدين في ان يظفرا من اطفالهما بعاطفة مقابل عاطفة . واني اعتقد كما قلت منذ لحظة ان الغريزة الوالدية الخالصة لا تبغي استجابة مقابلة ، فهي ترضى باعتماد الصغار وتطلعهم الى الوالدين ليحمياهم ويطعماهم . فاذا ما انتهى ذلك الاعتماد انتهت ايضاً المحبة الوالدية . هذا هو الحال بين الحيوانات وهو يفي بأغراضها تماماً، لكن مثل هذه البساطة في الغريزة بعيد أن يتحقق بين الآدميين . وقد سبق لي ان تكلمت عن اثر الاعتبارات الحربية والاقتصادية في الدعوة الى بر الوالدين . والذي يعنيني الآن مصدران نفسيان صرفان للخلط والفوضى فيما يتعلق بقيام الغريزة الوالدية بعملها .

وأول هذين نوع يحدث كلما لاحظ الفكر المسرات التي تستفاد من الغريزة، فالغريزة على العموم تدفع الى اعمال سارة لها نتائج نافعة ، لكن هذه النتائج قد لا تكون سارة ، فالأكل سار ولكن الهضم ليس كذلك لا سيما اذا ساء ، والعلاقة الجنسية سارة لكن الوضع ليس كذلك ، واعتماد الرضيع على الوالدة سار ، لكن استقلال الابن الفتى ليس كذلك . والمرأة التي أمومتها من طراز بدائي تستقي معظم سرورها من طفلها حين ترضعه ، ويقل سرورها

هذا بالتدريج كلما ترعرع الطفل وقل عجزه . ومن ثم كان هناك من اجـــل السرور ميل الى اطالة فترة العجز وتأجيل الوقت الذي يستطيع الطفل فيه ان يستغني عن ارشاد الوالدين له ، يشهد بذلك بعض التعبيرات مثـل : (لا يزال آخذاً بذيل أمه) . وكان الظن ان من المستحيل علاج هذا الشر في الاولاد الا بارسالهم الى مدرسة ، اما في البنات فلم يكن يعد شراً ، لأنه كان يرى مستحباً لهن ان كن في يسار أن ينشأن عاجزات تابعات ، على أمل أن يلزمن ازواجهن كما كن من قبل يلزمن أمهاتهن ، ولكن هذا لم يحدث الا نادراً . والظاهر انه لم يكن هناك من يدرك ان البنت اذا نشأت تابعة معتمدة على امها ، ظلت كذلك ولم يتسنّ لها بعد الزواج ان تشارك زوجها مشاركة تامة كما هي روح الحيـــاة الزوجية .

والعقدة النفسانية الثانية اقرب من الاولى الى وجهة النظر الفرويدية الصحيحة . فهي تنشأ حين يدخل في المحبة الوالدية عناصر تليق بالحب الجنسي ، ولا أعـــني بذلك اي شيء متوقف بالضرورة على اختلاف الجنس ، انما اعني الرغبة في نوع معين من الاستجابة العاطفية . فجزء من النفسانية الجنسية — وهو في الواقـع الجزء الذي جعل مبدأ الزوجة الواحدة ممكناً — عبارة عن رغبـة الانسان في احتلال المكانة الأولى عند شخص مـــا ، واحساسه بأنه ألزم من سائر البشر لسعادة شخص واحد في الدنيا على الأقل ، واذا انتهت هذه الرغبة بالزواج فانها لا تنتج السعادة الا مع توافر عدد من الشروط الاخرى . وهنـــاك في الأقطار المتمدنة نسبة كبيرة جداً من النساء المتزوجات تعوزهن، لأسباب مختلفة الحياة الجنسية المرضية ، وعندما يحدث ذلك لامرأة فانها تكون عرضة لأن تتطلب عند اطفالها ارضاء ما لا يتوفر ارضاؤه عادة عندهم . ولا أقصد بهذا القول مـــا يتبادر منه ، وانمـــا اقصد توتراً عاطفياً معينـــاً ، والتهاباً معيناً في الشعور وسروراً في التقبيل والتدليل ، وقد كانت الامور معتبرة صواباً لا غبار عليهـا في الأمهات العطوفات . والواقع ان الفرق بين ما هو صواب من هذا ومـــا هو

ضار دقيق خفي ، ان من السخف ان يقال كما يفعل الفرويديون ان الوالدين لا ينبغي أن يقبلوا اطفالهم او يضموهم ابداً ، فالاطفال لهم على آبائهم حق الحنو الظاهر ، فذلك يجعلهم ينظرون الى الدنيا نظرة سعيدة خالية من الهم ، كما انه ضروري لنموهم نمواً نفسياً سليماً ، لكن ينبغي ان يكون ذلك الحنو شيئاً يأخذونه لأنه موجود وجود الهواء الذي يتنفسونه ، لا شيئاً ينتظر منهم ان يستجيبوا له ويقابلوه بمثله . ومسألة الاستجابة هذه هي روح الموضوع . انهم سيستجيبون من تلقاء انفسهم استجابة معينة وهي خير كلها ، لكنها ستختلف تماماً عن سعيهم وراء اكتساب صداقة رفاقهم من الاطفال . ان مما ينبغي من الناحية النفسية ان يكون الوالدان في الوراء وألا يحمل الطفل على ان يتصرف بقصد ادخال السرور على والديه ، فسرورهما ينبغي ان يجداه في نمو طفلهما وتقدمه ، وما يأتيهما من محبة استجابة لمحبتهما ، ينبغي ان يتقبلاه بالاغتباط على انه زيادة صرفة جاءتهما كما يجيء الجو الصحو في الربيع ، لا كأمر متوقع تقتضيه طبيعة الامور .

ان من الصعب جداً على المرأة ان تكون لصغار الاطفال أماً كاملة او معلمة كاملة ما لم تكن راضية من الناحية الجنسية . ومهما يقل المحللون النفسيون فالغريزة الوالدية تختلف في صميمها عن الغريزة الجنسية ويضرها تدخل العواطف الملائمة للجنس . ومن الخطأ النفساني استخدام النساء العوانس معلمات ، فالمرأة الصالحة لمعاملة الاطفال هي التي لا تتطلب غريزتها منهم انواعاً من الارضاء لا ينبغي ان ينتظر منهم ان يمدوها بها ، فالمرأة السعيدة في زواجها يمكنها ان تكون من هذا الطراز بغير جهد ، لكن غيرها من النساء تحتاج الى ضبط نفس دقيق لا يكاد يتيسر . وهذا بطبيعة الحال ينطبق على الرجال اذا وجدوا في نفس الظروف ، لكن هذه الظروف أقل كثيراً في الرجال ، لأن الغريزة الأبوية ليست في العادة قوية جداً عندهم ، ولأنه يندر ان يكونوا محرومين من الناحية الجنسية .

ومن المستحسن ان نكون على بينة من الموقف الذي ينتظر من الاطفال ان

يتخذوه بالنسبة لوالديهم . اذا كان ما لدى الوالدين من حب لأطفالهما من النوع الصحيح كانت استجابة الاطفال من النوع الذي يرغبان فيه بالضبط ، فسيسر الاطفال لقدوم والديهم وسيحزنون لذهابهما ، الا اذا كانوا مستغرقين في اعمال تروقهم ، وسيتطلعون الى والديهم ليساعداهم في ورطة جسمانية او عقلية انزلت بهم ، وسيجرأون على المغامرات اعتماداً في قرارة نفوسهم على حماية والديهم ، لكن هذا الشعور لا يكادون يحسونه الا في اوقات الخطر . وسينتظرون من والديهم ان يجيبا على اسئلتهم ويحلا مشكلاتهم ويعاوناهم في الصعب من الاعمال ، ولن يعوا معظم ما يقوم به الوالدان من اجلهم . فسيحبون والديهم لا لأنهما يمدانهم بالمأكل والمسكن ، ولكن لأنهما يلعبان معهم ويبينان لهم كيف يعملون الجديد من الاشياء ، ويحكيان لهم حكايات عن الدنيا . وسيدركون بالتدريج ان والديهم يحبانهم ، لكن هذا ينبغي ان يتلقوه كأمر طبيعي . وستكون المحبة التي يشعرون بها نحو والديهم من نوع مخالف تماماً للمحبة التي يشعرون بها نحو غيرهم من الاطفال ، والوالد يجب ان ينظر الى الطفل فيما يفعل . لكن الطفل فيما يفعل يجب ان ينظر الى نفسه والى الدنيا المحيطة به ، وهذا هو الفرق الأساسي بين الوالد والطفل . ليس للطفل وظيفة هامة يؤديها نحو والديه ، فوظيفته هي ان ينمو في الحكمة وفي القامة ، وما دام يفعل ذلك فان الغريزة الوالدية السليمة تجد فيه ما يرضيها .

انه ليحزنني أن ألقي في روع القراء اني اريد انقاص المحبة في حياة الأسرة او مظاهرها التلقائية ، فهذا ما لست أقصده بتاتاً ، وانما الذي اعنيه ان هناك انواعاً مختلفة من المحبة . فمحبة الزوج الزوجة شيء ، ومحبة الوالدين اطفالهما شيء آخر ، كما ان محبة الاطفال والديهم شيء ثالث ، ويأتي الضرر من الخلط بين هذه الانواع المختلفة للمحبة الفطرية . ولست ارى الفرويديين قد وصلوا الى الحقيقة لأنهم لا يدركون هذه الفروق في الغرائز . وهذا يجعلهم على وجه متشددين فيما يتعلق بالوالدين والاطفال، لأنهم ينظرون الى الحب بينهم كأنه نوع من حب جنسي منقوص .

عندما كان عمر ابني سنتين واربعة اشهر سافرت الى امريكا حيث تغيبت

ثلاثة اشهر ، وكان اثناء غيابي سعيداً تماماً ، لكنه لما عدت كاد يجن من الفرح . وجدته ينتظرني متلهفاً عند بوابة الحديقة ، فأمسك بيدي وشرع يريني كل شيء يهمه ويعجبه ، وكنت اريد الاستماع وكان يريد التحدث ، فكانت النزعتان مختلفتين ولكن متوافقتين ، الا في الحكايات ، فعندهـا كان يرغب في الاستماع وارغب انا في التحدث ، وبذا يتحقق التوافق مرة اخرى . ولم ينعكس هـذا الوضع الا مرة واحدة ، عندما كان في سن الثالثة والنصف جاء عيد ميلادي ، وأنبأته امه ان كل شيء يجب ان يعمل لارضائي ، ولما كانت الحكايات تسره الى اقصى حد ، فقد أدهشنا لما حان وقتها قوله انه سيقص عليّ حكايات لأنه عيد ميلادي ، وبعد ان حكى نحو اثنتي عشرة حكاية قفز الى الارض قائلاً : « لا حكايات اخرى اليوم » . كان ذلك منذ ثلاثة اشهر ، لكنه بعدها لم يحك مرة اخرى حكاية ما .

نأتي الآن الى مسألة أوسع ، مسألة المحبة والعطف عامة ، ولما كان هناك تعقيدات قد تنشأ بين الوالدين والاطفال راجعة الى احتمال اساءةالوالدين استعمال قوتهم ، كان لا بد من معالجتها قبل الخوض في المسألة العامة .

ليس في الامكان قسر الطفل بأية طريقة على ان يستشعر العطف او المحبة، والطريقة الوحيدة الممكنة هي ملاحظة الظروف التي تنشأ فيها تلك المشاعر من تلقاء نفسها ثم الاجتهاد في تهيئة تلك الظروف . ان العطف بلا شك بعضه غريزي ، والاطفال يبتئسون كلما بكى اخوتهم او اخواتهم ، وكثيراً ما يبكون هم ايضاً وينتصرون لهم على الكبار اذا اتوا اليهم ما يكرهون . لما جرح ابني في ساعده واحتاج الأمر لتطهيره وربطه كانت اخته التي عمرها سنة ونصف تسمع بكاءه في غرفة اخرى فاضطربت له وجعلت تكرر : (جوني يبكي ، جوني يبكي) حتى انتهت العملية المؤلمة . ولما رأى ابني امه تستخرج شوكة بالابرة من قدمها قال باشفاق : (انها لا تؤلم يا اماه) فقالت له انها تؤلم لتلقي عليه درساً في الاحتمال ، فأصر على انها لا تؤلم، وأصرت امه على انها تؤلم ، فاذا

به ينفجر بالبكاء كما لو كانت الشوكة في قدمه هو . فمثل هذا ينجم عن عطف حسي غريزي . وهـذا هو الاساس الذي يجب ان ينبني عليـه من صور العطف ما هو أعقد وأرقى . وواضح اننا لا نحتاج لأكثر من ذلك في سبيل التربيـة الايجابية الا ان نشعر الطفل ان الناس والحيوانات تستطيع الاحساس بالألم وانها تحسه بالفعل في ظروفه . على ان هناك غير هذا شرطاً سلبياً، هو ألا يرى الطفل من يحترمهم من الناس يرتكبون من الأفعال ما فيه غلظة او قسوة . فاذا اصطاد الأب الحيوان وأغلظت الأم للخادمات فسيأخذ الطفل عنهما هاتين الرذيلتين .

ان مسألة كيف ومتى يطلع الطفل على ما في الدنيا من شر مسألة صعبة . ان من المستحيل ان ينمو الطفل وهو يجهل الحروب والمذابح والفاقة والامراض التي لم تمنع مع امكان منعها ، فلا بد ان يعرف الطفل هذه الاشياء في مرحلة مـا ، كما يجب ان يجمع بين هذه المعرفة وبين يقين راسخ بأن انزال ألم او مصيبة ، بل والسماح بانزال ذلك مع امكان تجنبه ، امر عظيم . وهنا تواجهنـا مشكلة كالتي تواجه الذين يبتغون حفظ العفـاف على الاناث ، فهؤلاء كانوا يعتقدون فيما مضى ببقاء البنات في جهلهن حتى الزواج لكنهم في الوقت الحاضر يتخذون طرقاً ايجابية اخرى .

لقد عرفت من السلميين من يود لو يعلم التاريخ بغير اشارة الى الحروب ويرى ان الاطفال ينبغي ان يبقوا اكبر زمن ممكن يجهلون ما في العالم من قسوة، لكنني لا استطيع ان امتدح (الفضيلة الهاربة المنعزلة في صومعة) التي تتوقف على عدم المعرفة . فمتى حان الوقت لتعليم التاريخ فينبغي ان نعلمه بالصدق ، فاذا تعارض التاريخ الحق مع مبدأ اخلاقي ترغب ان تعلمه تحتم ان يكون المبدأ خطأ ، وكان الأولى ان تقلع عنه . واني لأعترف ان كثيراً من الناس وفيهم قوم من اكثر الناس تمسكاً بالفضيلة ، لا يرتاحون الى الحقائق ، ولكن مرد هذا الى ضعف في فضيلتهم . فالاخلاق المتينة حقاً لا يقويهـا الا المعرفة الشاملة لكل مـا يحدث بالفعل في الدنيا . يجب ألا نتعرض لخطر اتجاه الشبان ، والذين ربيناهم في جهل،

الى الشر بابتهاج بمجرد اكتشافهم ان شيئاً كهـذا موجود . انهم لن يمتنعوا عن القسوة اذا نحن لم نبغضها اليهم ، ولن يستطيعوا بغضاً لهـا اذا لم يكونوا على علم بوجودها .

ومع ذلك فليس من السهل العثور على الوسيلة الصحيحة لتعريف الاطفال الشر . والذين يعيشون منهم في أحياء الفقر المدقع في المدن الكبيرة يعرفون مبكرين بطبيعة الحـال كل ما يتعلق بعربـدة السكيرين والمشاجرات وضرب الزوجات وهلم جرا ، ولعل هذا لا يضرهم اذا كانت هنـاك عوامل اخرى لمحو آثاره ، لكن ليس هناك والد حذر يقظ يعرض طفلاً صغيراً جداً لمثل تلـك المناظر عمداً . واعظم اعتراض عليهـا في رأيي هو انها تثير في نفس الطفل خوفاً شديداً يصطبغ به بقية حياته ، والطفل لعجزه لا مندوحة له عن الشعور بالفزع عندما يدرك لأول مرة ان القسوة على الاطفال ممكنة .

كانت سني اربعة عشر عاماً عندما قرأت رواية أوليفر تويست لأول مرة ، ومع ذلك ملأتني بمشاعر من الرعب، مـا كان ليتيسر لي احتمالها في سن اصغر ، فالاشياء الفظيعة ينبغي ألا يعلمها النشء الا عنـدما يبلغ احدهم من العمر ما يكفي لمواجهتها بالاتزان المطلوب . وهذه السن يصل اليها بعض الاطفال قبـل بعض ، وذوو الخيـال والتهيب من بينهم يجب حمايتهم مدة اطول من ذوي الرصانة او الذين وهبوا شجاعة فطرية . فمن الواجب ان ترسخ في الطفل عادة عدم الخوف الناشئة عن توقعه الشفقة والرحمة قبل ان يطلع على ما في الدنيا من غلظة ، واختيار اللحظة الملائمة او الكيفية يحتاج الى لباقة وفهم ، اذ هو ليس بالامر الذي يتقرر بقاعدة توضع .

ومع ذلك فهناك بعض حكم ينبغي اتباعها : اولهـا ان الحكايات التي على شاكلة ذي اللحية الزرقاء وجاك قاتل العمالقة لا تستلزم احاطة بالقسوة ، فـلا تدخل فيما نحن بصدده لأنها عند الطفل خيالية صرفة ، وهو لا يربطهـا بالدنيا

الحقيقية اي ربط . لا شك في ان السرور الذي يجده فيهـــا متصل بالغرائز الوحشية ، لكن هذه لا ضرر منها ، اذ هي مجرد نزعات لعبية في طفل لا حول له ولا قوة ، ومن شأنها ان تتلاشى كلما نما الطفل وكبر . لكن عندما يبدأ في اطلاع الطفـــل على القسوة كشيء موجود في الدنيــا يجب ان يعنى باختيار الحوادث التي يكون هوى الطفل فيها مع المجنى عليه لا مع الجاني . ان بعض الوحشية سيتحرك فيه فيغتبط بحكاية يكون هواه فيها مع الظالم ، ومن شأن أمثال هذه الحكاية ان توجد الامبراطوريين في الناس . لكن قصة ابراهيم وهو يتأهب لتضحية اسحاق ، او الدببة وهي تقتل الاطفال الذين لعنهم اليسع تثير بطبيعتها عطف الطفل على طفل مثله . ومن نفس البـاب حكاية هيوبرت يفقأ عين ارثر الصغير في رواية الملك جون .

ثم ان التاريخ يمكن ان يعلم بجميع ما فيــه من حروب ، لكن في التحدث عن الحروب ينبغي ان يكون العطف في اول الامر مع المهزوم ، وينبغي ان نبدأ بالمعـــارك التي يشعر الانسان فيها بطبيعته مع الجانب المغلوب كمعركة هيستنجس في التاريخ الانكليزي ، وينبغي توكيد ما تعقبه المعـارك من جراح وآلام ، وينبغي ان نعود الطفل بالتدريج ألا يتحيز حين يقرأ عن الحروب وأن ينظر الى الجانبين كليهما كما ينظر الى رجال حمقى فقـدوا حلمهم وكان الأولى ان تعنى بهم ممرضات يلزمنهم الفراش حتى يهدأوا ويحسن سلوكهم ، وينبغي ان تشبه الحروب بالمشاجرات بين الاطفال في المحضن . وبهذه الطريقة يكون من المستطاع في اعتقادي حمل الاطفال على ان يفهموا الحروب على حقيقتها ويدركوا انها حمق .

واذا ما وقعت تحت نظر الطفـــل حادثة من عدم الشفقة او من القسوة فينبغي مناقشتها مناقشة وافية مع توضيح جميع القيم الخلقية التي يعلقها الرجـل الكبير نفسه على الحادثة ، ومع الايحاء دائماً بأن النـاس الذين قسوا كانوا حمقى ولم يفعلوا خيراً مما فعلوا لانهم لم يربوا كما ينبغي. لكن لا يصح ان نلفت الطفل

الى مثل تلك الاشياء في دنياه هو اذا لم يلحظها من تلقاء نفسه حتى يكون قد ألفها في التاريخ والقصص ، وعندئذ يصح ان نتدرج به الى معرفة الشر في بيئته هو . لكن ينبغي دائماً ان نشعره ان في الامكان محاربة الشر وان الشر ينتج عن الجهل وعدم ضبط النفس وسوء التربية ، وينبغي ألا نشجعه على الحنق على الأشرار ، بل على ان يعتبرهم متخبطين لا يدرون ما هي السعادة .

وتنمية العطف الشامل مسألة فطرية في صميمها اذا وجدت البذرة الغريزية، فهي تتوقف على التوجيه الصائب للالتفات وعلى ادراك الحقائق التي يكتمها ويخفيها القائلون بالحرب والسيطرة ، خذ مثلاً وصف تولستوي لنابليون وهو يتفقد ميدان معركة استرلتز بعد انتصاره . ان اكثر التواريخ ينصرف عن ميدان القتال بمجرد انتهاء المعركة ، وتولستوي بالبقاء فيه اثنتي عشرة ساعة اخرى ، قد رسم صورة للحرب مختلفة عن صورتها التاريخية غاية الاختلاف ، وهذا يجيء لا بكتمان الوقائع ولكن بالاكثار منها . وما ينطبق على المعارك ينطبق ايضاً على غيرها من اشكال القسوة ، وينبغي في جميع الاحوال ألا يكون هناك ضرورة ما لتبيين المغزى ، اذ ينبغي ان يكون في عرض القصة على الوجه الصحيح ما يكفي . لا تستنبط مغزى ، ولكن اترك الوقائع تنتج مغزاها في عقل الطفل .

بقي ان نقول بضع كلمات عن المحبة التي تختلف عن العطف بكونها في صميمها تخصيصية حتماً. وقد تكلمت بالفعل عن المحبة بين الوالدين والاطفال وما اريد الآن ان انظر فيه هو المحبة بين الأنداد .

المحبة لا يمكن ان تخلق ولكن يمكن ان تطلق . وهناك نوع من المحبة اصله الخوف الى حد ، ومحبة الطفل والديه ، فيها هذا العنصر ، لأن الوالدين يقومان بحمايته وهذا النوع من المحبة طبيعي في الطفولة، لكنه غير مستحب بعدها . وحتى في الطفولة ليست محبة الطفل غيره من الاطفال من هذا النوع ،

فابنتي الصغيرة متعلقة بأخيها تعلقاً شديداً رغم كونه الشخص الوحيد في دنياها الذي يعاملها بجفاء وغلظة . أما محبة الند للند وهي خير الأنواع فأجدر أن توجد حيث تسود السعادة ويغيب الخوف . فالمخاوف سواء أكانت محسوسة أم غير محسوسة من شأنهـــا ايحاء الكراهية لأنها تجعل الخائف يتوقع الأذى ممن يخافه . والحسد يحول دون التحابب بين معظم الناس كما هو مشاهد . ولا اظن في الامكان منع الحسد الا بالسعادة ، اذ التأديب الخلقي عاجز عن أن يمس الحسد في مكامنه من النفس . والسعادة بدورها يحول دونها الخوف الى حد كبير . واذا سنحت فرصة من فرص السعادة للنشء فان الوالدين والاصدقاء يصرفونهم عن انتهازها بناء على اعتبارات خلقية في الظاهر وبدافــع الحسد في الواقع ، واذا كان عند النشء قدر كاف من الجرأة فسيتجاهلون امر الناعبين المتشائمين والا فسيسمحون لأنفسهم ان تشقى ، ويلحقون بركب الخلقيين الحاسدين . والتربية الخلقية التي كانت موضع نظرنا آنفاً مقصود بها ايحاء السعادة والشجاعة ، ومن ثم ارى انها تعمل كل الممكن كي تطلق ينابيع المحبة ، وليس في الامكان المزيد على هذا . انك اذا اخبرت الأطفال انه ينبغي عليهم ان يتحابوا تتعرض لخطر ايجاد الرياء والمداهنة ، لكنك اذا جعلتهـــم سعداء احرارا وجعلت الرفق والرحمة من حولهم فستجد انهم يصبحون من تلقاء انفسهم اخوان كل انسان ، وان كل انسان تقريبـــاً يستجيب لمودتهم بمثلها . فالنزوع الى الثقة والمحبة يبرر نفسه لأنه يكسب صاحبه سحرا لا سبيل الى مقاومته ، ويخلق من حوله ما ينتظر من استجابة لعواطفه ، وهذه نتيجة من أهم النتائج التي نتوقعهـــا من التربية الخلقية الصحيحة القويـــة .



- ١٢ -

التربيّة الجنسيّة

ان موضوع الجنس محاط بالخرافات والتحريم لدرجة انني اقتحمه بارتعاش . انني اخشى على اولئك القراء الذين قبلوا حتى الآن بما قلته من مبادىء ونظريات ان يشكوا فيها عندما يجري تطبيقها في هذا المجال . فقد قبلوا باستعداد كاف على ان عدم الخوف والحرية صالحان للولد ومع هذا فأنهم يرغبون في موضوع الجنس ان يفرضوا العبودية والرعب . انني لا استطيع ان اقيد المبادىء التي اعتقد بأنها صحيحة وسأعتبر الجنس تماما بالشكل الذي عاملت فيه الدوافع الأخرى التي تشكل الشخصية الانسانية .

هنالك ناحية واحدة يكون فيها الجنس مصطبغاً بصبغة خاصة بشكل منفصل ومستقل عن التحريم وهي الحالة التي تنضج فيها الغريزة نضوجاً متأخراً . فصحيح ، كما اشار الى ذلك المحللون النفسيون (رغم ما يكتنف ذلك من مبالغات عظيمة) ان الغريزة ليست مفقودة في سن الطفولة ولكن مظاهرها الطفولية تختلف عنها في الكبار . كما وان قوتها اضعف كثيراً ومن المستحيل

جسمانيا لأي غلام ان ينهمك فيها على شاكلة الكبار ، وتستمر حالة البلوغ محنة عاطفية هامة مندفعة وسط التربية الذهنية ومسببة اضطرابات تثير مشاكل صعبة المعلم . وهنالك العديد من هذه المشاكل التي سوف لا احاول بحثها ولكنني بصورة نسبية ارغب في بحث ما يجب عمله قبل البلوغ . اذ انه في هذه الناحية يكون هناك حاجة ماسة للأصلاح التربوي وبصورة خاصة خلال سني الطفولة المبكرة ، ورغم انني اتفق مع ما ذهب اليه (الفرويديون) [1] في العديد من النواحي فانني ارى انهـــم قاموا بخدمات قيمة جداً في الاشارة الى الاضطرابات العصبية التي تنتاب الانسان في حياة الشيخوخة بسبب الاخطاء التي ترتكب في الحياة المبكرة في الامور المتصلة بالجنس. وان مؤلفاتهم قد اثمرت نتائج مفيدة في هذا المجال ولكن لا يزال هنالك مقدار واف من الحيف يجب التغلب عليه . فالصعوبة هنا بالطبع تزداد حدة عندما يترك الاولاد خـلال سنواتهم الاولى كليا بين ايدي نساء غير متعلمات من اللواتي لا ننتظر منهن ان يعرفن او يعتقدن بما قاله العلماء في كلامهم الطويل في ضرورة تجنب الاضطهاد ضد البذاءة .

فاذا تناولنامشاكلنا في ترتيبهاحسب تاريخ حدوثها فان المشكلةالاولى تواجه الامهات والمربيات هي (الاستمناء) . ويقول العلماء الثقاة ان هذه العملية يمارسها الجميع بين الفتيان والفتيات في السنتين الثانية والثالثة ولكنها تتوقف من ذاتها بعد ذلك بقليل . وفي بعض الاحيان تصبح اكثر وضوحاً بتهيجات جسمانية محددة وهذه يمكن ازالتها . (انها ليست ضمن نطاقي ان ادخل في تفصيلات طبية) ولكنها توجد عادة حتى في حالة عدم وجود مثل هذه الاسباب الخاصة . فقد كان من العادة ان ينظر اليها بهلع وان تستعمل تهديدات مخيفة بغية توقيفها . وكقاعدة لا تنجح هذه التهديدات رغم الايمـان بها ، وتكون

---

(١) الفرويديون — اتباع العالم النفسي سيجموند فرويد .

النتيجة ان يعيش الولد في نوع من الهلع الذي يصبح فوراً منفصــلاً عن سببه الأصلي (الذي يكبح في وعينا الداخلي) ولكنه يبقى ليحدث الكابوس والثورات العصبية والوساوس والرعب الجنوني . واذا ترك الطفل لنفسه فان الاستمناء الطفولي ليس له تأثير سيء على الصحة [1] ،كذلك ليس له تأثير سيء ظاهــر على الاخلاق . ان التأثيرات السيئة التي لوحظت في كلتا الناحيتين يبدو انهــا معزوة لمحاولات ايقافه . حتى ولو كان ذلك ضاراً فانه ليس من الحكمة اصدار حظر سوف لا يراعى او يطاع . فمن طبيعة الاشياء انه من المستحيل ان تتأكد من ان الولد سوف لا يستمر بعد ان تكون قد منعته من ان يفعل ذلك ، فاذا لم تفعل شيئاً فان الاحتمال هو ان الممارسة ستنقطع عاجلاً ولكنك ان فعلت شيئاً تجعل الامر اقل املا في ان تتوقف وانك بذلك تضع الاساس لاضطرابات عصبية مخيفة ، وهي صعبة كما تبدو لنا ولهذا يجب ان يترك الولد وحده في هذا الشأن . وانني لا اعني ان عليك الامتناع عن اتخاذ وسائل اخرى غير الحظر بالقدر الذي تكون فيه هذه الوسائل متوفرة ، دعه يكون نعسان عندمــا يلجأ لفراشه وبذلك لا يبقى مضطجعاً فيه مستيقظاً لمدة طويلة ، لتكن لديه لعبة محبوبة في فراشه مما تذهل انتباهه ، ان هذه الوسائل لا يعترض عليها ولكنها اذا فشلت يجب ان لا تلجأ الى الحظر او ان تلفت انتباهه الى انه قد همك نفسه بالممارسة . وبعدها لربما توقفت من تلقاء نفسها .

ان حب الاستطلاع الجنسي يبدأ بصورة طبيعية خلال السنة الثالثة بشكل اهتمام في الفروق الجسدية فيما بين الرجال والنساء وفيما بين الكبــار والاولاد . ان حب الاستطلاع هذا ليس له صفة خاصة بالطبيعة خلال الحقبة المبكرة من الطفولة ولكنه بشكل بسيط يشكل جزءاً من حب الاستطلاع العــام . ان الصفة الخاصة التي وجدت متوفرة بالاولاد الذين ينمون تقليديا انما هي عائدة الى

---

(١) في حالات نادرة جداً تسبب ضرراً بسيطاً ولكن هذا يعالج بسهولة وهو ليس خطيراً اكثر من نتائج مص الباهم .

الممارسة النامية لعمل الامور الغامضة ، فعندما لا يوجد غموض يضمحل حب الاستطلاع ويفنى حالا بعد ان يحصل الاكتفاء فيجب ان يسمح للولد ، من البداية ، ان يرى والديه واخوانه واخواته بدون ملابس في الحالات التي يصدف فيها ذلك بشكل طبيعي . ويجب ان لا يحدث ضوضاء من اي منهما ويجب ان لا يعلم بان بعض الناس لهم شعور حول العري (التجرد من الملابس) – (وبالطبع سيعلم ذلك فيما بعد) . وسنجد بأن الولد يلاحظ فوراً الفروق فيما بين ابيه وامه ويربط ذلك فيما بعد بالفروق فيما بين اخوانه واخواته . ولكن حالا بعد ان يكون الموضوع قد درس لهذا المدى يصبح شيئاً عادياً لا يدعو للاهتمام مثل الخزانة التي غالباً ما تكون مفتوحة. وبالطبع ان اي اسئلة يوجهها الطفل خلال هذه الفترة يجب ان تجاوب بالشكل الذي تجاوب اسئلة عن مواضيع أخرى.

تشكل الاجابة على الاسئلة الجزء الاكبر من التربية الجنسية ، فهنالك قاعدتان: اولا تقصي دائماً الجواب الصادق للسؤال، ثانياً اعتبار المعلومات الجنسية بانها تشبه تماماً اي معرفة اخرى . اذا سألك الولد سؤالا عميقاً عن الشمس او القمر او الغيوم او عن السيارات او المحركات البخارية فانك تسر وتبتهج وانك تحكي له بقدر ما يستطيع استيعابه. ان الاجوبة على الاسئلة هذه تشكل جزءاً كبيراً جداً من التربية المبكرة . ولكنه اذا سألك سؤالاً حول الجنس فانك تتشوق بأن تقول له « صه صه » واذا تعلمت بأن لا تفعل ذلك فانك مع هذا لا تجيب الا باختصار وبجفاف ولربما بقليل من الاحراج في طبعك . ويلاحظ الولد فوراً القلق وبذلك تكون قد وضعت الحجر الاساسي للشوق الجازع . عليك ان تجيب بنفس الاتساع والرحابة وعلى الطبيعة كأن السؤال قد كان حول شيء آخر. يجب ان لا تسمح لنفسك بأن تشعر حتى ولو في بعض الاحيان ، ان هنالك شيئاً مخيفاً وقذراً يتعلق بالجنس Sex فاذا فعلت ذلك فان شعورك سيشغل به . عليك ان تفكر بالضرورة بان هنالك شيئاً كريهاً سيراه في علاقات والديه وفيما بعد سيستنتج بأنهم يفكرون سواء عن التصرف الذي أفضى الى تكوينه . ان

هذا الشعور في الفتوة يجعل الانفعالات الفطرية السعيدة مستحيلة ليس فقط اثناء الشباب ولكن في حياة الكهولة ايضاً .

اذا كان للولد أخ او أخت ولد عندما كان كبيراً لدرجة أن باستطاعته أن يسأل أسئلة عن الطفل ، ولنفرض أن الولد كان في سنه الثالثة ، فقل له بان الطفل قد نما داخل جسم والدته وقل له انه قد نما بنفس الطريقة ، دعه يرى أمه ترضع الطفل وان يقال له نفس الشيء قد حدث معه . كل هذا مثل كل شيء خلافه متصل بالجنس يجب ان يقال له بدون خطورة بروح علمية بحتة . يجب ان لا يقال للولد عن « اعمال الامومة الغامض المقدس » وان يكون كل شيء كأمر حقيقي .

اذا لم يحدث للعائلة اي زيادة عندما يصبح الولد كبيراً لدرجة كافية بحيث يكون بوسعه ان يسأل أسئلة عنهافان الموضوع من المحتمل ان ينشأ بالقول له « هذا حدث قبل ان تولد » . انني أجد ابني لا يزال عاجزاً عن ادراك انه كان هنالك وقت عندما لم يكن هو موجوداً ، فاذا حكيت له عن بناء الاهرام او عن اي موضوع مشابه فانه يريد دائماً ان يعلم ماذا كان يفعل عندئذ وهو دائماً يبدو انه في حيرة عندما يقال له انه لم يكن وقتها موجوداً . انه يريد ان يعلم عاجلاً ام آجلاً ماذا تعني عبارة « كونه موجوداً » ومن ثم نروي له .

ان حصة الاب في الجيل اقل احتمالاً بأن ترد بصورة طبيعية في الاجوبة على الاسئلة ما لم يكن الولد يعيش في مزرعة . ولكنه من المهم جداً ان يعلم الولد عن هذا اولاً من والديه او من معلمه وليس من الاولاد الذين جعلهم سوء التعليم رديئين. انني اتذكر بوضوح انني علمت كل شيء عن هذا من قبل غلام آخر عندما كنت في سن الثانية عشرة . كل هذا قد عولج في روح دفينة كموضوع لمزاح بذيء . تلك كانت الخبرة العادية للأولاد في جيلنا . ومن الطبيعي ان يتبع ذلك بأن الاكثرية الساحقة استمرت طول حياتها ترى بأن الجنس موضوع رديء وسيىء

بنتيجة انهم لم يستطيعوا ان يضعوا أساساً قوياً للمخالطة .

لقد اتبع الوالدان خطة غير جريئة في الاتكال على الحظر مع انه كان على الآباء أن يتذكروا كيف اكتسبوا معلوماتهم الاولى . كيف يمكن ان يفترض أن مثل هذا النظام ساعد في الحكمة او الاخلاق المتينة ، انني لا أستطيع أن أتصور ذلك . يجب ان يعالج الجنس من البداية كشيء طبيعي ومبهج ومحتشم . واذا أردنا ان نفعل خلاف ذلك فاننا نكون سممنا العلاقات فيما بين الرجل والمرأة ، وبين الآباء والاولاد ، ويكون الجنس في ذروة مجده فيما بين أب وأم يحبان بعضهما ويحبان اولادهما ، ومن الافضل جداً ان يعلم الاولاد اولاً الجنس في علاقات والديهم بدلاً من ان يستقوا انفعالاتهم الاولى من الاشياء القبيحة ، فمن الخطأ بصورة خاصة ان يكتشفوا الجنس فيما بين والديهم كشر أثيم بقي مخفياً عنهم في سر الكتمان ، واذا لم يكن هنالك احتمال ان يتلقن الاولاد عن الجنس من قبل اولاد آخرين فان الامر يمكن تركه للعملية الطبيعية التي تنتج عن حب الاستطلاع عند الاولاد ويمكن للوالدين ان يحصروا أنفسهم في اجابة الأسئلة دائماً شريطة ان كل شيء قد اصبح معروفاً قبل سن الادراك . ان هذا بالطبع ضروري تماماً . وانه لشيء قاس ان ندع غلاماً او فتاة يتباغت بالتغييرات الجسمانية والعاطفية التي تنتابهما في ذلك الوقت دون تحضير ، ولربما كان هذا باعثاً لأن يهاجم ببعض الامراض المخيفة . كما وان كامل موضوع الجنس بعد سن البلوغ يعتبر كهربائياً لدرجة أن الفتى او الفتاة لا يمكنهم الاصغاء بروح علمية مما يكون ممكناً تماماً في سن البكور . ولهذا فانه بشكل منفصل عن امكانية الحديث الرديء ، على الفتى او الفتاة ان يعلما طبيعة العمل الجنسي قبل بلوغهم سن الرشد .

الى اي مدى قبل هذا يجب اعطاء هذه المعلومات ؟ ان ذلك يتوقف على الظروف ، فالولد الفضولي والنشيط ذهنياً يجب أن يحكى له بوقت أبكر مما لو كان بليداً ، وعلينا أن نغمره في الاجابة عن حب استطلاعه . ومهما كان الولد

حدثاً علينا أن نقول له اذا سأل . ويجب ان يكون سلوك الوالدين أنه سيسأل اذا اراد ان يعرف . ولكنه اذا لم يسأل من تلقاء نفسه فانه يتحتم ان يحكى له قبل ان يبلغ سن العاشرة خشية ان يروى له قبل اي شيء من قبل اشخاص آخرين بطريقة سيئة ، ولهذا يكون من المرغوب فيه ان يثار عنده حب الاستطلاع بإعطاء التعليمات حول التناسل بالنباتات والحيوانات . يجب ان لا يكون هنالك مناسبة خطيرة بل توضيحاً للصوت وحسن ديباجة : « الآن يا ولدي أريد أن أحكي لك شيئاً اصبح الوقت مناسباً لان تعرفه » وكل شيء يتحتم ان يكون عادياً وفي كل يوم . ولهذا فان الموضوع يأتي بشكل افضل جواباً على اسئلة .

أظن انه ليس من الضروري في هذا السن ان نجادل على ان الفتيان والفتيات يجب ان يعاملوا بشكل متماثل . عندما كنت حدثاً كان لا يزال من الشائع جداً لفتاة نامية نمواً حسناً أن تتزوج قبل ان تعرف اي شيء عن طبيعة الزواج وان تتعلم ذلك من زوجها، ولكنني لم اسمع كثيراً عن مثل هذا في السنوات الاخيرة. وأرى ان معظم الناس يعلمون الآن بأن الفضيلة التي تستند الى الجهل لا قيمة لها وان الفتيات لهنَّ نفس الحق في المعرفة كالفتيان. فاذا كان هنالك اي شخص لا يزال يقصر في معرفة هذا فان ذلك الشخص لا يليق به قراءة هذا الكتاب وبذلك لا نتحمل مشقة الجدال معه . انني لا اريد ان اقترح بحث تعليم الاخلاق الجنسي في معناه الضيق . وهذه مسألة اختلفت حولها الآراء ، فالمسيحيون يختلفون عن المسلمين ، والكاثوليكيون عن البروتستانت الذين يبيحون الطلاق وذوو التفكير الحر عن الرجعيين . فالآباء يرغبون أن يتعلم اولادهم (بالصفة الشخصية) عن الاخلاق الجنسية بالشكل الذي يظنون به أنفسهم وانني لا أرغب في ان تتدخل الدولة معهم. ولكن بدون الدخول في اسئلة رديئة فهنالك الكثير مما يمكن ان يكون اساساً مشتركاً .

قبل اي شيء هناك علم الصحة ، وينبغي على الشباب ان يلموا بالأمراض الجنسية قبل ركوب المخاطر ، كما ان هذا الايمان يجب ان يكون حقيقياً بعيداً

عن المبالغة التي يلجأ اليها بعض الناس في مضمار الاخلاق . ويجدر بهم ايضاً ان يعرفوا كيفية الشفاء من هذه الامراض بالاضافة الى محاولة تجنبهـا ، اذ انه من الخطأ إلقاء هذه التعليمات من قبل اناس فاضلين كلما دعت الضرورة ، في حين تعتبر المآسي التي تحل بالآخرين جزاء وفاقـاً لمعصية او زلل . واذا ما اردنا القياس على هذا الزعم فقد نمتنع عن اداء العون لانسان اصيب في حادثة صدام سيارة متعللين بأن الرعونة في قيادة السيارة خطأ فادح زد على ذلك ان العقاب في هذه الحال قد يكون من نصيب الابرياء اذ لا يمكن اعتبار الاطفال الذين يولدون مرضى بالزهري أطفالاً آثمين بنفس الطريقة التي لا يجوز النظر بموجبها الى رجل دهمته بسيارة عابرة باعتباره آثماً .

وعلى الشباب ان يعلموا ان انجاب طفل أمر ذو اهمية بالغة، فلا ينبغي القيام به اذا لم تكفل للطفل مقدماً الصحة الجيدة والسعادة التامة . وقد كان الرأي التقليدي انه من المبرر انجاب اطفال اثناء فترة الزواج حتى ولو جاء الفاصل الزمني قصيراً بين طفل وآخر بحيث ينهك هـذا صحة الام ، وحتى لو كان الاطفال مرضى او معتوهين ، وحتى لو لم يتوفر لهم الغذاء الكافي. وفي ايامنا هذه اضحى المكابرون وحدهم هم الذين يتبنون هذا الرأي متعللين بأن كل ما يصيب الانسانية لا بد ان يزيد في مجد الله ، اما اولئك الذين يهتمون بأطفالهم ولا يجدون متعة رخيصة في تسبب شقاء الضعفاء فانهم يتمردون على هـذا التعنت المتهور الذي يبرر هذه القسوة . ولهذا يجب ان تشكل العناية بحقوق الاطفال والحرص على اهميتهم جزءاً اساسياً من الثقافة الخلقية .

ويجدر لفت انظار الفتيات الى احتمال كونهن امهات في المستقبل ، وبالتالي ينبغي عليهن الالمام ببعض اسس المعرفة التي قد تفيدهن في هذا المجال . ومن البديهي أن على الفتيان والفتيات ان يتعلموا شيئاً عن حفظ الصحة وعن وظائف اعضاء الجسم ، ولكن يجدر التأكيد على انه ما من فتاة يمكن ان تكون اماً صالحة بدون الحنو الامومي ، ومن جهة اخرى وبالاضافة الى هـذا الحنو فلسنا

في غنى عن المعرفة السليمة الوافية . فالغريزة دون المعرفة لا تصلح في تربية الاطفال بقدر ما لا تصلح المعرفة دون الغريزة . فكلما ازداد فهم الحاجة الى المعرفة ازدادت النساء الذكيات تعلقاً بالامومة . وفي ايامنا هذه لا تعدم بينهن من ذوات الثقافة والعلم من تحتقر هذه الحقيقة متعللات بأن هذه المعرفة لا تمنحهن المجال الكافي لممارسة مواهبهن العقلية . وهذه مأساة كبرى لان في مقدورهن ان يصبحن افضل الامهات ان وجهت افكارهن هذه الوجهة .

وهناك شيء اساسي في تعليم حب الجنس . فلا ينبغي اعتبار الغيرة إلحاحاً مبرراً على الحقوق ، بل هي مأساة لمن يشعر بها، وهي خطأ بحق من يستهدفه. فعندما تتطفل دواعي الامتلاك على الحب تراه يفقد قوته الحيوية ويلتزم الشخصية . اما اذا جرد الحب من هذه الدوافع فهو ينمي الشخصية ويعظم الاحساس بالحياة. وقد كان الآباء يهدمون علاقاتهم بأطفالهم حين كانوا يلقنونهم الحب كفريضة يجب تأديتها ، ولا زال بعض الازواج والزوجات يهدمون زواجهم بنفس الخطأ . فالشعور بالحب نحو الآخرين يتعصى ان يكون واجباً معروضاً لانه غير خاضع للارادة .

فالحب منحة من السماء وهو أفضل ما يمكن ان تجود به .

اما اولئك الدين يعلقون على الحب أحكاماً ، فهم يهدمون الجمال والفرح الذي لا يمكن للحب ان يمنحها ما لم يكن حراً وعفوياً . وهنا مرة اخرى يبرز الخوف كعدو وحيد ، فمن يخشى فقدان اسباب سعادة حياته كمن فقدها فعلاً .

وفي هذا المجال كما في مجالات اخرى تكون الجرأة جوهر الحكمة .



- ١٣ -

مدرسة الحضانة

تناولت في الفصول السابقة مختصراً لما يمكن عمله في سبيل خلق العادات التي تجعل الطفل الصغير سعيداً نافعاً في حياته المقبلة ، ولكني لم أناقش مسألة هل على الوالدين ان يقوموا بهذه التربية او هي من عمل مدارس مهيأة لهذا الغرض . ورأيي ان الحجج المؤيدة لمدرسة الحضـــانة حجج غالبة جارفة ، لا فيما يتعلق بأطفال الفقراء او الجهـلة او المجهدين بالعمل فحسب ، ولكن فيما يتعلق بجميع الاطفال او على الاقل جميع الاطفال الذين يعيشون في المدن . اعتقد ان الاطفال الذين في مدرسة حضانة الآنسة مرغريت مكملان في رتفورد يحصلون على تربية تفضل كل ما يستطيع ابناء الميسورين ان يحصلوا عليه في الوقت الحاضر . وبودي ان أرى هذا النظام يعمم حتى يشمل جميع الاطفال ، الاغنياء منهم والفقراء على السواء . لكن دعنا قبل بحث اي مدرسة حضانة بالذات نستعرض الاسباب التي تجعلنا نرغب في مدرسة الحضانة من حيث هي :

واول ما نذكر من ذلك ان بواكير الطفولة لها اهمية لا تقدر من النــاحيتين

الطبية والنفسية ، وهاتان النـــاحيتان مترابطتان متشابكتان ، فالخوف مثلا يسبب للطفل سوء التنفس ، وسوء التنفس يعرضه لطائفة من الامراض[1] . ومثل هذه العلاقات المتشابكة هي من الكثرة بحيث لا يمكن لأحد ان يطمع في النجاح في تربية الطفل خلقياً اذا لم يكن على بعض معرفة بالطب ، او ان ينجح في العناية بصحته اذا لم يكن على بعض معرفة بعـــلم النفس ، ومعظم المعرفة اللازمة في الناحيتين كلتيهما حديثة جداً ، وكثير منها يتعارض مع التقاليد التي درج الناس على احترامها جيلاً بعد جيل . خذ مثلاً مسألة التأديب . ان القاعدة العظمى في النضال مع الطفل هي : لا تخضع لكن لا تعاقب ، فالوالد الطبيعي العادي يخضع احياناً في سبيل الحياة الهادئة ، ويعـــاقب احياناً حين ينفد صبره ، والطريقة الصائبة تتطلب لنجاحها خليطاً صعباً من الصبر والمقدرة على الايحاء ، هذا مثل نفساني ، والهواء النقي مثل طبي ، فاذا توفرت العناية والحكمة استفاد الاطفال من التعرض الدائم للهواء الطلق ليلاً نهاراً بغير اثقـــال في الملبس ، لكن اذا لم تتوفر العناية والحكمة فلا يمكن اغفال خطر اصابة الاطفـال بالبرد من البلل او من التغيرات الجوية المفاجئة .

وليس من المنتظر ان تتوفر للوالدين المهارة والفراغ اللازمـان للفن الجديد الصعب ، فن معاملة الاطفال الصغار كما ينبغي ، وهذا واضح فيما يتعلق بالوالدين غير المتعلمين فهم يجهلون الطرق المثلى ، ولو تعلموها لظلوا غير مقتنعين بها . اني أسكن في منطقة زراعية قرب البحر يسهل فيها الحصول على الطعام الطازج ولا يشتد فيها البرد ولا الحر ، واكثر ما اخترتها من اجله انهـا خير ما يلائم صحة الاطفال ، ومع ذلك فان معظم اطفال الزراع فيها واصحـاب الحوانيت ومن على شاكلتهم كلهم تقريباً وجوههم شاحبة معتلون ، لأنهم موسّع عليهم في الأكل مضيق عليهم في اللعب ، لا يذهبون الى الشاطىء ابداً لأن ابتلال الاقدام عندهم

---

(١) راجع في هذا الشأن (مدرسة الحضانة) لمرغريت مكملان (طبعة دنت سنة ١٩١٩) صفحة ١٩٧ وكذلك : (مدرسة المعسكر) لنفس المؤلفة (جورج آلن وأنوين ليمتد) .

خطر ، ويلبسون خارج البيوت معاطف صوفية سميكة حتى في اشد ايام الصيف حراً ، واذا علت اصواتهم في اللعب حملوا على الغض منهـــا ليكونوا مهذبين ، لكنهم يسمح لهم بالسهر ويعطون من مختلف ألوان الطعــام كل ما يعسر هضمه الا على الكبــار . ويعجب آباؤهم من اولادي كيف لم يموتوا من زمن بعيد من البرد والتعرض لتقلبات الجو ، لكن لا هذا الدرس العلمي ولا غيره يقنعهم بأن أساليبهم ممكن تحسينها . وهم لا تعوزهم المحبة الوالدية، لكنهم جهلاء متمسكون بجهلهم لسوء تربيتهم . اما اطفال فقراء المدن المجهدين فحـــالهم بالطبع أدهى وأمر .

لكن حتى اطفال الوالدين المتعلمين تعليماً راقياً الذين لهم ضمائر حية والذين ليسوا اشغل من اللازم ، حتى اطفال هؤلاء لا يمكن ان يحصلوا في البيت على ما يحتاجون اليه في سبيل التربية على مثل ما يحصلون عليه في مدرسة الحضــانة ، واول ذلك وأهمه انهم لا يحصلون على صحبة اترابهم من الاطفــال . واذا كانت الأسرة صغيرة كالعادة في امثال هذه الأسر فمن السهل ان يلقى الاطفــال من عناية الكبار اكثر مما ينبغي ، وربما صاروا عصبيين سابقين لأوانهم في النضج ، وعلاوة على هذا فانه ليس في مقدور الوالدين ان يحصلوا على تجارب في معاملة اعداد كبيرة من الاطفال مما يجعل اتصالهم بكل واحد من هؤلاء الاطفال نافعاً أكيداً . ثم ان الاغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون توفير الباحة والبيئة الأنسب للاطفال الصغار ، ومثل هذه الاشياء اذا وفرتها أسرة لأطفالهــا خاصة خلقت فيهم زهواً بالتملك واحساساً بالعلو يضران من الناحية الخلقية ضرراً بليغــاً . لهذه الاسباب كلها اعتقد ان الوالدين ولو كانوا من الخيرة يحسنون صنعاً اذا بعثوا اطفالهم من سن الثانية وما بعدها الى مدرسة ملائمة ولو جزءاً من النهار بشرط ان توجد مثل تلك المدرسة في جوارهم .

ان لدينا في الوقت الحاضر نوعين من المدارس تبعاً لمركز الوالدين . هنــاك مدارس فروبلية ومدارس منتسورية للاطفال الموسرين ، وهناك عدد صغير من

مدارس الحضانة للاطفال المدقعين اشهرها مدرسة الآنسة مكملان التي يصفها الكتاب الذي سبق ذكره وصفاً يتحتم على كل محب للاطفال ان يقرأه . واكبر ظني انه ليس في الموجود من مدارس اطفال الموسرين مدرسة تضارع مدرستها ، لأن لديها من جهة اعداداً اكبر ، ولأنها من جهة اخرى غير مبتلاة بكبرياء اهل الطبقة الوسطى وتأففاتهم التي يضايقون بها المعلمين . وترمي الآنسة مكملان الى الاحتفاظ بالاطفال من الواحدة الى السابعة اذا أمكن وان مال الثقات في التربية الى الرأي القائل بالتحاق الاطفال بمدرسة أولية عادية في سن الخامسة . ويأتي الاطفال الى مدرستها في الثامنة صباحاً ويمكثون حتى السادسة مساء ، ويتناولون جميع طعامهم بالمدرسة ، ويصرفون اكثر ما يمكن من اوقاتهم في العراء ، ولديهم في الداخل مقدار غير عادي من الهواء النقي . وقبل ان يقبل الطفل بالمدرسة يفحص طبياً ، ذكراً كان او انثى ، ويعالج حتى يشفى في القسم الطبي او في المستشفى ، وبعد القبول يصير الاطفال أصحاء ويظلون كذلك الا في احوال نادرة . وفي المدرسة حديقة ظريفة فسيحة يقضي الاطفال كثيراً من وقتهم يلعبون فيها ، ويسير التعليم فيها اجمالاً على النظام المنتسوري ، وينام الاطفال كلهم بعد الغداء . وعلى الرغم من انهم يقضون الليل ويوم الاحد في بيوت قد عضتها الفاقة وربما في سراديب مع آباء سكارى ، فان هؤلاء الاطفال يصبرون في بنيتهم وذكائهم مضارعين لخيرة اطفال الطبقة الوسطى . واليك وصف الآنسة مكملان لتلاميذها الذين في سن السابعة :

> كلهم تقريباً اطفال طوال معتدلو القوام ، كلهم في الواقع معتدلو القوام ان لم يكونوا طوالاً ، لكن متوسطهم طفل كبير نامٍ نظيف الجلد براق العينين ناعم الشعر ، فهو (او هي) يزيد قليلاً عن متوسط خير طراز اطفال ذوي اليسار من الطبقة المتوسطة العالية . هذا عن البنية . اما من حيث العقلية فهو يقظ ، يألف ويؤلف ، متشوق الى الحياة والى اكتساب الجديد

من الخبرة . في وسعه ان يقرأ ويتهجى باتقان (او قريباً من الاتقان) ، يجيد الكتابة ويعبر عما في نفسه بسهولة ، يتكلم انجليزية جيدة والفرنسية ايضاً ، ولا تقتصر مقدرته على مساعدته نفسه ، فقد اعتاد من سنوات مساعدة الاطفال الأصغر منه ، ثم هو يستطيع العد والقياس وشيئاً من التفنن وقد أعد بعض الاعداد لتلقي العلم ، قضى سنواته الاولى في جو من المحبة والهدوء والفكاهة وامتلأت سنتاه الاخيرتان بالخبرات الممتعة وبالتجارب . له دراية بالجنينة فقد زرع فيها وسقى ، وعني بالنباتات كما عني بالحيوانات . والذي بلغ السابعة منهم يستطيع ايضاً ان يرقص ويغني ويلعب ألعاباً عديدة . هؤلاء هم الاطفال الذين سيتقدمون قريباً بالآلاف الى ابواب المدرسة المتوسطة فماذا يفعل بهم ؟ أريد ان أنبه قبل كل شيء الى ان معلمي المدارس الأولية سيتغير عملهم بهذا الفيض المفاجىء من الحياة الصغيرة النظيفة القوية المتفجرة من أسفل . فمدرسة الحضانة اما ان يسفر المستقبل عن انها امر تافه او بعبارة اخرى فشل جديد ، واما ان تحدث في القريب العاجل أثراً ملحوظاً لا في المدارس الأولية وحدها ولكن في المدارس الثانوية ايضاً . انها ستمدهما بنوع جديد من الاطفال لتربياه ، وسيكون لذلك حتماً في العاجل او الآجل رد فعل لا في جميع المدارس فقط ولكن في حياتنا الاجتماعية بأسرها ، وفي نوع الحكومة والقوانين التي تصاغ للشعب ، وفي علاقة أمتنا بغيرها من الأمم

ولا ارى هذه الدعاوى مبالغاً فيها ، فمدرسة الحضانة اذا عممت تستطيع في جيل واحد أن تزيل الفروق العميقة في التربية التي تقسم الطبقات في الوقت الحاضر ، وتستطيع أن تنتج مواطنين متمتعين كلهم بالنمو العقلي والبدني

المقصور الآن على اكثر الناس حظاً ويساراً ، كما تستطيع أن تزيل كابوس المرض والغباوة والحقد الذي يجعل التقدم الآن على صعوبته الحاضرة . وطبقاً لقانون التعليم الصادر سنة ١٩١٨ كانت مدارس الحضانة لتنشأ على حساب الحكومة ، لكن لما هوى معول الجذر الاقتصادي تقرر أن الأهم هو بناء البوارج السريعة وحوض سنغافورة لتسهيل الحرب مع اليابان . والحكومة تنفق الآن ٦٥٠٠٠٠ جنيهاً في العام على اغراض مثل حمل الناس على تسميم أنفسهم بالكيمياويات التي تحفظ لحم خنزير بلاد الدومنيون وزبدها بدلا من أن يأكلوا الزبد النقي من الدنمرك ، ومن أجل هذا يحكم على أطفالنا بالمرض والشقاء وركود الذهن .. بلايا كانت تنجو منها جماهير الأطفال لو أن نفس المبلغ صرف سنوياً على مدارس الحضانة . وللأمهات الآن حق التصويت ، فهل سيتعلمن يوماً ان يستخدمنه فيما يعود على أطفالهن بالخير ؟

وبغض النظر عن هذه الاعتبارات الاوسع فان ما يجب ادراكه هو أن العناية الحقة بالأطفال الصغار عمل يحتاج الى مهارة عالية لا رجاء للوالدين في القيام بها على الوجه المرضي ، وأنه عمل مخالف تماماً للتعليم بالمدارس في السنوات المقبلة . ولنقتبس مرة أخرى من الآنسة مكملان :

> طفل الحضانة يتمتع ببنية متوسطة الجودة ، وليس جيرانه في أماكن الفقر المدقع هم وحدهم الذين يقصرون عنه كثيراً اذ يقصر عنه كذلك من (هم خير منه) في الأحياء الجيدة ، أي أطفال الطبقة الوسطى من الطراز الجيد جداً . ومن الواضح أننا نحتاج الى شيء اكثر من الحب الوالدي و (المسؤولية الوالدية) . فقواعد المسطرة قد انهارت كلها كما انهار كذلك (الحب الوالدي) الخالي من المعرفة . أما تنشئة الطفل فلم يتطرق اليها الانهيار . انها عمل يتطلب مهارة وبراعة عالية .

وتقول عن الناحية المالية :

يمكن اليوم ادارة مدرسة حضانة تحوي مئة طفل بمبلغ ١٢ جنيهاً سنوياً عن كل طفل ، يستطيع الآباء في أفقر الأحياء أن يدفعوا منه ثلثه . ومدرسة حضانة يقوم الطلاب بالتدريس فيها تتكلف اكثر من ذلك ، لكن معظم الزيادة في التكاليف ، التي تدفع لهؤلاء الطلاب كنفقة تعليم واقامة ، انما تدفع لمعلمي المستقبل . وتبلغ تكاليف مركز للحضانة والتدريب في الهواء الطلق نحو ٢٢٠٠ جنيه سنوياً اذا كان كل من فيه ١٠٠ طفل و ٣٠ طالباً .

واليك فقرة أخيرة :

سيكون من النتائج العظيمة لمدرسة الحضانة أن يسير الأطفال أسرع في تلقي مناهج العصر الحاضر ، وعندما يتمون نصف حياة المدرسة الأولية الحالية او ثلثيها سيكونون على استعداد للانتقال الى دراسات أرقى . وبالجملة فمدرسة الحضانة ، اذا كانت حقاً مكان تنشئة وتربية لا مجرد مكان (لرعاية) الاطفال حتى يبلغوا الخامسة ، ستؤثر في نظام التعليم كله تأثيراً قوياً وسريعاً جـــداً ، وسترتفع بسرعة بالمستوى الممكن للثقافة والتحصيل في جميع المدارس ابتداء من المدارس المتوسطة ، وستثبت ان في الامكان محو ما نعيش فيه من حمأة المرض والبؤس التي تجعل خدمات الطبيب تبدو اعظم من خدمات المعلم ، وستجعل المدارس ذات الجدران السميكة والبوابات الرهيبة والملاعب الصلبة والفصول الضخمة التي لا تدخلها الشمس تبدو قبيحة فظيعة كما هي في الواقع . انها ستعطي المعلمين فرصة .

وتحتل مدرسة الحضانة مكانا متوسطاً بين تربية الخلق المبكرة وما يتلوهـا من تعليم، فهي تواصل كليهما في وقت واحد مستعينة بكل واحد على الكل بحيث يزداد نصيب التلقين بالتدريج كلما تقدم الطفل في العمر . وقد استطاعت مدام منتسوري في منشئات تشبه مدارس الحضانه في وظيفتها ان تصل بطرقها الى الكمال . ففي بيوت كبيرة للسكنى بروما افردت غرفة كبيرة للأطفال الذين بين الثالثة والسابعة ، وعهد الى مدام منتسوري في الاشراف على بيوت الاطفال[1] هذه . وكان الاطفال كما في دتفورد اطفال افقر الناس ، وقد دلت النتائج ، كما دلت في دتفورد ، على ان العناية المبكرة تستطيع ان تتغلب على المساوىء البدنية والعقلية للبيت السيء .

ومما هو جدير بالذكر انه منذ ايام سغوين للآن قد جاء التقدم في اساليب تربية الاطفال الصغار من دراسة المعتوهين وضعاف العقول الذين لا يزالون من بعض النواحي اطفالاً صغاراً في عقليتهم . واني اعتقد ان السبب الذي دعا الى هذا اللف هو ان غباوة مرضى العقول لم تكن تعد مما تلام عليه او مما يمكن علاجه بالضرب . انه لم يخطر على بال احد ان وصفة الضرب التي وصفها الدكتور ارنولد تشفيهم من (الكسل) . وكانت نتيجة ذلك ان عولجوا علمياً لا غضبياً ، فاذا قصروا عن الفهم لم يثر عليهم اي معلم مغيظ ولم يقل لهم ان عليهم ان يخجلوا من انفسهم . ولو ان الناس راضوا انفسهم على ان ينظروا الى الاطفال نظرة علمية بدلاً من النظرة الوعظية لاستطاعوا ان يكشفوا عما قد عرف الآن من طريقة تربية الاطفال دون ان يضطروا اولاً لدراسة ضعاف العقول . ففكرة (المسؤلية الادبية) هي (المسؤلة) عن كثير من الشر . تصور طفلين كان من حسن حظ احدهما ان يكون في مدرسة الحضانة بينما ظل الآخر متروكاً لحياة الجهل في احياء الفقر المدقع، هل يكون الطفل الثاني (مسؤولاً ادبياً) اذا شب دون الاول

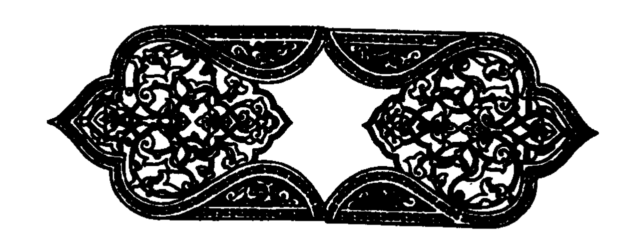
---

(١) راجع (طريقة منتسوري) لمنتسوري (هاينمان سنة ١٩١٢) ص ٤٢ وما يليها ،

في خلقه ؟ وهل يكون والداه (مسؤولين ادبياً) عن الجهل والاهمال الذي اعجزهما عن تربيته؟ وهل يكون الاغنياء (مسؤولين ادبياً) عن الانانية والغباوة اللتين مرنوا وربوا عليهما في المدارس العامة واللتين تحملانهم على تفضيل ترفهم الاخرق على خلق مجتمع سعيد ؟ كل هؤلاء ضحايا الظروف ، وكلهم عوجت اخلاقهم في عهد الرضاع او وقف نمو فهمهم في المدرسة ، ولا يصلح من الامر شيئاً ان يعتبروا (مسؤولين ادبياً) وينحى عليهم باللائمة والتقريع لانهم كانوا اسوأ حظاً مما كان يمكن ان يكونوا .

ليس هناك الا طريق واحد للتقدم في التربية والتعليم وفي الشؤون الانسانية الاخرى الا وهو العلم يسخره الحب . فالحب عاجز بغير العلم ، والعلم هادم مدمر بغير الحب . ان كل ما عمل لتحسين اساليب تربية الاطفال الصغار عمله اولئك الذين يحبونهم ، عمله اولئك الذين عرفوا كل ما يستطيع ان يعلمه الناس في هذا الموضوع . وهذه مزية من المزايا التي نجنيها من التعليم العالي للنساء . ففي الايام الخالية حين لم يكن تعليم كهذا كان احتمال الجمع بين العلم وحب الأطفال اقل كثيراً منه الآن . ان القدرة على صياغة العقول الصغيرة – تلك القدرة التي يضعها العلم في ايدينا – قدرة هائلة قابلة لسوء استعمال مهلك ، واذا وقعت في ايد غير صالحة فقد تنتج دنيا تفوق في قسوتها وقلة مبالاتها دنيا الطبيعة الجزاف . فقد يعلم الاطفال التعصب وحب الحرب والوحشية تحت ستار تعليم الديانة والوطنية والشجاعة ، او الشيوعية والسلطة الشعبية والحماسة الثورية . ان التعليم يجب ان يوحي به الحب ويجب ان يرمي الى ايقاظ الحب في الاطفال والا صار اداة ضارة ، تزداد مقدرتها على الاضرار كلما تحسنت الاساليب العلمية وتقدمت . ومحبة الاطفال موجودة في المجتمع كقوة فعالة يدل عليها تقليل نسبة وفيات الاطفال وتحسين التربية . ولا تزال هذه القوة اضعف مما ينبغي والا لما جرؤ سياسيونا على تضحية حياة عدد لا حصر له من الاطفال وتضحية سعادتهم في سبيل خططهم الخبيثة لاراقة الدماء واقامة الظلم ، لكنها على هذا قوة

موجودة تزداد . على ان صور الحب الاخرى تنقصنا نقصاً عجيباً ، فالاشخاص الذين يسبغون على الاطفال عنايتهم هم انفسهم يحملون في قلوبهم شهوات ونزوات تعرض اولئك الاطفال انفسهم في مستقبل حياتهم للموت في حروب هي مجرد اعمال جنونية للجماعات. فهل كثير علينا ان نرجو ان تمتد بالتدريج دائرة الحب من الطفل الى الرجل الذي سيشب اليه الطفل ؟ وهلا يتعلم محبو الاطفال ان يتابعوهم في مستقبل سنواتهم بشيء من نفس الحب الابوي والاشفاق ؟ اما آن لنا وقد وهبناهم اجساماقوية وعقولا فتية ان ندعهم يستخدمون قوتهم وعقولهم وفتوتهم في خلق عالم افضل ؟ ام سنجفل فزعاً حين يتجهون الى هذا ونغرقهم مرة اخرى في العبودية والعسكرية ؟ ان العلم متأهب لتحقيق اي البديلين نختار والخيار هو بين الحب والبغض ، وان كان البغض هو المستخفي وراء العبارات المعسولة التي يشيد بها من يحترفون الدعوة الى الخير والاخلاق .



التَّربيَة الفِكريَّة



- ١٤ -

مَبادِئ عَامَّة

ان تكوين الخلق ، الذي كان موضع اهتمامنا الى الآن ، ينبغي ان يعالج في صميمه في السنوات المبكرة وينبغي اذا أحسن القيام عليه ان يكون قد أشرف على التمام في سن السادسة . ولا أعني بذلك ان الخلق لا يمكن ان يفسد بعد هذه السن فليس هناك سن تعجز فيها الظروف أو البيئة الفاسدة عن احداث الاضرار الخلقية ، إنما أعني إنه بعد سن السادسة يكون الولد او البنت الذي أحسنت تربيته المبكرة قد كون لنفسه من العادات والميول ما يكفل لنا قيادته في الاتجاه الصحيح اذا أعيرت البيئة التي يعيش فيها شيئاً من العناية. فالمدرسة التي تتألف من اولاد وبنات نشأوا كما ينبغي في سنواتهم الست الاولى تعتبر بيئة صالحة اذا توفر عند القائمين عليها قدر مناسب من حسن التصرف . وينبغي ألا تكون هناك حاجة لتخصيص وقت طويل او قدر كبير من التفكير في المسائل الخلقية ، فان الفضائل الاخرى التي يحتاج اليها النشء ينبغي ان تأتي كنتيجة طبيعية للتربية الفكرية المحضة . ولا اقصد ان اجعل من هذا قاعدة دقيقة، وإنما اورده كقاعدة

تسترشد بها السلطات المدرسية عند تقرير المسائل الجديرة بالعناية والتوكيد الخاص . ويقيني انه اذا احسنت رعاية الاطفال الى سن السادسة كان خير ما يفعله القائمون على المدارس التي يؤمونها ان يركزوا جهودهم في التقدم الفكري المحض ويعتمدوا عليه في الوصول الى كل ما يستحب من تقدم خلقي جديد.

ولو ان تحسين الخلق لا ينبغي أن يكون هدفاً من اهداف التعليم فهناك صفات معينة مستحبة للغاية ولا غنى عنها للنجاح في طلب العلم ، يصح ان تسمى الفضائل الفكرية ، ومن الواجب ان تنتج عن تربية الفكر – تنتج عند الحاجة اليها في التعلم لا كفضائل نسعى وراءها لذاتها . ورأس تلك الصفات كما يبدو لي : حب الاطلاع وانفتاح العقل ، واعتقاد امكان المعرفة وإن صعبت ، والصبر والجد وحصر الذهن والدقة . وحب الاطلاع أساسي من بين هذه الصفات ، فحيثما يكون قوياً وموجهاً الى الأشياء الجديرة به فانه يستتبع بقية الصفات ، لكن لعل التشوف وحب الاطلاع ليس فعالا الى الدرجة التي تجعل منه اساساً للحياة العقلية أجمعها ، فلا مفر من ان تكون هناك ايضاً رغبة دائمة في القيام بعمل صعب . ان المعرفة التي يحصلها التلميذ يجب ان تبدو له بمثابة مهارة اكتسبها ، شأنها في ذلك شأن المهارة في الألعاب الرياضية البدنية . ولعله لا مفر من ان تكون المهارة المكتسبة مقصورة الى حد على النوع الذي تتطلبه الواجبات المدرسية المصطنعة ، لكن كلما امكن اظهارها بمظهر الضروري لتحقيق غرض ما غير مدرسي يشوق التلميذ نكون قد قمنا بعمل عظيم الاهمية . ومما يؤسف له الفصل بين المعرفة وبين الحياة ، وان كان ذلك لا يمكن تفاديه تماماً في خلال السنوات الدراسية . وحيثما كان التفادي متعذراً فلا مناص من ايراد احاديث من آن لآخر توضح فائدة المعرفة في الحياة (المقصود الفائدة هنا في اوسع معانيها) . ومع ذلك ينبغي ان يسمح بقدر كبير من الاستطلاع والبحث الذي بغيره ما كان يستطاع اكتشاف بعض المعرفة الثمينة جداً (كالرياضة البحتة مثلاً) فهناك كثير من المعرفة يبدو لي قيماً في ذاته بغض النظر عن أي تطبيق عملي

يمكن ان يكون له. وما ينبغي لي ان اشجع الصغار على البحث بدقة لاستكشاف غرض من وراء المعرفة جميعها ، فالاستطلاع او حب الاطلاع الخالي من الغرض أمر طبيعي بالنسبة للصغار ، وهو صفة ثمينة جداً . ويجب ألا نلجأ لإثارة حب المهارة التي تتجلى في الحياة العملية الا حينما يفشل حب الاطلاع الخالي من الغرض. فلكل من الهدفين مكان وما ينبغي ان يسمح لأيهما بأن يزحم الآخر .

واتساع أفق العقل صفة ستظل على الدوام موجودة حيث تصدق الرغبة في المعرفة ، ولا تفارق الانسان الا حيث تختلط رغباته الأخرى باعتقاد انه يعرف الحقيقة بالفعل ، وهذا هو السر في ان هذه الصفة اكثر شيوعاً بين الشبان منها بين المتقدمين في السن. فأوجه نشاط الانسان لا تكاد تنفك عن الارتباط بما يقر عليه رأيه ورجل القانون لا مناص له من القول بأن المجرمين يجب ان يعاقبوا — الا اذا استطاعوا توكيل احد مشاهير المحامين ، والمدرس يتحيز لطريقة التعليم التي يصلح لها بحكم اعداده وتجاربه ، والسياسي لا يكاد يملك الا الايمــان بمبادىء الحزب الذي يغلب ان ينال العمل على يديه . فاذا ما اختار المرء الطريق الذي سيسلكه في الحياة فلن ينتظر منه ان يظل يفكر فيما اذا كان احد الطرق الاخرى أليَق وأجدى عليه. ومن ثم كان لاتساع أفق العمل حدوده عند المتقدمين في السن ، وان كان ينبغي ان تكون هذه الحدود اقل ما يمكن . اما في الشباب فما يسميه وليم جيمس (اختبارات جبرية) اقل بكثير منها بعد الشباب ، وتقل بالتتابع الظروف التي تحمل الانسان على ارادة الاعتقاد. وينبغي ان نشجع الشبان على ان يعتبروا كل شأن من الشؤون قابلاً للمناقشة ، وان يكون في استطاعتهم ان ينبذوا اي رأي تبعاً للحجة . وينطوي تحت هذه الحرية في التفكير الا تكون هناك حرية كاملة في الافعال ، فلا يصح ان يطلق للصبي الحرية ليجري الى البحر تحت تأثير احدى قصص المغامرات الاسبانية ، لكن ما دام في دور التعليم فينبغي ان يكون حراً في الاعتقاد ان خيراً له ان يكون احد القراصنة من ان يكون احد الاساتذة .

والقدرة على حصر الذهن صفة قيمة جداً ، وقليل من الناس من يكسبها بغير طريق التربية . نعم انها تنمو بطبيعتها الى حد كبير كلما تقدم الشباب في السن، فالأطفال الصغار يندر ان يفكروا في شيء واحد لأكثر من بضع دقائق، لكن لكل سن يتقدمونها تجعل التفاتهم اقل تبخراً حتى يكبروا ، ومع ذلك فلا يكاد يكون من المحتمل ان يكسبوا قدراً كافياً من حصر الذهن دون تربية عقلية طويلة . وهناك ثلاث صفات تميز قدرة الحصر الكامل للذهن ألا وهي : الشدة ، والطول ، والرغبة الذاتية . اما الشدة فتوضحها قصة ارشميدز التي تروى عنه انه لم يلحظ قط استيلاء الرومان على سراكوزه ومقدمهم اليه ليقتلوه لأنه كان مستغرقاً في حل مسألة رياضية . وأما المقدرة على حصر الذهن في الموضوع الواحد زمناً طويلاً فضرورية للقيام بالصعب من الاعمال ، بل ولفهم اي موضوع معقد او عويص. وهي تأتي نتيجة للاهتمام التلقائي العميق بالموضوع. ومعظم الناس يستطيعون حصر الذهن في لغز من الالغاز زمناً طويلا ، لكن هذا ليس كبير الفائدة في ذاته ، فلكي يكون حصر الذهن قيماً حقاً ينبغي ان يكون تحت سلطان الارادة ، واقصد بذلك ان يستطيع الانسان جبر نفسه على تحصيل معرفة ما اذا كان لديه على تحصيلها باعث كافٍ ولو لم تكن في ذاتها تسترعي الاهتمام . ورأيي ان ضبط الالتفات والتسلط عليه عن طريق الارادة هو اكبر ما نكسبه من التعليم العالي، ومن هذه الناحية وحدها نجد التعليم القديم جديراً بالاعجاب ، فإني أشك في نجاح الاساليب الحديثة نجاح الاساليب القديمة في تعليم الانسان ان يتحمل السأم مختاراً . على ان هذا العيب لو كان موجوداً بالفعل في اساليب التربية الحديثة فهو بعيد عن ان يكون مستعصياً لا علاج له ، وتلك مسألة سأعود اليها فيما بعد .

والصبر والجد يجب ان ينتجا عن التربية الجيدة ، وكان المظنون فيما مضى ان الطريقة الوحيدة لضمانهما في معظم الاحوال هي فرض العادات الجديدة فرضاً على الشخص ، ولا شك في ان هذه الطريقة تصادف بعض النجاح ، كما في ترويض

الحصان على ان يركب او ان يجر عربة. لكن الافضل في رأيي ان يحفز الطموح اللازم للتغلب على الصعوبات، وذلك يمكن تحقيقه بتدريج الصعوبات حتى يسهل على المرء في اول الأمر احراز السرور بالنجاح . وعن هذا الطريق يعرف بالخبرة كيف يجني ثمار المثابرة ، وبالتدريج يمكن ان يزاد مقدار المثابرة المطلوبة وهذه الملاحظات تصدق بالضبط على اعتقاد ان المعرفة صعبة الكنها غير مستحيلة المنال . وخير سبيل لتوليد هذا الاعتقاد حمل التلميذ على حل سلسلة من المسائل متدرجة في الصعوبة عن عناية وإحكام .

اما الدقة فهي مثل الضبط الارادي للالتفات في ان دعاة الاصلاح في التربية ربما كانوا أميل الى ان يبخسوها حقها . فالدكتور بلارد يقرر بلهجة التأكيد ان مدارسنا الابتدائية لم تبلغ من هذه الناحية الاجادة التي بلغتها من قبل، وان كانت هذه المدارس قد تحسنت تحسناً كبيراً من اكثر النواحي ، فهو يقول : (هناك عدد عظيم من الاختبارات التي أعطيت لتلاميذ المدارس في الامتحانات الثانوية في السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر، ورتبت نتائجها في جداول للاستعانة بها عند صرف الاعانات ، فاذا ما اعطيت هذه الاختبارات نفسها في ايامنا هذه لاطفال في نفس السن، كانت النتائج على الدوام أسوأ من تلك بشكل واضح ، ولا شك مطلقاً في هذه الحقيقة مهما تكن اسبابها . واذا نظرنا بصفة عامة وجدنا ان العمل في مدارسنا والابتدائي منها على الاقل ، اقل دقة مما كان عليه منذ ربع قرن . ومناقشة الدكتور بلارد لهذا الموضوع باهرة الى حد انني لا اجد ما يصح ان اضيفه اليها . على اني سأنقل هنا كلماته الختامية : (بعد ان نقتطع كل ما يمكن اقتطاعه تظل الدقة مثلاً اعلى سامياً ملهماً . انها ادب الفكر في السلوك . انهـا تحدد ما ينبغي ان يسعى الفكر ويرمي اليه حين يطلب مثله الاعلى الجدير به ، وذلك لان مدى دقتنا في افكارنا واقوالنا وافعالنا مقياس تقريبي لتعلقنا بالحق واخلاصنا له) .

والصعوبة التي يلاقيها انصار الطرق الحديثة هي ان الدقة كما نعلمها في يومنـا

هذا تنطوي على الملل والسأم. ولو استطعنا ان نجعل التربية عملية مشوقة لكان في ذلك غنم عظيم . على اننا يجب ان نفرق هنا بين امرين : السأم الذي مصدره المعلم وحده وهو كله سيء بغيض، والسأم الذي يتحمله التلميذ طائعاً مختاراً لكي يحقق املاً يصبو اليه ، فهذا له قيمته ما لم يتجاوز حدوده . وينبغي ان يكون جزءاً من التربية ان نلهب في التلاميذ رغبات ليس من السهل اشباعها – كمعرفة التفاضل والتكامل او قراءة هومر، او اجادة العزف على الكمان او ما الى ذلك، فكل واحدة من هذه تنطوي على دقة خاصة بها . فالقادرون من الاولاد او البنات يصمدون لمتاعب لا آخر لها ، ويخضعون مختارين للقاسي من النظم كي يحصلوا نوعاً من المعرفة او المهارة يشتهونه ، اما الذين هم أقل حظاً من المقدرة فمن المستطاع أن نذكي في نفوسهم صنوفاً من الطموح شبيهة بتلك اذا علمناهم بغيرة وروح ، فالقوة الدافعة في التعليم ينبغي أن تكون رغبة التلميذ في التعلم لا سلطان المعلم ، ولا ينتج من هذا ان التعليم ينبغي في كل مرحلة من مراحله ان يكون هيناً ليناً شائقاً . ويصدق هذا بصفة خاصة على مسألة الدقة ، فتحصيل المعرفة الدقيقة خليق بأن يبعث على الضجر والسأم ؛ لكنه ضروري لكل نوع من انواع الاجادة والتفوق ، ومن المستطاع اظهار هذه الحقيقة واضحة لكل طفل بالطرق الملائمة . وبقدر فشل الطرق الحديثة في هذا الصدد نحكم بأنها على خطأ . وفي هذا ، كما في كثير غيره قد يجر الانتفاض على اساليب التأديب العتيقة الرديئة الى افراط في التراخي يجب ان يحل محله نوع جديد من التأديب فيه من الوازع الداخلي والباعث النفساني اكثر مما في الطريقة القديمة التي تعتمد على السلطان الخارجي ، وهذا النوع الجديد من التأديب ستكون الدقة هي التعبير الفكري عنه .

وهناك انواع مختلفة من الدقة لكل منها اهميته الخاصة . فلنتحدث عن الأساسي منها: هناك الدقة العضلية والدقة الذوقية ، والدقة في الشئون الواقعية، والدقة المنطقية . ويستطيع كل ولد وبنت تقدير اهمية الدقة العضلية في نواح

عدة ، فهي لازمة للتسلط على الجسم ذلك التسلط الذي يصرف الطفل الصحيح كل اوقات فراغه في اكتسابه ، ولازمة بعد ذلك للألعاب التي تتوقف عليها مكانة الانسان . لكن لهذه الدقة العضلية صور اخرى اعظم اتصالا بالتعلم المدرسي ، كالافصاح في الكلام والاجادة في الكتابة والعزف الصحيح على آلة موسيقية . ويتوقف حكم الطفل على اهمية هذه الاشياء او عدم اهميتها على بيئته. اما الدقة الذوقية فمن الصعب تعريفها ، فهي تتصل بالتلاؤم بين المنبه المحسوس والعاطفة التي ينتجها . ومن الطرق التي تعلم الطفل نوعاً هاماً منها حمل الأطفال على حفظ الشعر عن ظهر قلب - كحفظ شعر شكسبير بقصد التمثيل - واشعارهم حين يخطئون لماذا كانت القطعة الأصلية افضل . وفي اعتقادي انه حيثما تسود الحساسية بالجمال وتنتشر نجد الأطفال يعلمون القيام بأدوار تقليدية معادة كالرقص والغناء ، ويجدون فيها متعة ولكن يتحتم ان يأتوا بها على الوجه الصحيح طبقاً للتقاليد بالضبط ، وهذا يجعلهم يحسون بالفروق الصغيرة في الأداء وهو مالا غنى عنه للوصول الى الدقة ، فالتمثيل والغناء والرقص ، كلها تبدو لي خير الطرق لتعليم الدقة الذوقية . والرسم اقل صلاحية منها لأنه عرضة لأن يحكم عليه بمقدار مطابقته للنموذج ، لا بمعايير الجمال . حقاً ان القيام بادوار ثابتة متكررة يستلزم ايضاً تقليد نموذج خلقته البواعث الفنية ، ينقل لانه جيد لا لأن النقل في ذاته مستحب .

والواقع ان الدقة في الوقائع من حيث هي تكون مملة الى حد لا يحتمل ، فحفظ تواريخ ملوك انجلترا او اسماء الممالك وعواصمها كان فيما مضى مما يفزع الاطفال . وخير لنا ان نحوز الدقة عن طريق الاهتمام والتكرار ، فاني شخصياً لم استطع قط ان اتذكر قائمة بالرؤوس في الجغرافيا ، مع اني عندما كنت في الثامنة من عمري كنت اعرف محطات سكك الحديد تحت الأرض كلها تقريباً. ولو اننا عرضنا على الاطفال فيلما سينمائيا يمثل سفينة تسير بحذاء الشاطىء وهي مبحرة ، فأنهم سرعان ما يعرفون الرؤوس ويحفظونها . ولست اعتقد ان

معرفة هذه الرؤوس لها قيمة ، ولكن ان كانت تستحق المعرفة فهذا هو طريق تحفيظها للتلاميذ. فينبغي ان يكون تعليم الجغرافيا كله بواسطة السينما، وكذلك تعليم التاريخ في مراحله الاولى . حقيقة ان التكاليف الابتدائية ستكون باهظة لكنها ليست فوق طاقة الحكومات وسيتلوها فيما بعد اقتصـــاد كبير بسبب سهولة التعلم .

اما الدقة المنطقية فتحصيلهـا يتأخر عادة ويجب الا تفرض على الأطفال الصغار . وحفظ جدول الضرب جيداً هو بالطبع دقة من ناحية الواقع ، لكنه لا يصير دقة منطقية الا في مرحلة متأخرة جداً . والوسيلة الطبيعية لتعليمه هي الرياضيات ، لكنها تفشل في ذلك لو بدت للطفل كأنها مجموعة من القواعد تفرض اعتباطاً بغير حكمة ظاهرة . فالقواعد يجب ان تعلم ، ولكن الأسباب التي بنيت عليها يجب ان توضح في احدى المراحل ، فان لم نفعل ذلك اصبحت الرياضة قليلة الفائدة من الناحية التعليمية .

والآن اتناول مسألة عرضت لنا من قبل ونحن نتكلم عن الدقة ، الا وهي : الى اي حد يمكن او يستحب جعل التعلـــيم كله شائقاً ؟ كان الرأي القديم ان كثيراً من التعليم يجب ان يكون عقيماً مملا ، وان الوسيلة الوحيدة لحمل الولد المتوسط على ان يصمد له هو استخدام السلطة الصارمة (اما البنت المتوسطة فكان المفروض ان تظل في جهالتها) . اما الرأي الحديث فيقول بأن عمليـة التعليم يمكن ان تكون في جميع مراحلها مبعثاً للسرور والابتهاج ، واني اميل الى الرأي الحديث واشد عطفاً عليه مني على الرأي القديم ، ومع ذلك فلا بد له في رأيي من بضعة قيود لا سيما في التعليم العالي. وسأبدأ بما اراه فيه صوابا.

يؤكد جميع الكتاب الحديثين في موضوع نفسانية الطفولة انه من الاهميـــة بمكان ألا يستحث الطفل الصغير على الأكل او النوم ، لأن مثل هذه الاشياء ينبغي ان يفعلها الطفل من تلقاء نفسه لا بدافع من الاغراء او الضغط . وان تجـارب

الشخصية لتؤيد تلك التعاليم تماماً ، وقد كنا في أول الامر نجهل التعاليم الجديدة وجربنا الطرق القديمة ففشلت ، بينما نجحت الاساليب الحديثة تماماً . ومع ذلك يجب الا يتسرب الى الذهن ان الوالد الحديث يقف مكتوف اليدين بالنسبة للأكل او النوم ، فهو على النقيض من ذلك يبذل كل مـــا في وسعه ليعاون في تكوين العادات الجيدة . فوجبات الطعام تقدم في اوقات منتظمة ، ويجلس الطفـــل خلالها لا يلعب ، سواء أكل أم لم يأكل . كذلك يحين وقت النوم بانتظام،وعند ذاك يوضع الطفل في السرير ويسمح له بأخذ اللعب الحيوانية ليحتضنهـا ، ولا يسمح له باللعب التي تجري ، او التي ينبعث منهـا أصوات ، او التي تثير الطفل بأية حال من الاحوال . واما ان كان الحيوان أليفاً فيصح أن يلعب الطفل لعبة مؤداها ان الحيوان متعب وان على الطفل ان يحمله على النوم . بعد ذلك يـترك الطفل وحده فسرعان ما يأتيه النوم . لكن حذار من ان يفهم الطفل انـــك حريص على ان ينام او يأكل ، فان ذلك يؤدي به في الحال الى الظن بأنك تسأله معروفاً ، وهذا يمده بالاحساس بالقوة ، وهذا الاحساس يجعله يتطلب المزيد من الاغراء او العقاب . فيجب ان يطعم وينام لأنه يريد ذلك ، لا من اجل ان يبعث في نفسك السرور .

وواضح ان هذه النفسانية تنطبق الى حد كبـير على التعليم ، فاذا أصررت على تعليم الطفل استنتج انك تطلب منه ان يفعل ما يكره من اجـل مسرتك انت ، ويؤدي ذلك الى مقاومة نفسية لو نشأت في مبـــدأ الامر استمرت على الدوام . فاذا تقدمت سن التلميذ فقد تصير رغبته في اجتياز الامتحانات ملحة وواضحة تحفزه الى العمل ، فهو عمل غير صادر عن مجرد الرغبة في المعرفة ، ثم تعطيه المعلومات التي يريدها على سبيـــل إسداء معروف اليه ، فان الموقف كله يتغير اذ تقل الحاجة الى التأديب الخارجي ونظفر بالتفات التلميذ بغير صعوبة ، ولكي تنجح هذه الطريقة يجب ان تتوفر شروط معينة كانت مدام منتسوري تنجح في خلقها بـــين الصغار ، فالواجبات يجب ان تكون جذابة وليست على

جانب كبير من الصعوبة . فلا بد اولاً من المثل يضربه الاطفال الآخرون في مرحلة اكثر تقدماً عن الطفل قليلاً . ويجب ألا يكون هناك امامه في نفس الوقت شاغل آخر محجب ، فكل طفل يستطيع ان ينتقي بنفسه من الاشياء العديدة التي امامه ما يفضله ليشغل به نفسه . وهذه طريقة يسر لها ويسعد بها كل الاطفال تقريباً ، ويتعلمون عن طريقها القراءة والكتابة بغير ضغط قبل ان يتموا الخامسة من عمرهم .

اما الى اي حد يمكن تطبيق طرق كهذه على الاطفال الكبار تطبيقاً مفيداً فمسألة فيها نظر . فكلما تقدم الاطفال في العمر اخذوا يستجيبون لبواعث أبعد من تلك، ولم يعد من الضروري ان تكون كل نقطة من التفاصيل مشوقة في ذاتها. لكني اظن ان القاعدة العامة التي تفضي بأن الدافع في التربية ينبغي ان ينبع من التلميذ نفسه، هذه القاعدة يمكن متابعة السير طبقاً لها الى اي سن . وينبغي ان نهيىء الوسط والبيئة بحيث تثير هذا الدافع، ونجعل السأم والعزلة هما البديل الوحيد من التعلم . لكن اذا آثر اي طفل هذا البديل في اية مناسبة وجب ان يسمح له بأن يختاره . ويصح التوسع في مبدأ العمل الشخصي وان كان يبدو لي انه لا يمكن الاستغناء بعد السنوات الاولى عن قدر معين من العمل الجماعي في الفصل . فاذا ما لزمت السلطة الخارجية بعد تحمل الفتى او الفتاة على التعلم فالراجح عندئذ (ان لم يكن هناك سبب طبي) ان يكون المعلم على خطأ او أن تكون التربية الخلقية السابقة سيئة ، اذ ينبغي اذا احسنت تربية الطفل الى سن الخامسة او السادسة ان يكون في مقدور كل معلم جيد ان يظفر باهتمامه في جميع المراحل التالية .

والمزايا التي تتبع إمكان هذا عظيمة اذ يبدو المعلم صديقاً للتلميذ لا عدواً له، ويتعلم الطفل أسرع من ذي قبل « لأنه يكون مدفوعاً بروح التعاون، ويكون تعبه في التعلم اقلّ لأنه يبذل جهداً مستمراً في استحضار ذهن صرفه الملل والسأم. ثم ان هذا يزيد فيه حاسة الابتكار الشخصي بدلاً من اضعافها . وبناء على هذه

المزايا يجدر بنا ان نفترض ان في الاستطاعة حمل التلميذ على ان يتعلم بدافع من رغباته الشخصية بغير حاجة الى استخدام الضغط من جانب المعلم . واذا ما تبين ان نسبة ضئيلة من الحالات تفشل معها هذه الطرق فان من المستطاع عزلها وتعليمها بوسائل اخرى . لكني أعتقد انه لو هيئت الاساليب الملائمة لذكاء الطفل فان حالات الفشل تكون اقل من القليل .

ولا اعتقد ان في الامكان جعل التعليم المتين المستقصى مشوقاً من اوله الى آخره لأسباب ذكرناها عند الكلام عن الدقة ، اذ لا بد مهما عظمت رغبة المرء في الالمام بموضوع ما ان تظل بعض اجزاء منه جافة ثقيلة على نفسه . ولكني اعتقد ان من الممكن بالارشاد الملائم اشعار الولد او البنت بأهمية تعلم تلك الأجزاء الجافة الثقيلة بحيث يتم تعلمها بغير ادنى ضغط . ويحسن استغلال المدح واللوم كحافز يستخدم على اثر اجادة التلميذ القيام بالواجبات او تقصيره في اداتها . وينبغي كما في الالعاب او الرياضة البدنية ان يوضح للتلميذ تماماً ما اذا كانت لديه المهارة الكافية ام انها تنقصه ، كما ينبغي على المدرس ان يوضح للتلميذ اهمية الأجزاء الجافة الثقيلة من الموضوع ، فاذا فشلت كل هذه الاساليب كان لا بد من ادخال التلميذ في عدادالاغبياءوتعليمه وحده بعيداً عن الاطفالالطبيعيين في ذكائهم مع بذل الجهد حتى لا يبدو هذا الاجراء كأنه عقوبة .

وينبغي الا في الاحوال النادرة جداً الا يكون المعلم احد والدي الطفل حتى في السنوات المبكرة (اي بعد سن الرابعة مثلاً) . فالتعليم عمل يحتاج مهارة من نوع خاص يمكن ان تكتسب ، ولكن معظم الوالدين لم تتح لهم فرصة اكتسابها ، وكلما صغرت سن الطفل زادت المهارة اللازمة في تعليمه . وبغض النظر عن هذا فان الوالدين كانا قبل ان تبدأ التربية الرسمية على اتصال مستمر بالطفل، تكونت في خلاله لدى الطفل تجاه الوالد مجموعة من العادات والتوقعات التي لا تعتبر ملائمة تماماً تجاه المعلم . وفضلاً عن هذا فان الوالد اقرب ان يكون اشد حرصاً واعظم اهتماماً بتقدم طفله ، فيظهر عليه اكثر مما ينبغي من السرور

بما يبدو على طفله من نجابة، ومن الغيظ لما يبدو عليه من بلادة . فالأسباب التي حملت رجال الطب على ألا يعالجوا أسرهم الخاصة هي بعينها التي تمنع المعلم من تعليم أطفاله . لكني بطبيعة الحال لا اقصد ان يمتنع الآباء عن ان يعطوا اطفالهم من التعليم ما يأتي عفواً ، انما اقصد انهم في العادة ليسوا خير من يعطيهم الدروس المدرسية الرسمية ولو كانوا اهلاً لتعليم اطفال غيرهم من الناس .

ويجب ان يتخلل عملية التربية من اول ايامها الى آخرها احساس بالمغامرة الفكرية . فالدنيا مملوءة بالاشياء المحيرة التي يمكن فهمها ببذل الجهد الكافي ، وشعور الانسان بفهم ما كان يحيره يجد له انتعاشاً ومتعة ، وكل معلم جيد ينبغي ان يكون في استطاعته ان يهب الطفل ذلك كله . وتصف مدام منتسوري سرور الاطفال وابتهاجهم حين يجدون انفسهم قادرين على الكتابة، واني لأذكر شعوري الذي كان يقرب من النشوة عندما قرأت لأول مرة استنتاج نيوتن لقانون كبلر الثاني من قانون الجاذبية ، وقلّ ان يكون السرور نقياً ونافعاً معاً كما في حالة كهذه . فالعمل الشخصي الابتكاري يهيء للتلميذ فرصة للكشف ، ومن ثم يمده بحاسة المغامرة الفكرية في مناسبات اكثر وبقوة اشد منها حين يعلم كل شيء في الفصل. فلندع التلميذ يستخدم فاعليته كلما امكن ذلك بدلاً من ان يكون متلقياً فحسب . وهذا سر من الاسرار جعل التربية مصدراً للسعادة بدلاً من ان تكون مصدراً للعقاب .

- ١٥ -

منهج الدراسة قبل الرابعة عشرة

ترى ماذا ينبغي ان يعلم ؟ و كيف ينبغي ان يعلم ؟ سؤالان بينهما صلة وثيقة؟ اذ كلما تحسنت طرق التعليم ازداد ما يمكن تعلمه وبخاصة اذا كانت عند التلاميذ رغبة في التعلم فلا يعتبرونه عملاً مملا . وقد قلت فيما مضى شيئاً عن طرق التعليم وسأقول اكثر في فصل تال ، اما الآن فسأفترض ان الطرق المستخدمة هي خير الطرق ، وسأنظر فيما ينبغي ان يعلم .

اذا فكرنا فيما ينبغي ان يعرفه البالغ فسرعان ما ندرك ان هنـــاك اشياء ينبغي ان يعرفها كل الناس واخرى يجب ان يعرفها فريق منهم ولا حاجة بالآخرين اليها . فالطب مثلاً يجب ان يعرفه بعض النـــاس ، لكن يكفي سواد الناس تحصيل معلومات ابتدائية عن علم الصحة وعلم وظائف الاعضاء . كذلك ينبغي ان يعرف بعض الناس علم الرياضة العالية ، لكن الاوليات البسيطة تكفي اولئك الذين لا يستسيغون الرياضيات وينبغي ان يعرف البعض كيف ينفخ في البوق . لكن من لطف الله انه لا يتحتم على كل طفل في المدرسة ان يتمرن على هذه الآلة .

ويمكننا ان نقول بوجه عام ان الاشياء التي تعلم في المدرسة قبـــل سن الرابعة عشرة ينبغي ان تكون من بين مـــا يتحتم على كل فرد ان يعرفه ، فان التخصص اذا صرفنا النظر عن الحالات الشاذة ينبغي ان يأتي متأخراً . ومع ذلك ينبغي ان يكون من اغراض التربية قبل الرابعة عشرة استكشاف الميول الخـاصة في الاولاد والبنات حتى اذا ما ظهرت عني بتنميتها في السنوات التـالية . من اجل هذا يجدر بكل انسان ان يتعلم المبادىء البسيطة للمواد التي لا يحتـــاج من لا يجيدونها ان يتابعوها . وبعد ان نقرر ما ينبغي ان يعرفه كل بالغ يكون علينـا ان نقرر ترتيب تعليم المواد ، وسنسترشد هنا بطبيعة الحال بصعوبتها النسبيـة مبتدئين بأسهلها . وهذان المبدآن يعينان الى حد كبير منهج الدراسة في سنوات المدرسة الاولى .

وسأفترض ان الطفـل حين يبلغ الخامسة من عمره يكون قد عرف القراءة والكتابة ، وسيقع عبء هذا على مدرسة منتسوري او ما يبتكر من تحسين عليها فيما بعد . وفي هذه المدرسة ايضاً يتعلم الطفل نوعاً من الدقة في الادراك بالحواس كما يتعلم مبادىء الرسم والغناء والرقص والمقدرة على حصر الذهن في عمل متصل بتربيته حين يكون بين عدد من رفاقه . ولن يصل الطفل بطبيعة الحال الى الكمال في هذه النواحي عندما يبلغ الخامسة ، بل سيكون في حاجة الى متـابعة التعلم فيها جميعاً في خلال بضع السنوات التالية . ولست أرى وجوب القيام بأي عمل يتطلب مجهوداً عقليـاً شديداً قبل سن السابعة ، لكن من المستطاع انقـــاص الصعوبات الى حد كبير اذا أوتينا المهارة الكافية . والحساب من عقارب الطفولة – واني لأذكر بكائي المر لعجزي عن حفظ جدول الضرب – لكنــه اذا عولج بعناية وتدرج بواسطة جهاز منتسوري لا يترك محلاً لشعور العجز واليأس الذي كانت تبعثه فينا اسراره الغامضة . على انه لا مناص في آخر الامر من جهـــاد مضن للتمكن من بعض قواعده اذا أردنا اكتساب سهولة كافية في اجراء عملياته ، فالحساب اشد مواد الدراسة الاولى استعصـــاء على الدخول في منهج يراد جعله

شيقاً ، ومع ذلك فهناك قدر من المهارة الحسابية لا بد منه لأسباب عملية. كذلك الحساب مقدمة طبيعية لاعتياد الدقة ، فجواب المسألة اما ان يكون صحيحاً او خطأ ولا يكون ابداً شيقاً او فيه نظر ، وهذا يجعل للحساب اهمية كعنصر من عناصر التربية الاولى بغض النظر عن فائدته العملية ، لكن يجب ان نعنى بتدريج صعوباته وتوزيعها توزيعاً يسهل التغلب عليها فلا نخصص لها في المرة الواحدة وقتاً اطول مما ينبغي .

ولقد كانت الجغرافيا والتاريخ عندما كنت صبياً من أسوأ المواد تعليماً ، كنت اخشى درس الجغرافيا ، ولئن تحملت درس التاريخ فانما يرجع ذلك لما كنت اشعر به على الدوام من ميل اليه . وكلتا المادتين يمكن ان تكونا خلابتين حتى لصغار الأطفال ، فولدي الصغير وان لم يتلق اي درس يعرف بالفعل من الجغرافيا اكثر بكثير مما تعرفه حاضنته . وقد اكتسب هذه المعرفة عن طريق حبه للقطارات والبواخر ، ذلك الحب الذي يشاطره فيه كل الصبيان ، فهو يريد ان يعرف الكثير عن الرحلات التي ستقوم بها بواخره الوهمية، ويستمع الى منتهى الالتفات حين احدثه عن مراحل الرحلة الى الصين ، ثم أريه اذا شاء صوراً ومناظر لمختلف الممالك التي في الطريق ، وهو يصر احياناً على أخذ الاطلس الكبير ليتابع الرحلة على الخريطة . والسفرة بين لندن وكورنول في القطار تشوقه الى حد كبير ، اذ يقوم بها مرتين في العام ، فهو يعرف كل المحطات التي يقف عليها القطار او التي فيها تفصل بعض العربات . وهو مفتون بالقطب الشمالي والقطب الجنوبي ، ويعجب لم لا يوجد قطب شرقي او قطب غربي . وهو يعرف اتجاه فرنسا واسبانيا وامريكا على البحر ، وقدراً كبيراً عما يمكن رؤيته في تلك الممالك . ولم يأت شيء من هذا عن طريق التلقين وانما كان كله عن طريق الاستجابة الى الاستطلاع الملح . فكل طفل تقريباً يشعر باهتمام وشوق نحو الجغرافيا بمجرد اقترانها بفكرة السياحة . ولذا فانني افضل تعليم الجغرافيا عن طريق الصور وقصص الرحالين من جهة ، وخصوصاً عن طريق عرض ما يراه

السائح في رحلته بالسينما . ومعرفة الحقائق الجغرافية مفيدة لكن ليست لها قيمة ذاتية من ناحية التفكير . فاذا ما وضحت الجغرافيـــا وتحلت بالصور فعندئذ تكون لها ميزة تقديم غذاء صالح للخيال. ومن الخير ان نعرف ان هناك اقطاراً حارة واخرى باردة ، واقطاراً سهلة واخرى جبلية ، وان هنـالك رجالاً سوداً وصفراً وآخرين سمراً وحمراً علاوة على الرجال البيض ، فهـذا النوع من المعرفة يقلل ما للوسط المألوف لنا من طغيان على خيالنا ، ويسهل امكان شعور الانسان في حياته المستقبلة بأن الاقطار البعيدة موجودة حقاً ، وهذا ما يصعب جداً تحقيقه الا عن طريق السياحة . ولهذه الاسباب أرى ان يخصص للجغرافيا مكان كبير في تعليم الاطفال الصغار جداً ، وستأخذني الدهشة ان لم يبد عليهم الاستمتاع بهذه المادة. ثم ينبغي ان يعطوا بعد ذلك كتباً محلاة بالصور والخرائط والمعلومات الأولية عن مختلف اجزاء العالم ويطالبوا بكتابة مقالات صغيرة عن خصـائص مختلف الاقطار .

وما يصدق على الجغرافيا يصدق الى حد اكبر على التاريخ وان في سن اكبر قليلا ، لأن حاسة الوقت تكون بدائية في اول الامر . اني اعتقد ان التـــاريخ يمكن ان يبـــدأ به ويستفاد منه في سن الخامسة اذا اتخذ في اول الامر صورة قصص شيقة عن عظماء الرجال موضحة بصور كثيرة . قد اعطيت في هذه السن تاريخاً مصوراً لانجلترا ، وقد ترك في نفسي عبور الملكة ماتيلدا لنهر التايمز عند أبنجدن على الجليد أثراً عميقاً الى حد انه اخذتني هزة عندما عبرت هذا النهر على هذه الصورة في سن الثانية عشرة ، وخيل اليّ ان الملـك ستيفن كان ورائي . وأعتقد انه لا يوجد ولد في سن الخامسة يعجز عن ان تشوقه حياة الاسكندر وتسترعي اهتمامه . ولعل كولمبوس اكثر صلة بالجغرافيا منه بالتاريخ ، واستطيع ان اشهد انه يشوق الاطفال وهم في سن الثانية ، او على الاقل يشوق اولئـــك الذين يعرفون البحر منهم . وينبغي ان يكون الطفل عنـدما يبلغ السادسة قد نضج لتلقي صورة مختصرة من تاريخ العـــالم على نمط المستر ولز بعد ان يبسط

التبسيط اللازم وتعد له صور او افلام سينمائيــة ان امكن . واذا كان يعيش في لندن ففي وسعه ان يرى الوحوش الغريبة في متحف التاريخ الطبيعي ، ولكني أرى ألا يؤخذ الى المتحف البريطاني قبل سن العاشرة او ما حولها. ومن الواجب ان نكون على حذر عند تعليم التاريخ ، فلا نقحم النواحي التي تشوقنا منه حتى يكون الطفل قد نضج لتلقيها . وأول ناحيتين تشوقانه هما : الموكب العــام الذي يمثل السير من العصور الجيولوجية الى الانسان ، ومن الانسان المتوحش الى الانسان المتمدن هلمجرّا هــذه ناحية. والناحية الثانية الوصف القصصي التمثيلي المشوق للحوادث التي فيها بطل يستدر العطف ولكني ارى انه يجدر بنا ان نتمثل أمام أعيننا دائما سلسلة طويلــة نهتدي بها ، هي فكرة التقدم التدريجي المتعثر تعترضه على الدوام وتعوقه في سيره الوحشية التي ورثناها ، ومع ذلك تقودنا هذه الفكرة تدريجيا عن طريق العلم نحو السيطرة على أنفسنا وعلى المحيط الذي نعيش فيــه . فالفكرة كما أتصورها يتمثل فيهــا الجنس البشري بأسره يحارب ويصارع الفوضى من الخارج والظلام من الداخل ، بينما ينمو ويكبر بالتدريج ذلك المصباح الصغير الضئيل الذى يمثل العقل والتفكير حتى يصير نورا عظيما يمحو الليل ويبدد الظلام . وينبغي أن تعتبر الانقسامات بــين الأجناس والأمم والعقائد مجرد حمــق يلهينا ويشغلنا اثناء المعركة ضــد الفوضى والظلام القديم ، تلك المعركة التي تمثل نشاطنا الانساني الحق .

واني أرى أن نعطي الطفل أولا ما يوضح هذه الفكرة واذا أعطيناه الفكرة نفسها فلا يكون ذلك الا فيما بعد . أرى أن نبين له الانسان المتوحش منكمشا في البرد يقرض فواكه الأرض دون طبخ ، ونريه استكشاف النار وآثار ذلك، وكيف بدأت الزراعة في وادي النيل ، وكيف استألف الانسان الغنم والبقر والكلاب ، وكيف تطورت السفن ونمت من القارب الصغير الى أكبر بواخر المحيط ، وكيف تطورت المدن ونمت من محلات سكان الكهوف الى لندن ونيويورك ، وكيف نشأت الكتابة والأرقام ونمت بالتدريج ، ونريه لمعان

والاطفال الذين يشتركون في تمثيل يوليوس قيصر او تاجر البندقية أو أية مسرحية اخرى مناسبة لا يقتصرون على معرفة ادوارهم الخاصة ولكن يعرفون ايضاً معظم الادوار الاخرى ، وتظل المسرحية عالقة بأذهانهم زمنا طويـــلا ذلك كله عن طريق ابتهاجهم بالتمثيل وسرورهم منه . على ان الادب الجيد مقصود به ادخال السرور على النفس ، فاذا لم يستطع الاطفال ان يظفروا منه بهذا السرور فلن يستطيعوا الظفر منه بفائدة تذكر . لهذه الاسباب ينبغي في رايي ان يقتصر تعليم الادب في السنوات الاولى على حفظ ادوار للتمثيل ، وما تبقى بعد ذلك يكون عبارة عن مطالعة اختيارية لنصص جيدة الكتابة يحصل عليها الطفل من مكتبة المدرسة . والناس يكتبون في هذه الايام للاطفال كتابات سخيفة عاطفية تهين كرامة الاطفال لما تنطوي عليه من استصغار لهم . قارن ذلك بالجد البالغ في روبنسن كروزو . وتغليب العاطفة في معاملة الأطفال وفي غيرها ينم عن الفشل في العطف على نظريتهم الجدية للحيـــاة ، فليس يوجد طفل يستظرف القيام بأعمال طفلية ، بل يود ان يتعلم بأسرع ما يمكن كيف يسلك مسلك الكبار ، ومن ثم ينبغي الا يظهر اي كتاب يصف للاطفـــال الانتصار لهم باتباع اساليبهم الطفلية . ان التساخف المفتعل في كثير من كتب الأطفال الحديثة ليثير الاشمئزاز والسخط ، فهي اما ان تسيء الى الطفل وتغضبه ، واما ان تحيره وتربك بواعث النمو العقلي عنده . لهذا السبب كانت خير الكتب للأطفال هي التي كتبت للكبار واتفق ان كانت ملائمة للأطفال ، لا يستثنى من ذلك الا الكتب التي كتبت للأطفال وصادفت هوى لدى الكبار ، ككتب لير ، ولويس كارول .

ومشكلة اللغات الحديثة ليست بالسهولة التي يتصورها البعض . ان من الممكن في الطفولة ان يتعلم الانسان كيف يتقن الكلام بلغة حديثة ، وهذا مالا يتيسر اذا تقدم العمر ، ومن ثم كانت هناك اسباب قوية تحملنا اذا اردنا ان نعلم اللغات على ان نبكر بذلك في الطفولة . ويظهر ان بعض الناس يخشى ان تتأثر

لغة الطفل الأصلية تأثراً سيئاً اذا بكرنا بتعليمه غيرها . لكني لا اعتقد ذلك ، فقد كان تولستوي وتورجنيف قادرين تماماً في اللغة الروسية على الرغم من انهما تعلما في طفولتهما الانجليزية والفرنسية والالمانية ، وكان جيبون يستطيع ان يكتب بالفرنسية بنفس السهولة التي يكتب بها بالانجليزية ولم يؤثر ذلك في اسلوبه الأنجليزي .

وخلال القرن الثامن عشر جرى العرف بأن يتعلم جميع الارستقراطيين الانكليز اللغة الفرنسية في بواكير الشباب ، وكثير منهم كان يتعلم الايطالية كذلك ، ومع ذلك ، كانت لغتهم الانجليزية افضل بكثير من لغة ذرياتهم الحديثين . والغريزة التمثيلية عند الطفل تمنعه من ان يخلط لغة بغيرها بشرط ان يتكلم بهما مع اناس مختلفين ، وقد تعلمت الالمانية في نفس الوقت الذي تعلمت فيه الانجليزية وتكلمت بها مع الحاضنات والمربيات الى سن العاشرة، ثم تعلمت الفرنسية وتكلمتها مع المربيات والمعلمين الخصوصيين ، ولم اخلط بينهما وبين الانجليزية لأن كلا منها كان مقترناً عندي بملابسات خاصة . ورأيي أنه ينبغي اذا اريد تعليم لغة حديثة ان يتم ذلك على يد شخص هي لغته الاصلية ، لا لانه يكون احسن تعليماً لها فحسب ، ولكن لان الاطفال يكون شعورهم بالغرابة عندما يتكلمون لغة أجنبية مع اجنبي اقل مما لو تكلموها مع شخص لغته الطبيعية هي نفس لغتهم. لذلك ارى ان كل مدرسة أطفال ينبغي ان يكون بها معلمة فرنسية واخرى المانية ايضاً ان امكن ، لا تعلمان الاطفال لغتيهما بالطريقة التقليدية (الا في بدء الامر فقط) ولكن بمشاطرتهما الاطفال العابهم والتكلم معهم كل بلغتها اثناء اللعب ، وتجعلان الفوز في الالعاب متوقفاً على فهمهم واجابتهم متدرجتين معهم فيها من الابسط الى الاعقد . بهذه الوسيلة يمكن تحصيل اللغة بغير ادنى تعب عقلي وبالاستمتاع بكل ما في اللعب التمثيلي من متعة ، ثم يكون تحصيلها عند ذاك اقرب كثيرا الى الكمال ، واقل اضاعة لزمن التعليم الثمين ، منه في اي فترة تالية .

اما الرياضة والعلوم فلا يمكن البدء فيهما الا في اواخر السنوات التي نتكلم عنها في هذا الفصل — في سن الثانية عشرة مثلا — واني افترض بطبيعة الحال ان الحساب قد سبق تعليمه ، وانه قد كانت احاديث مبسطة عن الفلك وعلم طبقات الارض وحيوانات ما قبل التاريخ ، وعن مشاهير المستكشفين وغير ذلك من الامور الشائقة بطبيعتها . لكني انظر الآن في تعليم الهندسة والجبر والطبيعة والكيمياء . قليل من الاولاد والبنات يحب الهندسة والجبر ، والجمهرة العظمى لا تحبهما ، ولا اظن ذلك يرجع كله الى طرق التعليم الخاطئة ، فالاستعداد الرياضي كالمقدرة الموسيقية هو في صميمه هبة من الله نادرة تماما فيما اعتقد حتى في درجاتها المتوسطة ، ومع ذلك فينبغي ان يتذوق الرياضة كل ولد وبنت حتى يمكن استكشاف اولى الموهبة فيهم . حتى الذين لا يتعلمون شيئاً يذكر من الرياضة يستفيدون من معرفتهم ان هناك مادة كهذه . ومن المستطاع باستخدام الطرق الجيدة ان يفهم كل انسان مبادىء الهندسة ، اما الجبر فلا استطيع ان اقول مثل هذا عنه ، لانه اكثر تجريداً من الهندسة ، ويستعصي فهمه بنوع خاص على الذين لا تقوى عقولهم على تخطي المحسوس . واذا علمنا الطبيعة والكيمياء كما ينبغي وجدنا الميل اليهما اقل ندرة من الميل الى الرياضة وان كان لا يزال مقصورا على اقلية من النشء . وينبغي فيما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة الا نتابع تعليم الرياضة والعلوم الا الى الحد الذي يبين ما اذا كان للولد او البنت اي استعداد لهما . وليس هـذا بالطبع مما يتضح في الحال ، فقد كنت ابغض الجبر في اول الأمر وان استسغته فيما بعد . وقد لا يتبين في الرابعة عشرة أهناك مقدرة ام لا ، ولا بد في مثل هذه الحالات من الاستمرار في الطرق التجريبية فترة اخرى . على اننا في معظم الأحوال نستطيع ان نصل الى قرار نهائي في سن الرابعة عشرة ، فنجد البعض يحبون المادتين قطعاً ويجيدونهما ، وآخرين يكرهونهما ولا يحسنون فيهما ، ومن النادر ان نعثر على نابه يكرههما او غبي يحبهما .

وكل ما قيل عن الرياضة او العلوم ينطبق كذلك على اللغات القديمة . واني

فترض ان التعليم عند الرابعة عشرة ينبغي ان يدخل في دور التخصص تبعاً
'ذواق التلميذ واستعداداته ، فالسنوات الأخيرة قبل هـــذه السن ينبغي ان
صرف في تعرف خير ما يحسن تعليمه في السنوات التالية .

وينبغي ان يستمر تعليم الأمور الخارجة عن الدراسة العادية طول السنوات
لدراسية . ويمكن ان يترك مثل هذا التعليم للآباء ان كانوا من ذوي اليسار ،
ما في حالة الأولاد الآخرين فلا غنى عن ان نعتبر هذا التعليم جزءاً من عمل
لمدرسة . ولا اقصد بالأمور الخارجة عن الدراسة الألعاب ، فهذه بطبيعة الحال
لها أهميتها التي نالت التقدير الكافي ، انما اعني شيئاً مختلفاً : هو معرفة العمليات
الزراعية ، واكتساب خبرة والمام بالحيوانات والنباتات ، وفلاحة البساتين ،
واعتياد الملاحظات اللازمة في الريف ، وهلم جرا . وقد ادهشني ان اكشف ان
الناشئين في المدن يندر ان يعرفوا جهات البوصلة ، ولا يعرفون قط في اي اتجاه
تدور الشمس . ولا يستطيعون الحكم على منزل أي جانب من جوانبه خارج عن
الريح ، ويعوزهم من المعرفة بوجه عام ما تعرفه كل بقرة او شاة . قد يظنني
الناس واهماً عند ما اقول ان هـــذا احد الاسباب التي تحول دون فوز حزب
العمال في انتخابات المناطق الريفية ، لكنه بالتأكيد السبب في ان الناشئين في
المدن في عزلة تامة عن كل ما هو بدائي واساسي . وهو دليل شيء تافه سطحي
ماجن في نظرتهم للحياة – لا دائماً بطبيعة الحال ولكن في الكثير الغالب .
فالفصول والجو ، والبذر والحصاد ، والحاصلات والقطعان والأسراب ، لهـــا
أهمية خاصة للانسان ، وينبغي ان يلم بها ويعرفها ويعتادها كل واحد اذا لم ترد
ان تنقطع الصلة بينه وبين أمه الارض انقطاعاً اتم واشمل . وكل هذه المعلومات
يمكن للاطفال اكتسابها في خلال مناشط لهم بها فائدة عظمى في الصحة ، ومن
اجل هذا وحده تستحق العناية . وان سرور اطفال المدن بالريف عند مـــا
يكونون فيه دليل على أنهم يجدون فيه سدا لحاجة متأصلة فيهم . وما دامت
تلك الحاجة لا تلقى ما يسدها فنظام التربية عندنا ناقص .

ـ ١٦ ـ

السَّنوات المدرسيَّة الأخيرة

سأحسب أنه بعد الاجازة الصيفية التي يبلغ فيها الولد أو البنت الخامسة عشرة من العمر سيسمح له أولها بالتخصص اذا رغبا، وان نسبة من سيرغب في ذلك كبيرة ، لكن اذا لم تبد رغبة واضحة في التخصص فمن الخير ان تطول مدة التعليم العـام الشامـل ، كما يصح في بعض الحالات الاستثنائية ان يبكر التخصيص عن ذلك . ان جميع القواعد ينبغي في التربية ان تكون قابلة لان تكبر لأسباب خاصة ، لكني أرى كقاعدة عامة ان التلاميذ الذين هم فوق المتوسط في الذكاء ينبغي ان يبدأ تخصصهم في نحو الرابعة عشرة ، وان من هم دون المتوسط ينبغي عادة الا يبدأ تخصصهم في المدرسة أبدا الا تدريبا في مهنة . وسأمسك عن التعرض لهذا الموضوع في هذا الكتاب ، لكني لا أومن بأن يبدأ التخصص قبل الرابعة عشرة، وحتى في الرابعة عشرة ينبغي في رأيي ألا يستغرق كل وقت التلميذ في المدرسة . ولست أنوي ان اناقش كم من الزمن ينبغي ان يستغرق ، ولا كم من التلاميذ ينبغي ان يتخصصوا ، أكلهم او بعضهم ، فهذه

مسائل لها نواح اقتصادية وسياسية لا تتصل بالتربية الا بطريق غير مباشر ، ولا يمكن بحثها باختصار ، ولذلك سأقصر بحثي على التربية المدرسية فيما بعد سن الرابعة عشرة.

أرى ان يفرق في المدرسة الانجليزية بين اقسام ثلاثة عامة :

(١) الآداب القديمة (٢) الرياضة والعلوم (٣) المواد الأدبية . وينبغي ان يشمل القسم الاخير اللغات الحديثة والتاريخ والأدب. وقد يكون في الامكان ان يزداد التخصص في كل قسم قبل الانتهاء من المدرسة الذي لن يحدث فيما افترض قبل سن الثامنة عشرة . وبديهى ان يدرس كل الذين يتخصصون في الآداب القديمة اللاتينية واليونانية ، وان استكثر بعضهم من احداهما واستكثر البعض من الأخرى. اما الرياضة والعلوم فينبغي ان يسيرا جنبا الى جنب في اول الامر ، ولكن في استطاعة الطالب ان يبرز في بعض العلوم بغير حاجة الى التوسع في الرياضيات ، فكثير من العلماء المبرزين كانوا في الواقع ضعافا في الرياضة ، لذلك ينبغي في نظري ان يسمح للولد او البنت في سن السادسة عشرة بالتخصص في العلوم او في الرياضيات من غير ان يهملوا الفرع الذي لم يختاروه . وتصدق مثل هذه الملاحظات على المواد الأدبية الحديثة.

وهناك مواد معينة لها اهمية نفعية عظيمة ويجب ان يتعلمها الجميع . ومن بين هذه المواد التشريح ، وعلم وظائف الاعضاء ، وعلم الصحة ، بالقدر الذي يحتمل ان يحتاج اليه البالغ في حياته اليومية . ويجب ان اشير هنا الى ضرورة تعلم كل تلميذ شيئا عن البرلمان والدستور ، ولكن يجب ان نحذر من ان تنحدر الدراسة في هذا الموضوع الى الدعاية السياسية.

وأهم من منهج الدراسة مسألة طرق التدريس والروح التي تسود التعليم . والمشكلة الأساسية في هذا الصدد هي : كيف نجعل العمل شيقا بغير ان يصير

اسهل مما ينبغي ؟ ان الدراسة الدقيقة التفصيلية ينبغي ان تكملها كتب ومحاضرات تلقى عن النواحي العامة لتلك الدراسات . فينبغي ان تنوع الرياضيات بالقاء محاضرات من آن لآن في تاريخ الكشف الرياضي وفي أثر هذا الجزء من الرياضة او ذلك في العلوم او في الحياة اليومية ، مع اشارات الى مانجد، في الرياضة العالية من نشوة وابتهاج . كذلك ينبغي ان تكمل الدراسات التفصيلية في التاريخ بتخطيطات بارعة لمعالمه ولو احتوت تعميمات مشكوكا فيها ، ويمكن ان يفهم الطلاب ان هذه التعميمات محل شك ويشجعوا على ان يتدبروا ما لديهم من معلومات مفصلة ليتبينوا ما اذا كانت تؤيد تلك التعميمات او تدحضها . اما في العلوم فمن الخير ان تقرأ كتب مبسطة تحوي خلاصات للبحوث الحديثة تعطي فكرة عن كيفية استغلال الحقائق والقوانين الخاصة لخدمة الأغراض العلمية العامة. كل هذا يفيد كحافز للدراسة الدقيقة الفاحصة ، ويضر اذا اعتبر بديلا عن تلك الدراسة . وما ينبغي ان يشجع التلاميذ على اعتقاد ان هناك مسارب مختصرة الى المعرفة ، فهذا خطر حقيقي في التربية الحديثة يرجع الى رد فعل التدريب القديم الشديد . وما كان في ذلك التدريب من عمل عقلي كان خيرا ، اما الشر فيه فكان قتل نواحي الاهتمام الفكرية . فعلينا ان نحاول تحقيق الكد لكن بأساليب غير أساليب المؤدبين القدماء . ولا اعتقد ان ذلك مستحيل ، فأنا نجد في امريكا من الطلاب الكسالى من يقبلون على العمل بجد حين يدخلون مدرسة الحقوق او مدرسة الطب لأنهم قد صاروا الى عمل تبدو لهم أهميته ، وهذا هو لب الموضوع فاذا جعلت العمل المدرسي يبدو للتلاميذ ذا أهمية اقبلوا عليه وجدوا فيه . أما اذا جعلت العمل أسهل مما ينبغي ادركوا بغريزتهم انك لا تعطيهم ما هو في الواقع حقيق بالأخذ . ان الأذكياء من البنين والبنات يحبون ان تمتحن عقولهم بالصعاب . فبالتعليم الجيد واقتلاع الخوف يظهر ذكاء كثيرين من الاولاد والبنات كانوا يبدون أغبياء كسالى.

وينبغي ان نحرص في جميع مراحل التعليم على ان تأتي البداءة من جانب

التلميذ بقدر الامكان ، وقد بينت مدام منتسوري كيف يتحقق ذلك مع صغار الأطفال ، أما الكبار منهم فيحتاجون لأساليب أخرى . واظن من المقرر عامة عند رجال التربية الحديثة ان قسط التلميذ من العمل الفردي ينبغي ان يزداد كثيراً عما جرت به العادة ، وان يقل كثيراً نصيبه من العمل الجمعي ، وان كانوا يحتمون ان يتم العمل الفردي في حجرة ممتلئة بالبنات والاولاد المشتغلين بأعمال مشابهة . كما ينبغي ان تكون المكتبات والمعامل فسيحة كافية وان يصرف جزء كبير من العمل اليومي في دراسة اختيارية يوكل الى التلميذ توجيهها ، كما يكون عليه ان يكتب بيانا عما يدرسه وخلاصة لما يحصله من المعلومات ، فان هذا يعين على التثبيت في الذاكرة ، وعلى جعل المطالعة موجهة نحو غرض بعد ان كانت مشتتة ، وعلى ان يجعل للمعلم ذلك القسط من التوجيه الذي لا يكون لازماً في كل حالة . وكلما كان التلميذ اذكى كان مقدار التوجيه اللازم اقل . اما الذين ليسوا على جانب كبير من الذكاء فسيحتاجون الى قدر كبير من الارشاد ، لكن حتى ارشاد هؤلاء ينبغي ان يكون عن طريق الايحاء والاستفهام والحفز لا عن طريق الأمر . ومع ذلك فينبغي ان تكون هناك مشروعات مقررة تمرن التلميذ على الاستيثاق من الحقائق المتصلة بموضوع ما محدود ، وعلى عرض هذه الحقائق بصورة منظمة .

وينبغي ان يشجع الاولاد والبنات علاوة على اهتمامهم بأعمالهم اليومية على ان يهتموا بالمسائل الجدلية الجارية ذات الأهمية ، من سياسية او اجتماعية بل ولاهوتية ، وان يشجعوا على قراءة كل ما ينشر من هذه المناقشات ، فلا يقتصرون على الجانب الذي معه الأغلبية . واذا كان فيهم من يشعر شعوراً قوياً مع جانب فينبغي ان يعلم كيف يبحث عن الحقائق التي تؤيد وجهة نظره ، وان ترتب له مناظرات في الموضوع مع الذين يرون عكس ما يراه ، فالمناظرات يمكن ان تكون ذات قيمة عظيمة اذا كانت جدية ومرتبة بقصد اجتلاء الحقيقة . وينبغي ان يعتاد المعلم الا ينتصر في مثل هذه المناظرات لفريق على

فريق حتى ولو كانت له في الموضوع معتقدات راسخة فاذا ما رأى المعلم ان كل تلاميذه تقريباً قد انحازوا الى جانب فليأخذ هو الجانب الآخر قائلاً انه انما يفعل ذلك من اجل المناقشة وتبيين الحجة ، والا فعليـــه ان يقصر عمله على تصحيح الاخطاء فيما يتعلق بالوقائع . بهذه الوسائل يتسنى للتلاميذ ان يتعلموا المناقشة ابتغاء تبيين الحق لا على انها نضال من اجل الانتصار الخطابي .

ولو كنت على رأس مدرسة للكبار من الاولاد او البنـــات لرأيت من غير المستحب على السواء ان أتجنب الخوض في المسائل الجارية او ان اقوم بدعاية لأيها. ان من الخير ان تشعر التلاميذ ان تربيتهم تهيئهم للتصدي للامور التي تشغل بال الناس ، فان ذلك سيجعلهم يحسون ان التعليم المدرسي ليس منقطعاً عن دنيا الناس العملية ، لكن ينبغي ألا أحمل آرائي عليهم . ان الذي ينبغي علي هو ان اضع امامهم اتخاذ الوجهة العلمية ازاء المسائل العملية مثلاً أعلى يطلبونه . وينبغي ان انتظر منهم ايراد حجج هي حجج ، ووقائع هي بالفعل وقائع ، ففي السياسة بنوع خاص نجد هذه العادة نادرة بقدر ما هي قيمة. فكل حزب سياسي متحمس ينسج شرنقة من الخرافة حول نفسه تنام عقليته داخلها في سلام . ان الحماس كثيراً ما يقتل الذهن ، وفي أهل التفكير الذهني لا يقل ان يقتل الذهن الحماس، فهدفي هو تجنب هـذين الامرين المؤسفين . ان الشعور المتحمس مستحب بشرط ألا يكون هداماً ، وقوة الذهن مستحبة بنفس الشرط ، فينبغي ان تكون بغيتي جعل الحماسة السياسية الاساسية بنائية، ثم احاول ان اسخر الذهن لخدمة تلك الحماسة ، لكن يجب ان تخدمها خدمة حقيقية فعلية لا في دنيـــا الاحلام وحدها . فنحن جميعاً عندما نجد الدنيا الواقعية لا تتملقنـــا ولا تجري على هوانا الى الحد الذي نرتضيه ننزع الى الالتجاء الى دنيا خيالية تلقى رغباتنا فيها مـــا يرضيها بغير كبير عناء ، وهذا هو روح الخيال ، وهو كذلك منبع الخرافـات الوطنية والدينية والطـائفية ، وهو ينم عن ضعف خلقي يكاد يكون عـاماً في دنيانا الحاضرة، ومحاربة هذا الضعف الخلقي ينبغي ان تكون من اهداف التربية

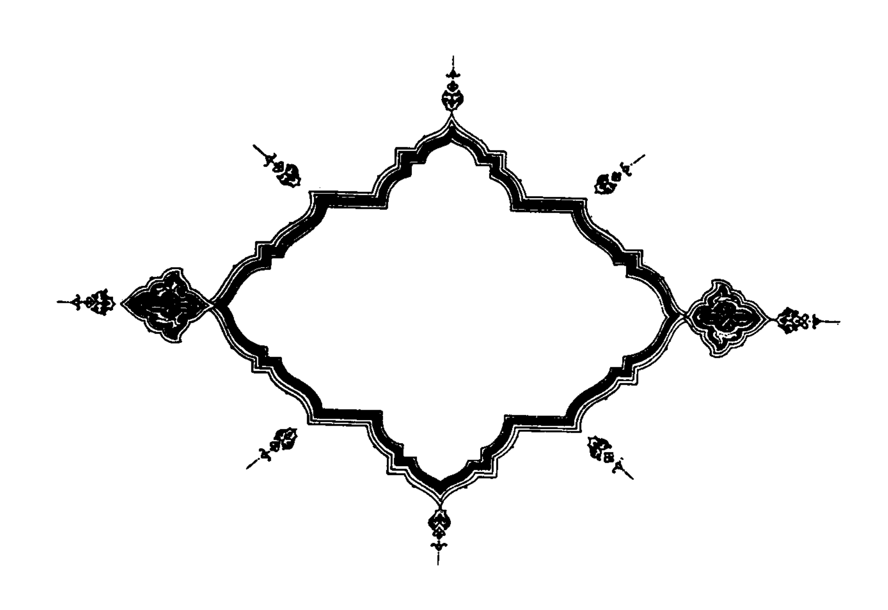
المدرسية في مراحلها الاخيرة . ولمحاربته طريقتان كلتاهما ضرورية وان كانتا الى حد ما متعارضتين : اولاهما ان نزيد في حاسة تقديرنا ما نستطيع ان نحققه في العالم الواقعي ، والاخرى ان نزيد في حساسيتنا لما تستطيع الحقيقة والواقع عمله في سبيل فض احلامنا . وكلاهما داخل في المبدأ القائل بأن يحيا الانسان حياة موضوعيـــة وفق ما حوله اكثر منها ذاتية وفق ما هي في نفسه .

والشخصية المضروبة مثلاً للذاتية دون كيشوت ، فانه حين صنع طاسة لرأسه أول مرة اختبر احتمالها للضربات بضربها حتى تحطمت وتغير شكلها ، وفي المرة التالية لم يختبرها واكتفى بأن (خالها) طاسة جيدة جداً ، وعادة (المخيلة) هذه قد تسلطت على حياته . وكل امتناع عن مواجهة الحقائق غير السارة عمل من نفس النوع ، فكل منا دون كيشوت الى حد كبير او صغير . وما كان دون كيشوت ليتصرف كما تصرف لو انه تعلم في المدرسة كيف يصنع طاسة جيدة حقاً ، وكان محوطاً برفاق يرفضون ان (يخالوا) أي شيء يريد هو منهم ان يعتقدوه . وعادة العيش في عالم الخيال طبيعية وصائبة في بواكير الطفولة ، لأن الاطفال الصغار فيهم عجز لكن لا عن مرض . لكنهم في اقترابهم من حياة البالغين يجب ان يزدادوا بالتدريج ادراكاً جلياً انالاحلام والاماني ليس لها قيمة الابقدر ما نستطيع تحقيقه منها، ان عاجلا او آجلا ، في عالم الواقع . وللاولاد مقدرة عجيبة على تصحيح الدعاوى الشخصية المحضة لغيرهم من الصبيان ، فمن الصعب في المدرسة ان يخدع تلميذ نفسه فيما يتعلق بمقدرته حيال رفاقه . لكن ملكة خلق الخرافات تظل نشيطة فعالة في نواح اخرى بمعاونـــة المدرسين في الغالب . فمدرستنا الخاصة هي خير المدارس في الدنيا ، ووطننا الخاص دائماً على حق ودائماً منتصر، وطبقة الانسان الاجتماعية الخاصة (ان كان غنياً) تفضل كل الطبقات الاخرى . كل هذه خرافات غير مستحبة ، لانها تحملنا على ان نخال طاستنا جيدة مع ان سيف انسان آخر يشقها في الواقع الى نصفين، فهي خرافات تحمل على الكسل وتؤدي الى الدمار .

هذا الذي اقول لا يخرج عن انه ينبغي ان نزرع الروح العلمية . ان كثيراً من رجال العلم المبرزين ليس عندهم هذه الروح خارج دائرة علمهم الخـــاص ، وواجب المعلم ان يسعى لجعلها متغلغلة في جميع النواحي. والروح العلمية تتطلب اولاً وقبل كل شيء الرغبة في تبيين الحق ، وكلما اشتدت هـذه الرغبة وحميت كانت خيراً واجدى، وهي تتضمن فوق هذا صفات عقلية معينة فيجب ان نبدأ بالطالب من غير اليقين ونصل الى قرار تبعاً للأدلة ، ويجب ألا نتخيل مقـــدماً اننا نعرف بالفعل ما ستؤدي بنا الادلة اليه ، كما يجب ألا نقنع بتشكك الكسل الذي يعتبر الحق الواقعي مستحيل المنال والادلة كلها غير قاطعة . بل ينبغي ان نعترف انه حتى معتقداتنا المبنية على خير الاسس قد تكون في حاجة الى شيء من التصحيح ، لكن الحق الذي في وسع البشر الوصول اليه نسبي على درجات. ولا شك في ان ما نعتقد من علم الطبيعة في الوقت الحاضر اقل خطأ منه قبل ايام غاليليه ، وان معتقداتنا فيما يتصل بنفسانية الطفل هي بكل تأكيد اقرب الى الحق من معتقدات الدكتور ارنولد . وقد كان مصدر التقدم في كل من هـــاتين احلال الملاحظة محل الاهواء الشديدة والآراء المكونة مقدماً . ومن اجل هذه الخطوة تأتي اهمية البدء من غير اليقين . ومن ثم كان من الضروري تعليم هـذا ، وكذلك تعليم المهارة اللازمة لحشد الادلة واستعراضها . واهمية هذه العـــادة الفكرية الناقدة تزداد وتعظم في عالم نجد فيه الدعايات المتنافسة تقذف بالاكاذيب على الدوام في وجوهنا لتحملنا على ان نتجرع السم في حبوب او على ان يجرعه بعضنا بعضاً في غازات سامة. فاستعداد الناس لتصديق القول المكرر هو من آفات العالم الحديث الخبيثة، وعلى المدارس ان تبذل ما في وسعها لتحصين التلاميذ منه .

ينبغي ان يكون هناك في خلال سنوات الدراسة كلها احساس بالمغـــامرة الفكرية ، ولذا ينبغي ان يعطى التلاميذ فرصة للبحث بأنفسهم عن الامور التي تثير حماستهم بعد ان يقوموا باداء واجباتهم المدرسية التي ينبغي ان يكون لهذا السبب الا تكون اثقل من اللازم . ويجب ان ينـــال الثناء كل من يستحقه امـــا

الاخطاء فلفت النظر اليها واجب ، لكن ينبغي ان يكون ذلك من غير تشهير . وحذار ان تخجل التلاميذ بسبب غباوتهم . ان الحـــافز الكبير في التربية هو الشعور بان الفوز ممكن ، فالمعرفة التي تمل التلميذ وتضجره قليلة الفائدة ، امـــا المعرفة التي يقبل عليها ويهضمها فتستقر في نفسه ماكاً دائماً له . احرص على ان تكون العلاقة بين المعرفة وبين الحياة الواقعية واضحـــة تماماً لأعين تلاميذك ، وافهمهم كيف يمكن بواسطة المعرفة تغيير العالم وتحويره ، وليكن المعلم دائماً حليف التلميذ الطبيعي لا عدوه ، وليظهر ذلك ، واذا حسنت التربية في السنوات الاولى فان هذه النصائح كافية لأن تجعل تحصيل المعرفة عملية ممتعة للاغلبية العظمى من البنين والبنات .



- ١٧ -

المدارس النهارية والمدارس الخارجية

ان أمر ادخال الولد او البنت الى مدرسة نهارية او مدرسة خارجية هو في نظري مسألة تتقرر في كل حالة تبعـــاً للظروف وللمزاج ، فلكل من النظامين مزاياه الخاصة ، ترجح مزايا احدهما في بعض الحالات وفي غيرهـــا ترجح مزايا الآخر. وقد رأيت ان اعرض في هذا الفصل نوع الحجج التي لها وزن في نظري حين أحاول اتخاذ قرار في هذا الشأن فيما يتعلق بأولادي وهي التي يخيل الي انه سيكون لها وزن عند غيري من الآباء ذوي الضمير .

هناك اولاً الاعتبارات الصحية . ان من الواضح مهما تكن حقيقة المدارس ففي الواقع في الاستطاعة جعلها من هذه الناحية اكثر عناية علمية من معظم البيوت، لأن في وسعها استخدام الأطباء، وحكماء الأسنان والسيدات المشرفات كل مزود بأحدث المعلومات حين يغلب ان يكون الآباء لانشغالهم بأعمالهم أقل علماً بالشئون الطبية. وفوق هذا فان من المستطاع وضع المدارس في بيئة صحية، وهذه الحجة وحدها ترجح كفة المدارس الداخلية بالنسبة لمن يعيشون في المدن

الكبرى . فمن الواضح ان من الخير ان يصرف الناشيء معظم حياته في الريف، واذا كان الوالدان مضطرين للمعيشة في المدن فقد يكون من المستحب ان يرسل الاطفال بعيداً الى المدارس الريفية . هذه حجة لعلها تبطل قبل انقضاء وقت طويل بتحسين الحالة الصحية في المدن ، فمدينة لندن يطرد تحسينها من هذه الناحية وقد تصل الى مستوى الريف باستخدام الضوء الصناعي فوق البنفسجي ، ومع ذلك فاذا فرض انه قد امكن الهبوط بالمرض الى مستواه في الريف فسيظل في المدن قـدر كبير من التوتر العصبي ، فالضوضاء المستمرة مضرة بالصغار وبالكبار على السواء ، في حين ان المناظر الريفية ورائحة الثرى الرطب والرياح والنجوم ، كل هذا ينبغي ان يختزن في ذاكرة كل رجل وامرأة . لذلك ارى انه مهما أدخل من التحسينات الصحية على المدن فسيظل من الاهمية بمكان بالنسبة للصغار ان يمضوا في الريف الجزء الاكبر من العام .

وهناك حجة اخرى ترجح المدارس النهارية ، وان كانت اخف وزناً من السابقة ، هي انها توفر وقتاً طويلاً يصرف في الذهاب والاياب ، فليس هناك مدارس خارجية جيدة حقاً بقربة من معظم الناس، بل قد تبعد المدارس عنهم بمسافات طويلة يضطرون الى قطعها . وهذه الحجة اقوى ما تكون في الريف ، كما ان الحجة السابقة اقوى ما تكون بالنسبة لسكان المدن .

واذا اريد تجربة نوع من التجديد في اساليب التربية فانه يكاد يتحتم اجراؤها في اول الامر في مدرسة داخلية اذ لا يحتمل ان يكون الآباء الذين يؤمنون بهذا التجديد يقطنون في منطقة صغيرة واحدة . ولا يصدق هذا على صغار الاطفال لانهم ليسوا جميعاً في قبضة السلطات التعليمية ، ولذا استطاعت مدام منتسوري والآنسة مكميلان اجراء تجاربهما على ابناء الفقراء جداً اما في حدود السنوات الدراسية المعتمدة فالامر على عكس ذلك ، اذ ان الاغنياء وحدهم هم الذين يسمح لهم باجراء التجارب في تربية اطفالهم ومعظمهم بطبيعة الحال يفضل القـديم التقليـدي ، والقليلون الذين يرغبون في غير ذلك موزعون توزيعـاً جغرافياً

متباعداً . ولا يكفي عددهم في اي مكان لفتح مدرسة خارجية، واذاً فلا سبيل لاجراء *تجارب كالتي تجري في مدرسة بديلز الا في مدارس داخلية .*

ومع ذلك فان الحجج التي في الجانب الآخر في غاية القوة . فهناك كثير من نواحي الحياة لا تظهر في المدرسة ، فهي دنيا مصطنعة ، مشاكلها ليست نفس مشاكل الدنيا على اطلاقها . والولد الذي لا يأوي الى بيته الا في خلال الاجازات وعندها يدلله كل انسان لا يحتمل ان يحصل من المعرفة بالحياة الا قدراً اقل من الذي يحصله الولد الذي يأوي الى بيته كل صباح ومساء . وهذا اقل انطباقاً في الوقت الحاضر على البنات لأنهن في كثير من البيوت يطالبن باعمال اكثر من الاولاد ، لكن كلما ازداد الشبه بين تعليمهن وتعليمهم اقتربت حياتهن المنزلية من حياة هؤلاء ، ومن ثم يتلاشى ما يمتزن به الآن من خبرة بالشؤون المنزلية . ثم ان من الخير للاولاد والبنات بعد سن الخامسة عشرة او السادسة عشرة ان يأخذوا بنصيب معين من مشاغل والديهم ومتاعبهم، لا الى حد يؤثر في تعليمهم، ولكن الى الحد الذي يحول دون عدم ادراكهم ان كبار السن من الناس لهم حياتهم الخاصة ومواطن اهتمامهم واهميتهم الذاتية . في المدرسة النهارية يكون الصغار هم وحدهم موضع الاهتمام ، من اجلهم يسخر كل شيء، حتى اذا جاءت الاجازات تعرض جو البيت لان يتحكموا فيه ، فهم في المدرسة الداخلية والبيت اقرب الى ان يصيروا متغطرسين جفاة يجهلون مشاكل الحياة عند الكبار ، ويكونون عن والديهم في شبه انقطاع .

وجريان الامور على هذه الصورة جدير ان يكون له أثر سيء في عواطف النشء ، فمحبتهم لوالديهم يعتريها الضمور ، ولا يجدون في أنفسهم حاجة أبداً لأن يلائموا بين انفسهم وبين الذين يختلفون عنهم في المشارب والمشاغل من الناس، وهذا فيما أرى ينزع بصاحبه الى نوع من استئثار النفس الى شعور بأن شخصيته شيء عن غيره بمعزل . والأسرة هي خير مصحح طبيعي لهذه النزعة لأنها وحدة مؤلفة من اناس مختلفي العمر والجنس والأعمال ، ففيها حياة عضوية لا تتوافر في

المجموعة المتشابهة من الناس . والوالدان يحبان اطفالهما لما يسببون لهما من متاعب جمة ، فاذا لم يسبب الوالدان لأطفالهما متاعب من اي نوع لم يحفل بهما الأطفال . لكن هذه المتاعب التي يسببانها لهم يجب ان تكون متاعب مشروعة بالقدر اللازم لقيام الأطفال بأعمالهم وليحيوا حياتهم الخاصة . واحترام حقوق الآخرين هو من الأشياء التي يجب ان يتعلمها النشء ، وتعلمه اسهل في الأسرة منه في اي مكان آخر . ومن الخير للبنين والبنات ان يعرفوا ان الاب قد تساوره وتثقله الهموم ، وان الأم قد يضنيها انشغالها بمختلف التفاصيل . ومن الخير ان يظل بر الوالدين وحبهم حيا بعد البلوغ . فان دنيا تخلو من تحاب ذوي الأرحام خليقة ان تكون جافة آلية تتألف من افراد يحاولون السيطرة فاذا مـــا فشلوا ذلوا وخنعوا . واني اخشى ان هذه الآثار السيئة تنتج الى حد معين من ارسال الاطفال الى المدارس الداخلية ، واعدها من الخطورة بحيث توازي او ترجح العظيم من المزايا .

وفي الحق بالطبع كما يؤكد علماء النفس الحديثون ان نفوذ الوالد او الأم اذا زاد عن الحد اضر ضرراً بليغاً ، لكني استبعد حدوث هذا اذا ارسل الاطفال الى المدرسة من سن الثانية او الثالثة كما سبق ان افترضت . فالمدرسة الخارجية في العمر المبكر تهيىء في رأيي الحل الصحيح الوسط بين سيطرة الآباء وزوال نفوذهم . والظاهر انه اذا احسن البيت كان هذا خير مسلك فيما يتعلق بالاعتبارات التي كنا نتحدث عنها آنفاً .

وهناك خطر معين على الأولاد ذوي الحساسية في تركهم وصحبة غيرهم من الاولاد فحسب ، فالاولاد في سن الثانية عشرة يكونون في معظم الاحيان اقرب الى البربرية وعدم الاحساس ، فقد حدث منذ قليل في احدى المدارس العامة الشهيرة ان اصيب ولد بأضرار جثمانية خطيرة من جراء اظهار عطفه على حزب العمال . فالاولاد الذين يختلفون عن الاغلبية في آرائهم واذواقهم يكونون عرضة للاذى الشديد ، وفي احداث المدارس النهارية واكثرها تقدماً كان انصار البوير يلقون عنتا اثنـــاء حرب البوير ، وكل ولد شغوف بالقراءة او لا يحس

بكراهية لعمله المدرسي لا يكاد ينجو من سوء معاملة زملائه . وفي فرنسا يذهب انجب الاولاد الى مدرسة المعلمين العليا (النورمال) ولا يختلطون بعد ذلك بالاولاد المتوسطين . ولهذه الخطة حقاً مزايا ، فهي تقي ذوي العقول الراجحة ان تحطم اعصابهم ، وفي تجنب الولد الذي لا يحبه زملاؤه ما لا بد ان يلقاه من عنت وابتئاس، وهي تمكن من اعطاء النجباء التعليم الذي يلائمهم والذي يكون أسرع كثيراً مما يتسنى لمن هم اقل ذكاء هذه هي مزاياها ، لكنها من جهة اخرى تعزل الممتازين في عقولهم عن بقية افراد المجتمع في الحياة المقبلة ، وقد تجعلهم اقل مقدرة على ان يفهموا الرجل العادي،وعلى الرغم من هذا العيب المحتمل فهي في نظري خير مما اعتادته الطبقة العالية من البريطانيين من سوم جميع الاولاد الممتازين في عقليتهم او في صفاتهم الخلقية العذاب الا اذا تصادف وكانوا ايضاً بارعين في الالعاب .

ومع ذلك فان توحش الاولاد غير ميئوس من علاجه ، وهو في الواقع أقل بكثير مما كان عليه . فأيام (توم براون المدرسية) تعطي صورة سوداء لو طبقت على المدارس العامة في ايامنا لكان فيها مبالغة ، وهي اقل انطباقاً على الاولاد الذين يتلقون في تربيتهم الاولى النوع الذي نظرنا فيه في الفصول السابقة . وفي رأيي ان التعليم المشترك بين البنين والبنات – الذي أظهرت بديلز انه ممكن في المدارس الداخلية – جدير ان يكون له اثر تهذيبي في البنين . اني اتحرج من الاعتراف بفروق ذاتية بين الجنسين ، لكني أعتقد ان البنات اقل من البنين ميلا الى معاقبة الغرابة بالاذى البدني الشديد . ومع ذلك فليس هناك في الحاضر الا قليل جدا من المدارس الداخلية أجرؤ على ان ابعث اليها بالصبي الذي يكون فوق المتوسط في ذكائه وفي اخلاقه وفي حساسيته ، او الصبي الذي يكون غير محافظ من الناحية السياسية او غير تابع للكنيسة العامة في مذهبه الديني . اني على يقين من ان نظام المدارس العامة الموجودة ضار بأمثال هؤلاء الاولاد ، وفي زمرتهم يدخل تقريباً كل ذي موهبة غير عادية من اي نوع .

وليس في الاعتبارات السابقة سواء اكانت للمدارس الداخلية ام عليها سوى اعتبارين اساسيين ثابتين ، كل منهما في طرف . هنـــاك في طرف ميزة الريف والهواء والفضاء ، وهناك فى الطرف الآخر التراحم والتحابب والتربية المستقاة من معرفة التبعات في الاسرة . وهناك حجة اخرى للمدارس الداخلية بالنسبة للوالدين اللذين يسكنان الريف، هي ضعف احتمال وجود مدرسة خارجية جيدة حقاً بجوارهم. ونظراً لتلك الاعتبارات المتناقضة لا ارى في الامكان الوصول الى قرار عام ، فحيثما يكون الطالب من الصحة والقوة بحيث لا يقوم للاعتبارات الصحية وزن كبير تسقط حجة للمدارس الداخليـة ، وحيثما يكون الاطفال شديدي التعلق بوالديهم تسقط حجة للمدارس الخارجية اذ يكون في الاجازات الكفاية للابقاء على محبة الاسرة ، ولعل العطالات تكفي في ان تحول دون الافراط في تلك المحبة . ومن مصلحة الطفل الحساس ذي المواهب الخارقة الا يذهب الى مدرسة داخلية بل قد يكون الافضل في بعض الحالات عدم ذهابه الى مدرسة ما . والمدرسة الجيدة بطبيعة الحال خير من البيت الرديء ، كما ان البيت الجيد خير من المدرسة الرديئة ، لكن اذا كان الاثنان جيدين وجب ان يحكم في كل حالة تبعاً لظروفها .

لقد كنت الى الآن اكتب من وجهة الآباء ذوي اليسار الذين يمكن كل منهم الاختيار بين المدرستين . اما اذا نظرنا في الامر من الناحيـــة السياسية ، اي من وجهة الجماعة كلها ، دخلت امور اخرى في اعتبارنا ، فهناك من جهة مصاريف المدرسة النهارية ، ومن جهة اخرى تسهيل مشكلة السكن اذا كان الاطفال بعيدين عن بيوتهم ، واني – بغض النظر عن حالات نادرة قليلة – ارى واتشدد انه ينبغي ان يتلقى كل انسان تربية مدرسية الى سن الثامنه عشرة ، والا يبدأ الاعداد المهني الصرف الا بعد هذه السن . ومع انه من المستطاع ان يقال الكثير

في هذا الموضوع من وجهة نظر الطرفين فسيظل الاعتبار المالي مدة طويلة هـو الحكم الفصل في تفضيل المدارس الخارجية لأولاد اكثر كساب العيش وبناتهم . واذا لم يكن هناك اسباب واضحة تدعو لتخطئة هذا القرار ، فمن الجائز لنا ان نقبله على الرغم من انه لا يقوم على أسس تربوية .



- ١٨ -

الجامعة

تناولنا في الفصول السابقة تربية الخلق والمعرفة ، وينبغي في النظام الاجتماعي الجيد ان يتمتع كل واحد بالحقيقة الواقعة ، باستثناء العقول الراجحة القوية مثل العبقرية الموسيقية (وقد شاء سوء حظ موزارت ان يجبر على تعلم مواضيع المدرسة العادية في سن الثامنة عشرة من عمره) ولكني أحسب في الجماعة السائرة على المنهج العقلي ان بعضها لا يفكر في الذهاب الى الجامعات ، على أني أميل الآن الى ان حداثة التعليم تكون ذا فائدة اكثر في التربية الى سن الواحد والعشرين والاثني والعشرين ، ويتساءل الآباء عند بلوغ أولادهم المرحلة الجامعية الى اي جامعة سوف يرسلون بنيهم ، وقبل الاجابة عن هذا السؤال عليهم ان يبحثوا غرض الجامعة في الهيئة الاجتماعية .

وفي فرضنا ان للجامعات هدفين : ان تعد من جهة الرجال والنساء لمهن معينة ، وان تتابع من جهة أخرى الدرس والبحث بغض النظر عن المنفعة العاجلة ، فاذا نحن نبغي ان نرى في الجامعات اولئك الذين سيمارسون تلك

المهن بعد ، وأولئك الذين وهبوا ذلك النوع الخاص من المقدرة الذي سيجعل منعهم نافعين للدرس والبحث . لكن هذا وحده لا يقرر كيف يتسنى لنا اختيار الرجال والنساء للمهن المختلفة .

ومن العسير جداً في الوقت الحاضر ان يتطلع الشخص لمهنة كالحقوق او الطب ما لم يكن لدى والديه مقدار معين من المال ، لأن الاعداد حتى التخرج باهظ النفقة ، ولان الكسب لا يبدأ بعد التخرج مباشرة ، ونتيجة ذلك ان اصبحت قاعدة الاختيار اجتماعية وراثية بدلا من ان تكون الصلاحية للعمل . خذ الطب على سبيل المثال . فالجماعة التى تبغي ان يكون تطبيبها عن كفاية تختار لمهنة الطب من بين النشء من كان أعظم رغبة فيه واستعداداً له ، وهذه تطبق في الوقت الحاضر تطبيقاً جزئيا ، اذ يكون الاختيار من بين أولئك الذين يقدرون على تحمل الأعباء المالية لهذا التعليم . ولكن من المرجح جداً ان كثيرين من الذين لو أعطوا الفرصة لكانوا خيرة الأطباء،يمنعهم الفقر من ان يسلكوا هذا الطريق ، وفي ذلك ضياع للمواهب يؤسف له .

ولنأخذ مثلا آخر يختلف قليلا في نوعه ، الزراعة. ان الزراع يختارون في الغالب بالوراثة ، هم في العادة ابناء زراع لكن فيهم من هم أبناء من اشتروا مزارع مما يدل على أنهم ذوو رأس مال من غير ان يكونوا حتما ذوي مهارة زراعية . ومن المعروف ان الطرق الدنمركية الزراعية اكثر انتاجا من طرقنا ، لكننا لا نتخذ سبيلا الى تعريف زراعنا بها . ينبغي ان نصر على ان من يزرع أكثر من مساحة قليلة يجب ان يكون حاصلا على دبلوم علمي في الزراعة ، اصرارنا على ان السائق يجب ان يكون حاصلا على رخصة . ان قاعدة العمل الوراثي ينبغي ان يستعاض عنها بقاعدتين بينهما صلة : أولاهما ألا يسمح لأحد بمباشرة عمل مهم الا اذا حصل على المهارة اللازمة ، والثانية ان هذه المهارة يجب ان تعلم لأقدر الراغبين فيها من غير نظر الى ثروة والديهم . ومن الواضح ان هاتين القاعدتين اذا اتبعتا تزيدان كثيراً في كفاية القائمين بالمهم من الأعمال .

فالتربية الجامعية ينبغي اذا ان تعتبر امتيازاً يتمتع به ذوو المواهب الخاصة بحيث يكون على الدولة ان تنفق على الذين تتوفر فيهم المهارة دون المال اثناء تعليمهم الجامعي. لا ينبغي ان يقبـل أحـــد في هــذا التعليم الا اذا اجتــاز اختبارات المقدرة ، كما لا ينبغي ان يسمح لأحــد بالاستمرار فيه ما لم تطمئن السلطات الجامعية الى انه ينتفع بزمنه الانتفاع اللازم . ان فكرة ان الجامعة مكان للفراغ يصرف فيه الشبان الموسرون ثلاث سنوات او اربع آخـــذة في التلاشي مثل تشارلس الثاني ولكن ببطء شديد .

واذا قلت ان الفتاة او الفتى لا يصح ان يكون في الجامعة كسلانا فعلي ان اسارع فأضيف ان الاختبارات التي تدل على العمل لا يصح ان تكون مجرد اتباع آلي للنظم . ففي الجامعات الحديثة في انجلترا ما يؤسف له من النزوع الى الاصرار على حضور عدد من المحاضرات لا يحصى ، مع ان الحجج التي في جانب العمل الفردي والتي تعتبر قوية في حالة الأطفال بالمدرسة المنتسورية هي أشد قوة في حالة الشباب في سن العشرين ، وعلى الأخص عند ما يكون كما نفترض متحمساً موهوباً . ولما كنت طالباً بالجامعة كان شعوري أنا ومعظم اخواني ان المحاضرات كانت مضيعة تامة لوقتنا ، ولا شك في أننا كنا مبالغين لكنها مبالغة لم تكن كبيرة . ان السبب الحقيقي في وجود المحاضرات هو انها عمـــل ظاهر يستريح رجال الاعمال الى التبرع له بالاموال . ولو ان معلمي الجامعة اتبعوا خير الطرق وأجداها لحسبهم رجال الاعمال كسالى ولأصروا على إنقاص عددهم. وفي وسع أكسفورد وكامبردج نظراً لمكانتهما ان تتبعا الطرق الصحيحة الى حد ما . لكن الجامعات الاحدث منها لا تقوى على مقاومة رغبات رجال الاعمـــال ، وكذلك معظم الجامعات الامريكية . ان المعلم ينبغي ان يعطي الطلبة في مبدأ الفصل الدراسي قائمة بالكتب التي يتحتم عليهم قراءتها بعناية ، ويشير الى كتب اخرى قد يرتاح اليها بعضهم دون بعض . وينبغي ان يضع أوراقاً من الاسئلة لا تتيسر الاجابة عليها الا لمن لاحظ وتفهم النقط المهمة اثناء قراءة الكتب. وعليه

ان يقابل تلاميذه فرادى مقابلة شخصية عقب اجابتهم على الاسئلة ، وينبغي ان يرتب اجتماعاً في المساء مرة كل اسبوع او اسبوعين يقابل فيه من يكلفون انفسهم المجيء في المساء ويحادثهم عقب الساعة في المسائل المتصلة من قريب او بعيد بعملهم. وهذا كله لا يختلف كثيراً عن المتبَع في الجامعات القديمة . واذا عنّ لطالب أن يضع لنفسه اسئلة تختلف عن اسئلة معلمه فيجب ان يسمح له ما دامت أسئلته تعادل اسئلة معلمه من حيث الصعوبة . أما جد التلاميذ فيمكن الحكم عليه من اجاباتهم .

على ان هناك نقطة في غاية الاهمية ، هي انه ينبغي على كل مدرس في الجامعة ان يشغل نفسه بالبحث ، وان يكون لديه من النشاط وان يتيسر له من الفراغ ما يكفي لتمكينه من الاطلاع على ما يجري في جميع الممالك الاخرى في مادته . والبراعة في فن التعليم تفقد أهميتها في التعليم الجامعي ، فالمهم فيه هو تمكن الانسان من مادته وحرصه على التعرف على ما يجري فيها في كل مكان ، وتحقيق هذا مستحيل على الشخص المثقل بالعمل المجهدة اعصابه بالتدريس ، فقد تصير مادته من جراء ذلك ثقيلة على نفسه ، ويكاد يكون من المحقق ان تصير معلوماته قاصرة على ما تعلم في صباه . وينبغي ان يعطى لكل معلم سنة اجازة (بعد كل ست سنوات في العمل) يصرفها في الجامعات الاجنبية او بالصورة التي تمكنه من اكتساب المعرفة التي استحدثت في الخارج ، وهذا أمر شائع في امريكا . لكن الممالك الاوربية عندها من الزهو العقلي ما يمنعها من الاعتراف بضرورة هذا ، وهم في هذا جد مخطئين ، فالذين علموني الرياضيات بكامبردج كانت صلتهم تكاد تكون مقطوعة تماماً بما استحدث في الرياضيات في القارة الاوربية خلال العشرين او الثلاثين سنة السابقة ، فلم اسمع مدة دراستي الجامعية كلها بفايرشتراس Weierstrass ، ولم أتصل بالرياضيات الحديثة الا في رحلاتي واسفاري بعد ذلك. ولم تكن حالتي بالنادرة أو الشاذة ، فمثل هذا يمكن ان يقال عن كثير من الجامعات في كثير من الفترات .

ويوجد في الجامعات بعض تعارض بين الفريق الذي يجعل الاهمية الاولى للتعليم والفريق الذي يجعل الاهمية الاولى للبحث ، ويكاد يرجع هذا كله الى فكرة خاطئة عن التعليم ، والى وجود عدد من الطلاب لا يصل اجتهادهم ولا كفاءتهم الى المستوى الذي يجب ان تتطلبه الجامعة كشرط اساسي يجب توفره فيمن يقيم فيها. فلا تزال فكرة المدرس القديم سائدة الى حد ما في الجامعات وهي الرغبة في التأثير الخلقي الجيد على الطلاب ، وفي تدريبهم على كثير من المعلومات العتيقة التي ظهر بطلان اكثرها ، ولكن يظن انها ترفع المستوى الخلقي. والطلبة ينبغي ألا يحضوا على العمل ، وكذلك ينبغي ألا يسمح لهم بالبقاء اذا تبين انهم يضيعون وقتهم عبثاً سواء أكان ذلك عن كسل ام من عدم استعداد . ان الخلق الوحيد الذي يحسن الاصرار عليه هو الجد والعمل ، اما الباقي فموضعه قبل ذلك من سني التربية . وخلق الجد والعمل ينبغي ان يفرض باخراج من يعوزهم هذا الخلق اذ لا شك ان من مصلحتهم الاشتغال بعمل آخر . كذلك المعلم بالجامعة ينبغي الا ينتظر منه ان يصرف ساعات طويلة في التدريس ، ينبغي ان يكون لديه الفراغ الكافي للبحث ، لكن ينبغي كذلك ان ينتظر منه ان يستخدم هذا الفراغ بحكمة .

ان البحث على أقل تقدير يعدل التربية في اهميتها عند النظر في وظيفة الجامعات في حياة الجنس البشري . فالمعرفة الجديدة هي السبب الاساسي للتقدم وبدونها سرعان ما تصبح الدنيا جامدة واقفة . نعم تستطيع ان تظل فترة من الزمن تتحسن ببث المعارف الموجودة بالفعل والتوسع في استعمالها واستخدامها. لكن هذه عملية لا يمكن ان تستمر وحدها طويلاً ، بل ان البحث وراء المعرفة اذا كان لغاية نفعية لا يمكن ان يعيش طويلاً بنفسه . فالمعرفة النفعية محتاجة لكي تثمر الى ان تطعم بالبحث الخالي من الغرض الذي ليس له هدف وراء الرغبة في

فهم الدنيا فهماً احسن . فخطوات التقدم العلمي العظيمة تكون كلهـــا في اول الأمر نظرية صرفة، ولا تكشف صلاحيتها للتطبيقات العمليه الا فيما بعد . واذا لم يقدر لبعض النظريات البارعة ان تستخدم في الحياة العملية فانها تظل مع ذلك قيمة بذاتها لأن تفهم الدنيا خير ما يطمح اليه الانسان .



- ١٩ -

النّهاية

الآن وقد انتهينا من رحلتنا فلنلق نظرة شاملة على الطريق الذي سلكناه لنرى الاراضي التي اجتزناها .

ان المعرفة التي يسخرها ويديرها الحب هي ما يحتاجه المربي وما ينبغي ان يحصل عليه تلاميذه . وفي السنوات الاولى يكون حب المعلم تلاميذه هو الاهم ، فاذا ما تقدمت السنون ازدادت بتقدمها اهمية المعرفة المعطاة . والمعرفة المهمة في اول الامر هي معرفة علم وظائف الاعضاء ، وعلم الصحة ، وعلم النفس ، والاخير من بينها يهم المعلم بصفة خاصة . والغرائز والانعكاسيات التي يولد بها الطفل يمكن ان تنميها البيئة الى عوائد مختلفة شتى ، ومن ثم الى اخلاق مختلفة شتى . ويحدث معظم هذا في بواكير الطفولة ، ولذا كانت هذه الفترة من العمر هي التي نستطيع ان نحاول فيها تكوين الخلق مع اعظم الرجاء في النجاح . ان الذين يرتاحون الى الشرور القائمة بالفعل يلذ لهم ان يقرروا ان الطبيعة البشرية لا سبيل الى تغييرها ، فاذا كانوا يعنون بهذا ان لا سبيل الى تغييرها بعد سن السادسة

كان لما يقولون نصيب من الصحة ، واذا كانوا يعنون انـه ليس في وسعنا تغيير العرائز والانعكاسات التي يولد بها الطفل كانوا كذلك على حق الى حد كثير او قليل وان كان في استطاعة علم تحسين النسل بطبيعة الحال ان يصل حتى في هذا المجال الى نتائج تذكر ، ولعله سيصل بالفعل. اما اذا كانوا يعنون كما هي عادتهم ان لا سبيل الى خلق جيل من البالغين يختلف سلوكه اختلافاً اساسياً عن سلوك الجيل الحالي فانهم بقولهم هذا يرفضون علم النفس الحديث كله. انه اذا كان لدينا طفلان ولدا على خلق واحد فقد يتحولان بتأثير اختلاف البيئة الاولى الى بالغين يختلفان تمام الاختلاف من حيث الميل والمزاج . وعمل التربيـة المبكرة وواجبها ترتيب الغرائز وتدريبها بحيث تنتج خلقاً متسقاً ، البناء احب اليه من الهدم ، والتودد احب اليه من التجهم ، فيه شجاعة وصراحة وذكاء وفهم . كل هذا ممكن تحقيقه في الجمهرة العظمى من الاطفال ، وهو يتحقق بالفعل حينما يعـامل الاطفال وتعالج شؤونهم كما ينبغي. فلو ان المعرفة الموجودة استعملت ، والطرق الممحصة بالاختبار طبقت ، لاستطعنا في ظرف جيل واحد ان نظفر بسكان يكادون يخلون من الامراض ومن النزوع الى الشر ومن الغباوة. والسبب في اننا لا نفعل ذلك أننا نؤثر الظلم والحرب .

فمادة الغريزة الفطيرة قابـلة في معظم الاحوال ان تؤدي على السواء الى المستحب او الى غير المستحب من الافعال . ولم يكن النـاس فيما مضى يفهمون تدريب الغريزة ولذا كانوا يضطرون للالتجاء الى القمع ، وكان العقاب والخوف هما الحافزين العظيمين لما كان يسمى بالفضيلة . ونحن نعلم الآن انْ القمع طريقـة رديئة لسببين، انه لا ينجح قط نجاحاً حقيقياً وانه يؤدي الى اضطرابات عقلية . اما تدريب الغرائز فهو طريقة تخالف ذلك تمام المخالفة ، في ذاتها وفي اسلوبها الفني . فالعوائد والمهارة يشقان كما يبدو قناة تسيل فيها الغريزة، مرة في طريق ومرة في آخر تبعاً لاتجاه تلك القناة . فاذا ما كونا العادات الصحيحة والمهارة الصالحة جعلنا غرائز الطفل نفسها تدفعه الى الافعال المستحبة ، ولا يكون

هناك شعور باجهاد اذ لا يكون هناك حاجة الى مقاومة اغراء. لا يكون هناك صد او صدم ، ويشعر الطفل انه يعمل من تلقاء نفسه بغير تقييد . ولا اريد ان تؤخذ هذه الاقوال بمعناها المطلق ، فستعرض على الدوام ظروف غير منتظرة قد يتحتم فيها استخدام الطرق القديمة ، لكن كلما ازداد علم نفس الطفل كمالاً ازدادت خبرتنا المكتسبة من مدارس الحضانة ، وازددنا اتقاناً في تطبيق الاساليب الحديثة .

لقد حاولت ان اضع امام القارىء الاحتمالات العجيبة المفتحة امامنا في الوقت الحاضر . فليفكر فيما تنطوي عليه : الصحة ، والحرية ، والسعادة ، والشفقة ، والفطنة ، كل ذلك عاماً شاملاً على وجه التقريب. اننا في جيل واحد نستطيع اذا شئنا ان نحقق عصر السعادة المنشود .

لكن لا شيء من هذا يمكن تحقيقه بدون الحب . ان المعرفة موجودة لكن عدم الحب يحول دون تطبيقها. واحياناً ما يدفعني الى اليأس عدم حبنا الاطفال، وحين أجد مثلاً قادة الاخلاق المعترف بهم كلهم تقريباً لا يريدون ان يتخذ اي اجراء لمنع ولادة اطفال مصابين بالامراض الزهرية . ومع ذلك فحب الاطفال يتجدد فينا وينطلق بالتدريج ، وهو من غير شك احدى نزعاتنا الفطرية . ولقد غشت عصور من الوحشية على نوازع الشفقة والرحمة التي فطر عليها السواء من الرجال والنساء . فلم تعدل الكنيسة الا حديثاً عن الحكم على الاطفال الذين لم يعمدوا بالعذاب في الآخرة . والوطنية مذهب آخر يجفف ينابيع الانسانية ، ففي خلال الحرب العظمى الاولى قضينا على جميع الاطفال الالمان تقريباً بالكساح. يجب ان نطلق العنان في نفوسنا لما فطرت عليه من الشفقة والرحمة ، واذا عرض لنا مذهب يتطلب انزال البؤس والشقاء بالاطفال وجب ان ننبذه مهما كان عزيزاً علينا . والمصدر النفسي لمذاهب القسوة هو في جميع الحالات تقريباً الخوف ، وهذا هو احد الاسباب التي من اجلها اكدت بقوة ضرورة التخلي عن الخوف في الطفولة . فلنبحث من اصولها المخاوف التي تكمن في النواحي المظلمة من عقولنا .

فاذا ما نجحنا في خلق جيل من الشباب قد تحرر من الخوف ومن الخطر ومن الغرائز الثائرة او المكبوتة فسنستطيع ان نفتح لهم دنيا المعرفة حرة كاملة، دون ان تكون هناك اركان مظلمة مخبوءة . واذا ما سلكنا في تعليمهم سبيل الحكمة وجدوا التعليم اقرب الى اللذة والسرور منه الى النصب والثقل . وليس من المهم ان نزيد مقدار ما نعلمه عما يعلم عادة في الوقت الحاضر لأطفال الطبقات ذوات الحرف . ان المهم هو روح المغامرة والحرية ، هو الشعور بالبدء في رحلة للاستكشاف ، اذا ما اتبعنا هذه الروح في التربية الرسمية فسيتممها التلاميذ الاكثر فطنة ذكاء بجهودهم الخاصة التي يجب ان تهيأ لها كل فرصة . ان المعرفة هي التي تنجي من سلطان القوى الطبيعية ومن الشهوات المحطمة . فبغير المعرفة لا يكون بناء دنيا آمالنا . وان جيلاً يربى على الحرية التي لا يشوبها خوف سيكون اوسع وأجرأ في آماله منا نحن الذين لا يزال علينا ان نصارع المخاوف الخرافية الكامنة لنا تحت مستوى الشعور والوعي . ان احرار الرجال والنساء الذين سننشئهم هم ، لا نحن، الذين سيكون من نصيبهم شهود الدنيا الجديدة اولاً في احلامهم وآمالهم ، ثم في النهاية في بهاء طبيعتها الممتازة .



الفهرس